

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية



الأسس الثورية

للقومية العربية

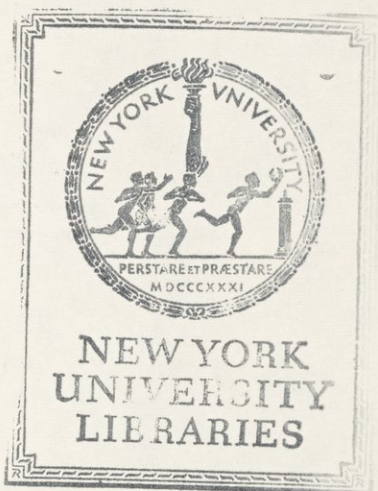
بقلم

احمد الشيباني

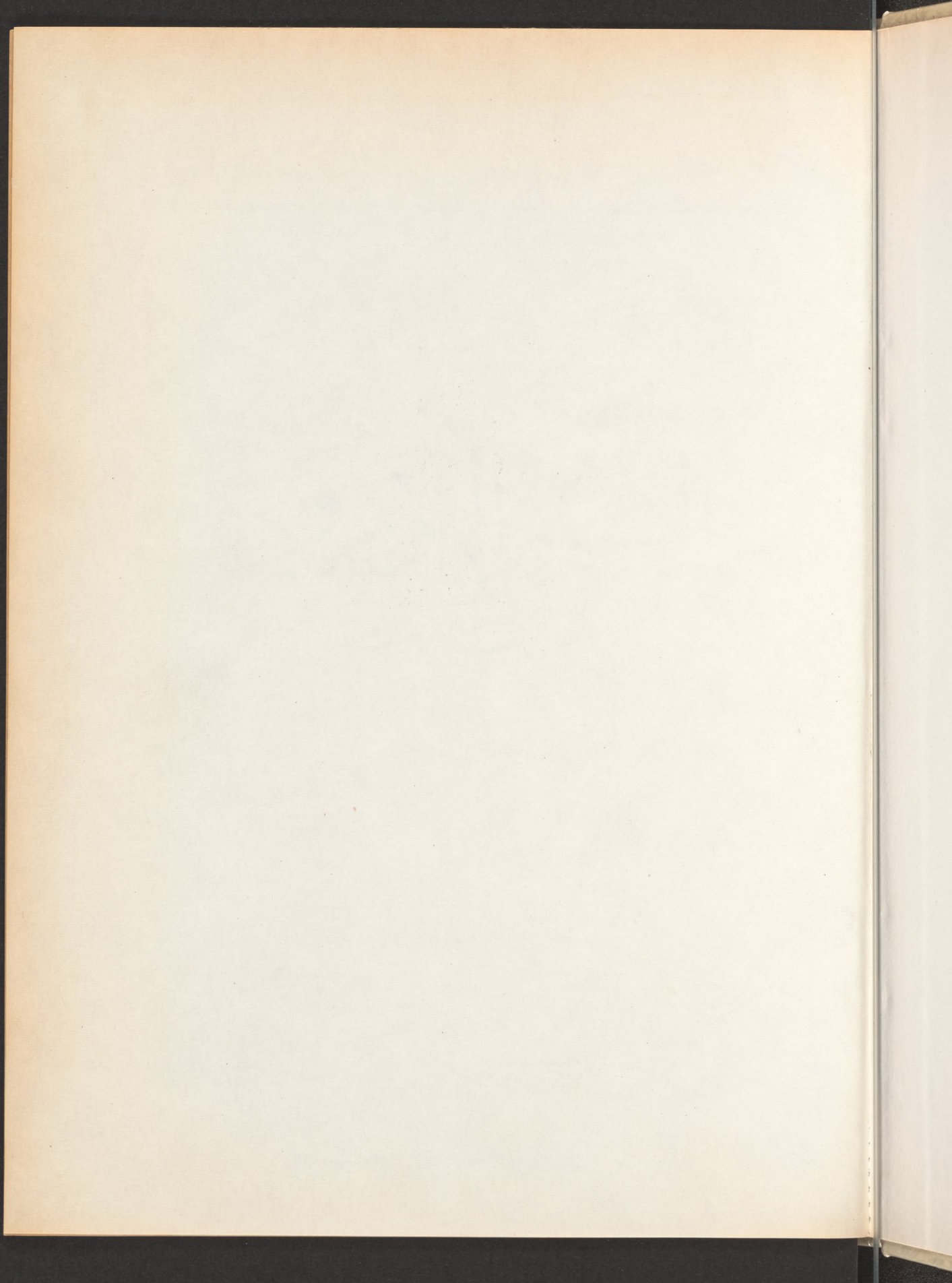
BOBST LIBRARY



3 1142 02839 8322



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY



ly

...

mad

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بدمشق



/al-Usus al-thawrawiyah
lil-qawmiyah al-arabiyah/

الأسس الثورية

للقومية العربية

al-Shībānī, Ahmad

بِقَلَمِ

احمد الشيباني

N. Y. U. LIBRARIES

Near East

DS

• 63

. 7

. S5

c. 1

مفرد الترجمة والطبع والنشر والاقتباس
محفوظة
لدار البقطة العربية للنألف والترجمة والنشر
دمشق - سورية

الاهداء

الى الروح العربية الاصيلة التي توجه الجيوش العربي في فلسطين
السوري والمصري .

الى الروح العربية الواعية المتجسدة في القائديهم العظميين : المواطن العربي
الاول الرئيس شكري القوتلي ، والتائر العربي الاول جمال عبد الناصر .
نهدي كتابنا شكراً وعرفاناً .

و
و
الف
من
وال
لتمت
نص

المقدمة

إنه لمن دواعي سروري وفخوري ان يصدر كتابي هذا والقومية العربية قد حققت أول أهدافها في خلق الجمهورية العربية المتحدة .
إن هذا الكتاب يمثل جهداً متواضعاً ومحاولة مقل لتخطيط ايدولوجية واضحة للثورة التي تخوض غمارها القومية العربية في سبيل تحور العرب ووحدتهم .

لقد كتبت هذا الكتاب وأنا أظن ان ميلاد الجمهورية العربية المتحدة وتحققها لا يزالان عزيزي المنال بعيدي المجال ، لذلك يلمس القاريء الكريم في الفصلين الأولين من كتابي انني كنت اتحدث عن الثوريين العرب في كل من الاقليمين المصري والسوري معتبرا هذين الاقليمين دولتين كاملتي السيادة والاستقلال ، غير ان ما جاء في هذين الفصلين لا يزال كما ارى ذا فائدة وجديرا بمطالعة القاريء الكريم .

لقد تحدثت في الصفحة ٦٢ و ٦٣ من كتابي هذا عن ضرورة بقاء الحياة الحزبية في سورية . ولقد كان حديثي هذا سابقاً لقيام الجمهورية العربية المتحدة ، ومن ثم تحدثت عقب قيام الجمهورية العربية المتحدة عن ضرورة انصهار الاحزاب في بوتقة الاتحاد القومي ، وسبب هذا التناقض في حديثي لا يعود أبدا الى الخوف أو الرهبة بل انما يعود أولاً وأخيراً الى الأسباب التي بنيتها في موضع آخر من هذا الكتاب وهذه الاسباب تتلخص بضرورة مركزة المسؤولية في هذه المرحلة التي تمر بها ثورتنا المباركة ، شريطة ان تعود الحياة الحزبية عقب انتهاء مرحلة تنسيق القوى الثورية في كل من الاقليمين ولا أعتقد بان هذه المرحلة تستغرق اكثر من دورة تشريعية

واحدة تمتد من أربع الى خمس سنوات ، وذلك لأن الاتحاد القومي كما أراه
يمثل فترة الانتقال من فوضى الحياة الحزبية الى تنظيم مثل هذه الحياة .
لقد سعت في كتابي هذا ان اقول ما أراه حقاً وأن أدون ما أؤمن به
من عقائد كقومي عربي يدين بالانسانية ، وواجب الكاتب كما أعتقد هو أن
يقول ما يعتقد لا أن يحمل الناس على تبني معتقداته والايان بها ، فالانسان
معرض في كل خطوة من خطواته للخطأ ، والخطأ والاختفاء هي الحافز الأول
والأخير للانسان الحي على الدراسة والعلم والعمل .

دمشق في ١١ شباط ١٩٥٨

« أحمد السيماني »

الاسس التَّوروية

للقومية العربية

أراد

من به

أنت

لأنسان

والأول

وأخيراً
التطويع
نعم
العالم
و
فسياس
والتقدم
حولاً
المنج
الشكا
النفس
ويقتلع
و
وبالتالي

الفصل الاول

في مفهوم الثورة

١ - ماهي الثورة ؟

الثورة هي انفجار اجتماعي ينسف نظاماً كاملاً بجميع ما يدعمه من مؤسسات وهيئات وأحزاب وتقاليد وقيم ، وذلك لعجز ذاك النظام - أو بالأحرى عجز القائمين عليه عن التطور والتبدل ، للملاقة وتنظيم فاشباع الحاجات المادية والروحية لجمهرة اكثورية شعبية تعي ذاتها ، وتعزم على ممارسة وجودها كقوة انسانية فاعلة في وطنها وقومها ومن ثم في العالم والحضارة الانسانية .

والثورة تهب عواصفها وتندلع نيرانها نتيجة اختار طويل لعوامل اقتصادية واجتماعية فسياسية ، وتغذي هذه العوامل الرغبة الأزلية الابدية في نفس الانسان في التطور والتقدم وهذه العوامل الآفة الذكر تخلق مشاكل اجتماعية جديدة تطلب وبالاحاساء حلولاً لها ، ولما كان النظام السابق وجوده وجود تلك المشاكل غريباً عن المشكلات المستجدة ، أو بالأحرى عاجزاً عن تقديم حلول لها ، ولما كان اول حل جوهري لتلك المشكلات هو زوال النظام القائم بالذات ، لذلك تتطور الرغبة في الاصلاح والتقدم في النفس البشرية فتصبح ارادة عامة تنفذ فعلاً جماهيرياً يكتسح النظام القائم ويهدم مؤسساته ويقتلع جذوره التي كانت قد ضربت عميقاً عميقاً في تربة المجتمع .

والثورات نوعان ، نوع يطبعه قائد او زعيم بطابعه ونوع آخر لا زعيم له او قائد وبالتالي لا طابع معين وواضح له .

أ - النوع الاول :

أما النوع الاول فهو يمثل الثورة العاقلة المعقولة المضمونة من الرجعة والانتكاسات ، اذ ان الزعيم أو القائد ، أفرداً كان أم جماعة يكون ويكونون أثناء فترة الاختار ونمو الرغبة في الثورة قد حضروا المفاهيم والبرامج التي تتحكم بدفة سفينة الثورة وذلك كي يجنب أو يجنبوا السفينة عواصف التطرف والفوضى والعدمية وكي يسيروا سفينة الثورة وفق الخط المرسوم لسيورها دون ما انحراف حتى تصل الثورة الى مقاصدها آمنة سالمة وبأقل قدر ممكن من الخسائر الاجتماعية ، التي لا مندوحة عن دفعها في حال قيام الثورات .

وخير مثال لهذا النوع من الثورات الثورة الروسية فلولا شخص لينين ولولا وجود هيئة منظمة تعي أهدافها وتعرف بكل دقة أغراضها ومقاصدها لاصاب الثورة الروسية ما اصاب الثورة الفرنسية من انتكاس ورجعة ولذلك فان الثورة الروسية هي ثورة لينينية اكثر منها ماركسية ولينين نفسه يقر بهذا ويعترف حينما يقول :

« اننا لا نعتبر الماركسية أمراً كاملاً منزهاً ، بل على العكس من ذلك فما هي الا حجر الزاوية في ذلك العلم الاجتماعي الذي يتوجب على الاشتراكيين أن يكتفوه في كل اتجاه ، حتى لا يتخلفوا عن سير الحياة واعتقد أن واجب الاشتراكيين الروس بوجه خاص ، ان يقوموا بدراسة النظرية الماركسية دراسة مستقلة لانها نظرية عامة يمكن أن تطبق في إنجلترا مثلاً بطريقة تختلف عنها في فرنسا وتختلف في فرنسا عنها في المانيا ومختلفة في المانيا عنها في روسية . »

بما ورد يفهم وبوضوح أن الثورة البناءة هي تلك القادرة على التكيف اقليمياً في حقول الاقتصاد والاجتماع والسياسة وذلك حين تخطيطها لنظام جديد يقوم على انقاض النظام الذي قوضته الثورة .

ومن أبرز حسنات هذا النوع من الثورات - النوع الأول - أن منطق الثورة هو الذي يفرض نفسه على الجماهير ولا يسمح أبداً للجماهير بالشذوذ عن قواعده ومراميه ، اذ أن هذا المنطق المتدفق من ايدولوجية واضحة المرامي واضحة الاهداف يلجهم رغائب الجماهير بلجام فولاذي ويسعى جاهداً لترويض نزوات الجمهور ويكافح مستميتاً في سبيل

ابقاء جذوة الارادة العامة للشعب في التقدم والبناء متأججة ، وذلك بغية ضرب الرجعية والانتهازية والفوضى ومن ثم البناء .

والثورة ذات الزعيم أو القائد ذي الايدولوجية الواضحة حركة ديناميكية ، وقوة هائلة تجر الجماهير وراءها وتمارس قيادتها ولا تنزل أبداً الى منطق الجمهور بل ترفع الجمهور الى مستوى منطقتها ، كما وأنه لا تقبل أبداً ان تسلم زمام القيادة للجماهير مهما كانت الاسباب او المصاعب التي تكتنف طريقها ، وذلك كله خشية التضييل فالانحراف فهي بهذا تؤمن بأن القائد أو القيادة هي بمثابة روح الثورة والمنبع الذي يغذي جميع روافدها ، وان التنازل عن دور القيادة هو بمثابة خنق مجرم لروح الثورة وتسليم للفوضى ومن ثم استسلام للرجعية .

وهذا النوع من الثورات يمثل زواجاً رائعاً وموفقاً بحريه قائد أو زعيم بين ايدولوجية مكتملة ناضجة ورغبة شعبية عميقة في تبديل نظام فاسد بواسطة الثورة . ومثل هذه الثورة نصيها النصر الاكيد وذلك لانها تعرف اين تقصد وماذا تريد .

ب — النوع الثاني :

أما النوع الثاني من الثورات - وهو النوع الذي لا زعيم له او قائد - فان اسباب الثورات من هذا النوع هي ذات اسباب الثورات من النوع الاول ، غير أن نتائج مثل هذه الثورات غير مأمونة وعواقبها خطيرة غير مضمونة ، وهذه العواقب خطيرة على أهداف الثورة وداهمة الخطر على الثورة ذاتها ، وذلك لان افتقار ثورة من هذا النوع الى قيادة واعية يجعلها بالتالي مفتقرة الى ايدولوجية مكتملة ناضجة واضحة ، محدودة الهدف معروفة المقاصد وهذا الامر مما يسلم الثورة بكل ما تملكه من طاقة هائلة وجبهوت واندفاع الى رغائب شعبية غامضة ، ومنطق فيج بعيد كل البعد عن الدراسة والعبرة والخبرة وعندئذ تأخذ الثورة بالتخبط ويأخذ خط سيرها بالتذبذب والتأرجح ، آنأ ينحرف بها نحو أقصى اليسار وحيناً يجرفها الى أقصى اليمين ، يوماً تبتدع قيماً تقديسها وتنزله منزلة العبادة وآخر تثور على القيم التي ابتدعتها فتحطمها وتدوسها كما داست على سابق قيم كانت قد هدمت النظام الذي انبثقت عنه .

أما الزعماء الذين ترتجلهم ثورة كهذه ، فانهم قلما يكونون زعماء ينسجمون وروح الثورة الاصيلة التي التهمت بين جوانح الشعب وأنت على نظام كان حتى قيام الثورة ثابت البنيان مرهوب الجانب . ومثل هؤلاء الزعماء الذين ترتجلهم الثورة لا يملكون من الزعامة سوى مظهرها وهم ورغبة منهم في الاحتفاظ بمظهر الزعامة يركضون لاهثين وراء الجماهير ، وبدلاً من أن يقودوا الجماهير ويوجهوها يتركون للجماهير مهمة قيادتهم وتوجيههم ، وبدلاً من أن يفعلوا في عواطف الجماهير ويروضوها ، نراهم ينفعلون وعواطف الجماهير ونزواتها ، أما أبرز صفات هؤلاء الزعماء فهو الجبن والاستسلام ، الاستسلام لرغائب الجماهير والجبن الخزي أمام نزواتها وبهذا تمتد يد الثورة دون ما رادع لتهدم الصالح كما هدمت الطالح ولتعذب الخير بالقسوة ذاتها التي ضربت بها الشر ، وهكذا تتحول الثورة من حيث كونها حركة مثالية بناءة الى صيرورتها حركة انكسارية تنكسر ما هو كائن وتنكسر الى ما يجب ان يكون .

ولما كانت كل حركة غير فاعلة ايجاباً لابد ان تحمد ، اذ ان استمرار الحركة هو في استمرار فعلها ايجاباً ، اذ ان الفعل الايجابي هو الغذاء الطبيعي للحركة الفاعلة حيث فيه تعيش وفيه توجد وفيه تخلق وتبدع وتنمو لذلك فان مصير ثورة كهذه هو الى الفشل المحتوم وبالتالي الخمود ، اذ ان عدم التركيز في حيوية القوى الثورية على أهداف معينة يوزع هذه القوى ويضعفها ويجعل منها جهوداً مهدورة ان مست سطح المشكلة فانها تعجز حتماً عن الغوص الى أعماقها وتفهم خفاياها وتحضير علاجاتها وحلولها ، وهكذا تختنق الثورة وتموت وتحلّي الطريق أمام الرجعة والانتكاس .

وأحسن مثال على ما ذكرت هو الثورة الفرنسية ، فالثورة الفرنسية هي دليل مخيف هائل ومحزن على نتائج ثورة قامت دون قائد ونشبت وهي تفقر الى زعامة جريئة واعية تحتضنها منذ ولادتها حتى اكتمالها .

نعم لقد كان للثورة الفرنسية فلاسفة ومفكرون حضروا لها كجان جاك روسو ومونتيسكيو وفولتير وديدرو ، وكان هناك نظام فاسد وحكم جائر عضوض ، وكانت هناك مظالم وكان هناك طغيان ، غير أن روسو وأضرابه من المفكرين الذين مهدوا

لثورة الفرنسية وضعوا خطوطاً عامة كانت بمسيس الحاجة الى عقل عملي وقدرة تطبيقية ومهارة وتقاني وطني بعيد عن الاطماع والاهواء والانانية ليصوغ منها نظاماً لدولة أساسه العدل والحرية والكرامة .

لقد وضع اولئك المفكرون حجر الزاوية لايدولوجية رائعة ، غير أن الثورة الفرنسية لم تكد ، أو بالأحرى لم تجد القائد أو الزعيم الذي كان بمستطاعه أن يقيم على حجر الزاوية ذاك ايدولوجية متكاملة تتناول بالعلاج شؤون المجتمع الفرنسي في أدق دقيقتها . ولذلك فإن الشعب الفرنسي عندما هدم الباستيل وقطع عنق الملك وألغى امتيازات الكنيسة والاشراف اعتقد بان الثورة قد حققت أهدافها .

ولما كان تقويض النظام القائم ليس غاية في ذاته بل انما هو وسيلة الى غاية ، اذن الغاية الحقيقية لكل ثورة أو حركة ثورية هي اقامة نظام جديد لا يضيق بكرامة الانسان وحرية بل انما ينظم هذه الحرية ويدعم تلك الكرامة ، لذلك توقفت الثورة الفرنسية عقب هدم مؤسسات النظام الملكي ولم تخط خطوة واحدة في طريق بناء مجتمع أفضل ، كما وأن العنف المرير الذي عاينت به الثورة الفرنسية النظام الملكي استنزف جميع قواها ، وأخذت موجاتها بالارتداد في طريقها الى الجمود والانطفاء ، ولما حاول روبسبير ان يدفع بموجات الثورة الى الأمام من جديد كانت قوى الردة اكبر منه فجرفته وأطاحت برأسه تحت سكين المقصلة . وهكذا عادت الرجعية الى فرنسا لتحمل الى عرش الامبراطورية ديكتاتورية عسكرية طاغية التهمت المبادئ الأساسية للثورة الفرنسية وقوضت مثلها العليا وأخيراً اختتمت الملهة بتتويج الرجعية بعودة آل باربون .

بما ورد يتضح ان كل ثورة تفتقر الى زعامة اصيلة تفتقر حتماً الى ايدولوجية ناضجة تحدد للثورة أهدافها وترسم لها خط سيرها وتجنبها التراجع والشطط . والزعامة في كل مراحل الثورة اكثر من ضرورة ، وأعني بالزعامة تلك الهيئة أو الفرد الذي تلبسه فكرة نيرة وتميزه شخصية جريئة ترفض وفي كل الاحوال الدخول مع الجماهير أو الظروف الطارئة — أقول الطارئة — في مساومات ، ولا تتراجع أو تتوقف أمام ما يسمى بالضرورات الملزمة اذ انها ترى في هذه الضرورات عقبات جديدة في طريقها بالشعب الى

أهدافها فتكنس أو تنسف هذه العقبات بالعنف والقوة ذاتها التي كنست أو نسفت بها النظام المقوض ، وذلك لان اخلاصها لرسالتها ووعيتها لذاتها وتفهمها لاهدافها ومعرفتها بحقائق وجودها ، كل هذه الامور تجعلها ترى في القلق او التوقف القلق ، او الحيرة جبناً وتردداً وبالتالي انهزاماً امام الرجعة واستسلاماً لها

لذلك تذهب العقيدة الثورية بابنائها الأصلاء الى حدود المخاطر والمغامرات والحيانا تجتاز بهم هذه الحدود وتفرض عليهم ان يعيشوا لحظات كلها حرج وكلها خطر ، يترصدهم الموت والاغتيال وتنفت حولهم سموم الحيوانات وتفتح بالقرب من آذانهم أفاعي الغدر ، وهنا تبلغ الثورة الاصلة ذرى السمو والرفعة ، اذ ان عليها في هذه اللحظات الحاسمة ان تمتحن امكاناتها ، وعقائدها وتراثها وتقاليدها ، فاذا تمكن رجالها من المحافظة على هدوء روعهم وتجنبوا دوامات القلق وسلجوا الحكمة بالشجاعة لا بالمساومة « والضرورات الملزمة » فعندئذ تنصر الثورة وينتقل الوعي الثوري من القادة الى الجماهير ، وانتصار الثورة هذا يكون الثمرة الطبيعية لا يدولوجية ناضجة ولدت زعامة واعية جريئة أصيلة .

اذن فالثورة المقودة او المتزعمة هي تلك التي يتدفق منطقها من ايدولوجية متكاملة ويخضع عقلها ارادتها لمنطقها الثوري وتلجم ارادتها رغائب قادتها ونزوات الجماهير . ومثل هذه الثورة البناء تبدأ دائماً في نفوس قادتها وتنبؤوا بها أول ما تهب في ذواتهم وعلى ذواتهم وتطهر نيرانها ضماؤهم من شوائب الانانية وأدران الوصولية والطمع ، وترتفع بهم عن جميع الرغائب الحسية والمنافع الشخصية وتجعلهم نساكاً زاهدين متبتلين وتصونهم من جميع صور الاغراء ، وتحفظ عليهم نفوسهم من أن تفسدها السلطة المطلقة فتجنّبهم من اساءة استعمال السلطة الجبارة التي تمنحها الثورة لمن يمتشقون الحسام باسمها ، وعندما يتم للقادة ما ذكرت من أمور آنذاك وآنذاك فقط تتدفق سيول الثورة المطهرة الى نفوس الجماهير فتغسلها وتطهرها من الغوغائية والانكارية والفوضوية ، فيبعث في نفوس الجماهير ايمان جديد واهتمام جديد يتجاوزان بالفرد في الجمهور أمور طعامه ولباسه وسكنه الى أمور اكثر سموً ورفعة وبذلك يعي الفرد في الجمهور دوره الثوري وعياً تاماً كاملاً ويعرف بان المهمة التي فرضها عليه عصره الثوري مهمة شاقة عسيرة فيها البالغ من التقشف والعضوض من الحرمان وان رسالته

الحقيقة هي جهد ونصب ، هي هدم وبناء ، وأن جميع نتائج اعماله ، وثمار جهوده قد اوقفها القدر التاريخي على الجيل او الأجيال التي تعقبه .

وهذا الوعي الثوري اذا هيمن على نفوس الشعب وضمائره ، تبرز حينذاك في الشعب فضائل التضحية والسمو والاشراق ، ويصبح شعباً منيعاً قوي الشكيمة مرهوب الجانب ، شعباً لا يعرف الشكوى ولا يعرف الانين ولا يعرف التذمر ، بل يعرف امراً واحداً وحيداً ، وهذا الامر يتلخص بأن عليه رسالة يجب ان يؤديها وواجباً يجب ان يؤدي وان الطاقة المخترنة في اجساد ابنائه قد رصدت كل ذرة من قواها على بناء حضارة لا التمتع بلذاث مدنية .

ج — ضمير الثورة :

قلنا ان منطق الثورة المتدفق من ايدولوجيتها هو الذي يرسم للثورة خط سيرها ويحميها من الانحراف واهدار الجهد وتبذير القوى وتبديدها ، غير انه يتوجب على كل ثورة تريد لنفسها النجاح ولأهدافها التحقيق ان يكون لها بالاضافة الى ايدولوجية ومنطق ضمير يراقب تنفيذ خطى الثورة ويهذب من قسوة المنطق ويلطف من شدة احكامه . ومهمة الضمير في الثورة ، مهمة شاقية عسيرة ، اذ انها تتعلق بدراسة وتلطيف ردود الافعال التي تحدثها أفعال الثورة في النفس البشرية ، اكانت تلك النفس في المجتمع او الوطن الذي تعيش فيه الثورة او في مجتمع او وطن آخر مجاور له أو يتأثر بأحداثها وافعالها ، ولذلك فان ضمير الثورة يعتبر وبحق الحيط الذي يشد المجتمع الثائر الى بقية المجتمعات في الاوطان الأخرى ، وهو لهذا يكون الرباط الوثيق الذي يربط القومية بالانسانية بعري لافسكك لها او انفصام ، وضمير الثورة هو الذي يصون الثورة من ان تصبح ثورة لقومية عدوانية تؤمن بالعرق والعنصر وتجعل قوميتها المركز الرئيسي الذي تنطلق منه كل نشاطاتها وتتولد فيه ولاجلها جميع فعاليتها ، وضمير الثورة هو الذي يعلم قادة الثورة وجاهيرها بانهم حينما يعملون لقوميتهم ووطنهم فانهم بعملهم هذا يعملون للانسانية والعالم ، لذلك يجنب ضمير الثورة قاداتها من التآمر على مصائر شعوب ترغب في

الحرية والكرامة وينطلق بالشعب الثائر من حدود وطنه الى عالم الانسانية الفسيح فيدعم كل حركة تحررية ويشجع كل عمل ثوري في أي بلد كان لان الثورة الاصيلية تلتزم امام ضميرها مساندة كل نشاط ينسجم واهدافها وذلك دون النظر الى قومية ذاك النشاط ووطنه لان الثورة الاصيلية التي تريد ان تعيش من اجل رسالتها تكون لمباديء رسالتها صفة الشمول ، بكل ما للكلمة الشمول من معنى وذلك لان الاهداف الحقيقية للثورة الشعبية الاصيلية لا تتركز على تحرير قوميتها الثائرة بغية تعبئة قوى هذه القومية لتأسيس امبراطورية استعمارية تستعبد فيها شتى القوميات والاجناس ، اذ ان التجارب المريرة التي شاهدناها في ثورات القوميات الاوروبية كالالمانية والايطالية والفرنسية الخ ... قد دلت نتائج هذه الثورات ، على ان اخطر انحراف قد اصبحت به تلك الثورات كان يتمثل في تسلسل طبقة معينة الى مراكز القيادة الثورية و ثم توجيه قوى الثورة ونشاطاتها نحو استثمار الطبقات الاخرى واستعمار الشعوب والبلدان الاخرى ، وبذلك تناست ثورات القوميات الاوروبية المبدأ الاسامي لكل ثورة انسانية اصيلة هذا المبدأ الذي يقول بان حرية كل امة هي جزء من حرية الانسانية جمعاء .

ضمير الثورة والبرجوازية :

لذلك كله فان الشعب الثوري يفعل ضميره وجميع الاعمال التحررية في العالم وهذا الواقع يجعل ابناء الطبقة البرجوازية يتساءلون في اعماق نفوسهم عما يدعوا قادة الثورة وجماهيرها للانفعال ومساندة حركات تحررية غريبة عن قوميتهم وبعيدة كل البعد عن بلادهم ، ومن ثم يفتح ابناء الطبقة البرجوازية افواههم مدهوشين مذهولين وذلك عندما يرون قادة الثورة والدولة الثورية تقدم احيانا بل ودائماً على تضحية مصالح بلادها ومصالح قوميتها في سبيل نصرته شعب مستعبد يكافح من اجل حريته او امة مستعمرة تناضل من اجل تحريرها السياسي ، ويرى ابناء الطبقة البرجوازية في الاعمال من هذا النوع الذي يأتيه قادة الثورة او الدولة الثورية جنونا وحماقة وغباء وذلك لان مثل هذه الاعمال لا تجلب على الدولة الثورية سوى عداء المستبد او المستعمر الذي يتحكم بمصائر ذاك الشعب الثائر او الامة المستعمرة المستثمرة .

فأبناء الطبقة البرجوازية مثلاً لا يستطيعون ان يتفهموا الاسباب التي تدعو أبناء الشعب العربي في سوريا او مصر او السعودية الى مساندة كفاح شعب الهند الصينية ، او شعب اندونيسيا ضد الاستعمار .

وذلك لان في الطبقة البرجوازية ميلاً غريزياً قوياً ورغبة غريزية شديدة في تحويل الثورة القومية من حيث كونها ثورة انسانية الى صيرورتها ثورة قومية مغلقة تخدم اغراض طبقتها وتنفذ مآرب ابنائها هذه المآرب المتجمعة في الاستعمار والاستثمار والاستعباد ، وبذلك يكون أبناء الطبقة البرجوازية أبعداً يكونون عن تفهم ، او بالاحرى الايمان بان للثورة ؛بالاضافة الى منطق ، ضميراً حياً يتفاعل وجميع الاحداث الثورية خارج نطاق قوميته ووطنه .

لهذا كله يتوجب على قادة الثورة وعلى الدولة الثورية ان تنظر بحذر ويقظة الى نواحي أبناء الطبقة البرجوازية ، هؤلاء الذي يسعون القيم الاخلاقية للثورة باطنان القطن ويتفهمون التقاليد الثورية العريقة على ضوء ما يصدر من قمح او منسوجات ، ويرون في الاسواق التجارية الميدان الوحيد الذي يتوجب على الثورة ان تعيش فيها ومن اجل تأمينها .

انني مرغم قبل ان استرسل في بحث ضمير الثورة ، ان اترك هذا الموضوع قليلاً لاقدر مايلي ، وذلك كي لا يساء فهم موقفني من الطبقة البرجوازية في العالم العربي . انني اقول ان الطبقة البرجوازية في العالم العربي ، هي حتى الآن طبقة وطنية وان امامها وعليها في هذه المرحلة التي نمر فيها في طريقنا الى الدولة الموحدة التي يسودها اكبر قسط من العدالة الاجتماعية ، اقول ان على الطبقة البرجوازية واجبا وطنيا هاما وجوهريا ، وهذا الواجب يتمثل في انماء رأس المال العامل وادارة رأس المال لصالح الشعب ، وانني واقولها بصريح العبارة ان ثورة القومية العربية في الوقت الحاضر وفي المرحلة الحالية ان تقيد ابدا نشاطات البرجوازية ولن تلجأ الى التأميم وذلك لافتقار ثورة القومية العربية في هذه المرحلة الى طبقة فنية تتقن ادارة المشروعات الفردية وتنظيمها لذلك ارى ان باستطاعة الطبقة البرجوازية ان تضرب عرض الحائط بكل الامثلة التاريخية الحديثة -

الامثلة التي اعقبت الثورة الفرنسية - وان تشارك وبصورة فعالة في ثورة القومية العربية وذلك لان منطق الثورة العربية وضميرها سيوفران للطبقة البرجوازية في هذه المرحلة وفي مراحل مقبلة كل رعاية وحماية ، وهذا كله لان المبادئ الاساسية للقومية العربية ترى في دخول مرحلة الرأسمالية في هذا الظرف وفي ظروف مقبلة الطريق الطبيعي الى بناء دولة يسودها العدل الاجتماعي .

والقومية العربية هي اليوم بمسيس الحاجة الى الخبرة والفن اللذين اكتسبتهما الطبقة البرجوازية نتيجة لممارسة ابناءها للادارة والتنظيم احقابا طويلة من الزمن .

انني اعتذر للقاريء عن اشتطاطي به عن متابعة بحث موضوع ضمير الثورة ، غير ان اسبابا حيوية وجوهرية دعني الى تسطير تلك الكلمات القليلة لاساعة الضمانة في قلوب ابناء الطبقة البرجوازية وذلك لحرصي على تنشيط كل عمل تقوم به هذه الطبقة في حقل انماء رأس المال ولغيرتي الشديدة على نفي القلق لدى ابناء هذه الطبقة كي يمتنعوا عن تهجير ، او بالاحرى تهريب اموالهم اللذين جاء نتيجة لنشاطات او تصريحات غيير منطقية او مسؤولة .

قلت إن ابناء الطبقة البرجوازية قلما يؤمنون بان للثورة ضميراً بالاضافة الى منطق ، وان هذا الضمير ينفعل ويتفاعل وجميع الاحداث والنشاطات الثورية في انحاء العالم ، وضمير الثورة ، في انفعاله وتفاعله هو الدليل الوحيد والبرهان الحي على ان الثورة مازالت تنبض بالحياة وان عروقها لا تزال تتدفق وتسيل بدماء الحق والعدالة والكرامة ، لذلك كله فلا يستغربن أحد اذا رأى ثورة القومية العربية تدفع بشعوبها الى الانتصار لكل عمل تحرري يحدث في اي صقع على وجه هذا الكوكب ، اذ ان مثل هذا الانتصار يجعل الثورة - ثورة القومية العربية - تنسجم ونفسها وتسير وفق أبسط قواعدها وبديهيّات مبادئها ، فالثورة الاصيلية والثائر الأصيل هو ذاك الذي لا يكتفي بالمطالبة بالحرية والعدل الاجتماعي لنفسه او قومه بل انما يتعدى هذا الامر الى المطالبة بالحرية والعدل الاجتماعي لغيره من ابناء القوميات الاخرى ، لذلك كله فان ضمير الثورة في القومية العربية يلزم الشعوب العربية بمتابعة شن حرب لاهو اداة فيها او لين ، ضد الاستعمار لافي الجزائر او فلسطين او

في محميات الخليج العربي فحسب بل في كل بلد يحتم فيه الاستعمار او تعشعش في جنابات مجتمعه المظالم والطغيان .

يتحدثون كثيراً عن الحياد الايجابي ، البعض يقولون إن هذا المبدأ مبدأ الحياد الايجابي قد ارسى قواعده المارشال تيتو عقب خلافه والكرملين ، والآخرين يقولون ان البانديت نهرو هو اول من سنه وشرع فيه بغية خلق كتلة عالمية ثالثة تقف بين الكتلتين المتصارعتين المتحفظتين للوثوب والحرب .

وقد لاقى هذا المبدأ تحجيذاً عميقاً ومناصرة شديدة من الشعوب العربية ومن القومية العربية فهل هذا المبدأ مبدأ الحياد الايجابي مبدأ دخيل على مبادئ القومية العربية في ثورتها الحالية ؟ ! .

ان الجواب على هذا السؤال بسيط وغير معقد ، فالقومية العربية في ثورتها اليوم ملزمة امام ضميرها الثوري كما قلت آنفاً في مساندة كل حركة تحريرية او نشاط ثوري في اي بقعة من بقاع العالم والقومية العربية اذ تلتزم امام ضميرها الثوري بهذا الامر فانها ترى ان التزامها هذا لا يعني فقط دفاعها ومساندتها للشعوب الراغبة في التحرر والعدل الاجتماعي فحسب ، بل انما يعني ايضاً - وهذا الاهم - دفاعها عن الوجود المادي والمعنوي للانسانية جمعاء ، فالعالم اليوم وعقب الثورة المروعة الفتاكة التي تطورت اليه اسلحته التدميرية من ذرية وصاروخية ، جعلت القومية العربية تؤمن في اعماق اغوار ضميرها بان أي حرب عالمية ثالثة قد تنشب ، فان نشوبها سيؤدي حتماً الى تدمير هذا الكوكب وفناء الجنس البشري ، لذلك ألزم ضمير ثورة القومية العربية شعوبها بامور ثلاثة :

الاول محاربة التكتلات والاحلاف العسكرية وذلك لايمان القومية العربية الوطيد الراسخ بان مثل هذه التكتلات والاحلاف لا ولن تخفف من حدة التوتر الدولي ، بل انما تغذي هذا التوتر وتزيده احتداماً وروعاً وشدة وبالتالي تدفع بالعالم الى حرب نووية لا تبقي ولا تذر ، لذلك التزمت القومية العربية امام ضميرها الثوري باتباع سياسة الحياد الايجابي وعدم الانضمام الى اي معسكر من المعسكرين المتناحرين .

اما الامر الثاني وهو محاربة الاستعمار في كل قطر او بلد ، فلهذا الالتزام الذي

التزمت به القومية العربية امام ضميرها انما اوجبه لا الانسجام ومبادئ ثورتها الاساسية في التحرر والكرامة فحسب ، بل انما الزمه ايضا - وهذا هو الالم - قناعة الضمير الثوري للقومية العربية بان في بقاء الاستعمار - هذا المثلث المكون من الانانية والجشع والعدوان - بقاء للتوتر الدولي ، ونذير بنشوب حرب نووية تأتي على جميع ما في الحضارة الانسانية من مظاهر مادية ومعان روحية كما وان الاستعمار يشكل العقبة الكؤود في تفاهم الشعوب والتعاون فيما بينها للوصول الى الكواكب الاخرى .

اما الامر الثالث والاخير فانما يتمثل في عزم القومية العربية على بناء مجتمع يمد ابناؤه بكل اسباب العدالة ويوفر لهم وسائل عيش كريم ويرفع عن كاهلهم بأساء الفقر والجهالة ، ولهذا الاسباب وحدها التزمت القومية العربية في مرحلتها الثورية الحالية امام ضميرها باتباع سياسة الحياد الايجابي وتقبل كل عون غير مشروط ، مع مراعاة النقطتين الآتقتي الذكر واعني بهما محاربة التكتلات والاحلاف العسكرية ومناهضة الاستعمار ، وكثيرا مارأينا القومية العربية ووفاء منها لالتزاماتها امام ضميرها الثوري تضحي بالكثير من العروض السخية لكي تحافظ على مبادئها الاساسية - (موقفنا في هيئة الامم المتحدة من قضية المجر) مما ورد يتضح ان سياسة الحياد الايجابي التي تنهجها الشعوب العربية اليوم ليست بسياسة مفتعلة ترمي كما يقول بها البعض الى ضرب الشرق بالغرب بغية تحقيق المكاسب واستدراار المنافع من كلا المعسكرين وادخال الكتلتين المتطاحنتين في منافسة لاكتساب ودنا ، بل انما هذه السياسة - سياسة الحياد الايجابي تنبع من اعماق ضمير ثورة القومية العربية والعاملان الاساسيان فيها كما يرى القاريء الكريم هما عامل انساني اولاً ، ومن ثم عامل قومي .

هذا فيما يتعلق بفعل ضمير الثورة - ثورة القومية العربية - خارج نطاق العالم العربي أما فيما يتعلق بفعل ضمير الثورة داخل نطاق مجتمع العالم العربي فان حبي للحقيقة المجردة المطلقة ورغبة مني في المساهمة مساهمة متواضعة في تخطيط وارساء ايدولوجية قومية انسانية للقومية العربية تفرضان علي ان أقرر مايلي :

ان صراع الشعوب العربية الطويل ضد الاستعمار قد منح القومية العربية ووهب

ضميرها حساً انسانياً سليماً وفيها غريزياً عميقاً لمشاكل السياسة الخارجية ، ولذلك استطيع ان اقول وبفخر ان مواقف الشعوب العربية - اقول الشعوب لا الحكومات - من المشكلات الدولية جاءت حتى اليوم منسجمة والضمير الثوري للقومية العربية ، اذ اتصفت هذه المواقف جميعاً بصفة انسانية رحيمة عادلة وكريمة . غير ان الضمير الثوري للقومية العربية لم يزل حتى الآن في الدور الجنيني وذلك فيما يتعلق بفعله داخل المجتمع العربي ، فالثوريون من العرب الذين يسرون حينما نطلق عليهم هذا اللقب . لا يزالون مع الاسف الشديد يمرون في مرحلة الطفولة التي يجتازها كل ضمير مكتمل وسبب هذا الامر ناشيء عن كون الثوريين في العالم العربي يجابهون اليوم ولاول مرة في تاريخهم مشاكل اجتماعية تتطلب حلولاً سريعة ، وهذه المشاكل منها مشاكل عريقة في قدمها واخرى مستجدة تتطلب ادراكاً عميقاً وفيها متجهداً عن كل نزوة او طيش حين تحضير حلولها . وبماؤسف له ان الثوريين العرب بدلاً من ان يغوصوا الى اعماق هذه المشكلات نراهم حتى الآن لا يزالون يطفون على سطحها ، ولذلك فان جميع نشاطاتهم قد تميزت حتى الآن بالسطحية والانكارية ولهذا نرى هؤلاء الثوريين يهربون كلما اتاحت لهم الفرصة من معالجة المشاكل الداخلية الى اثاره او معالجة مشاكل خارجية ومع اعترافي ان تلك المشاكل الخارجية قد تؤثر مباشرة او غير مباشرة على اوضاعنا الداخلية ، غير انني ارى ان دفع مشكلة اخرى او حلها لا يعني ابداً حل المشكلة الاولى ، كما وان تأجيل حل اية مشكلة كانت قد يؤدي الى تعقيدها وزيادة مضاعفاتها ، اضع الى ذلك ان سطحية الثوريين العرب - وآسف اذ استعمل كلمة سطحية - تدفع بهم الى اعتراف خطأ جسيم يضرب ضمير الثورة ومنطقها براحتيه وهذا الخطأ يتمثل في اعتقاد الثوريين من العرب بانه يكفي للمرء ان يسن قانوناً او يستصدر تشريعاً كي يبدل الحال الى غيرها ، وبعلمهم هذا يضربون عرض الحائط ببسط قواعد الثورة ، واعني بهذه ، تلك القاعدة التي حددها « مونتيسكيو » بقوله :

« يجب على الحكومة اذا ارادت القيام بتغييرات عظيمة في امته ان تصلح بالقوانين

ما هو مستقر في القوانين وان تغير في الاوضاع ما هو مستقر في الاوضاع . »

غير أننا اذا قابلنا قول « مونتيسكيو » هذا بالمناقشات التي دارت في البرلمان السوري

اثناء بحث قانون العشائر نرى بعض الثوريين من العرب قد اعتقدوا بأنه يكفي ان تصلح بالقوانين ما هو مستقر في الاوضاع دون ان تغير في الاوضاع ما هو مستقر فيها كي تتمثل بالعشائر من حال البداوة الى الحضارة .

انني لا استطيع ان انكر ان الثوريين العرب قد تمكنوا من نفس القواعد النفسية لنظام من الحكم عليل اورثنا اياه الاستعمار وقد تم نفس هذه القواعد وبنجاح في كل من سورية ومصر غير ان تدمير القواعد النفسية لذلك النظام ، لم يتعد إضعاف العائلية والقبلية الى اصلاح جذري في جهاز الادارة وفي التشريع المالي والتخطيط الاقتصادي ووضع منهاج ثوري يقفز بالبلاد العربية من حالة الزراعة الى حالي الزراعة والصناعة ، واذا فتشنا وبدقة عن النشاطات التي قام بها الثوريون في العالم العربي في حقلي الاقتصاد والاجتماع لا عيانا ان نلمس لها أثرا بارزاً واضحاً ، فدولاب الدولة لا يزال يدور على الصورة العفوية ذاتها التي كان يدور عليها فيما مضى من عهود استعمار واستقلال ، والتقدم الاقتصادي الذي نشهده اليوم في سورية او غيرها من البلدان العربية انما جاء نتيجة لنشاطات الافراد والافراد فحسب ، وهذا مما يدل على ان الثورة في سورية لم تشعلها فئة أو حزب بل انما اشتعلت وتشعل في صميم الشعب واما الهيئات الثورية في سورية فانها تركض لاهشة لتلحق او تتعلق باذيال الثورة خشية ان تخلفها الثورة وراءها كما خلفت غيرها من شخصيات واحزاب وهذا الامر يتسم بطابع انتهازي لا يرضي ضمير الثورة .

وواجب الامانة والحقيقة يقتضي هنا ان أقرر أن لومي للثوريين العرب في سورية لا يتجاوزهم الى الثوريين العرب في مصر فأعمال الثوريين العرب في مصر تدل على أن ضمير الثورة العربية المصرية اكثر حساسية وأقل تبلاً منه من ضمير الثوريين العرب في سورية ومنشأ هذا الامر يعود الى كون الشعب العربي في مصر قد عانى ولقرون عديدة مديدة نظاماً ملكياً واقطاعياً فاسداً جائراً لم يكن ينتظر سوى هزة طفيفة كي يقوض وينهار كما وان الريف المصري كاد قبل الثورة ينفجر بسكانه ، وانني اذ اركز بحثي على مصر وسورية ، فانما أفعل هذا لكون الثورة قد امتدت بلهها من الشعب الى الحكومتين القائمتين في القطرين العربيين .

ومن المؤسف ان اقرر هنا حقيقة مؤلمة وهي ان الثوريين العرب في مصر كسالى ،
قلما يقرأون وقلما تشاهد لاحد من اقطابهم مؤلفاً يحاول فيه ان يخطط للقومية العربية
ايدولوجيتها فبينما نرى للينين من المؤلفات مايتجاوز العشرين مجلداً ولستالين من الكتب
مايتعدى الثلاثة عشرة لا نجد حتى لرجال الصف الثاني من الثوريين العرب كتاباً واحداً
او مؤلفاً وحيداً يتحدث فيه عن القومية العربية ويحدد مناهج ثورتها وبرامجها ، لذلك كله
نجد ان طابع الثوريين العرب هو الارتجال ، الارتجال في معالجة المشكلات ، والارتجال
في تحضير حلولها ، ومثل هذا العمل خطر وخطر جداً اذ انه يستنزف من الثورة قواها
وينحدر بجهاز الثورة من حيث كونه جهازاً ثورياً الى صيرورته جهازاً ادارياً روتينياً ،
وبذلك يخيل للمرء ان الثورة قد انتهت بينما ان ثورة القومية العربية لا تزال في بداية
طريقها الى الوحدة والحرية .

ومن المؤلم الحزن أن ثورة القومية العربية لم تستطع حتى الآن أن تخلق لها طبقة متقنة
(انتلجنسيا) تلتف حولها وتغذيها بالافكار والاراء والمناهج والتصاميم ومنشأ هذا النقص
يعود أولاً وأخيراً الى كون الفئات الثورية تخوض بكل قواها حرباً ضروساً في سبيل
التحرر ، وهذه الواقعة لا تعفي الثوريين العرب من اللوم فأهداف الثورة القومية العربية
لا تنصب فقط على التحرر من المظالم الخارجية ، بل انما تتعداها الى التحرر من المظالم الداخلية ،
وهذه الحقيقة تفرض على الثوريين العرب وهم يخوضون اليوم معركتين في وقت واحد
وفي ظروف متشابهة ان يوزعوا الاختصاصات فيما بينهم كي تشمل نشاطاتهم الحقل الداخلي
ايضاً ، فالشعب الثائر قد ينفض من حول الثورة ، كما انفض الشعب الفرنسي من حول
ثورته ، اذا لمس ان الثورة لم تستطع ان تقدم له حتى الآن برهاناً مادياً ملموساً على
فوائدها وصلاحتها .

وللمحافظة على اشتعال ثورة القومية العربية يتوجب على قادة الثوريين العرب
تكتيل الكفالات الثورية ، ولتحقيق هذه الغاية يتوجب ايضاً على القادة أن يفسحوا
صدورهم للنقد الثوري وأن لا يحاربوا الحقيقة بالشك والتشكيك ، وأن لا يجندوا
حولهم الانصار ، بل الاحرار ، فالانتهازيون يستطيعون ، ويسر ، أن يتسللوا الى

صفوف الانصار بينما هم يعجزون أن يجدوا لهم موضع قدم بين جبهة الاحوار وهذه الحقيقة تفرض في أبسط بديهياتها . على القادة ان يرتفعوا الى ذرى من السمو والرفعة تبلغ كما قلت في موضع آخر من هذا الكتاب مرتبة الزهد والنسك ، وذلك كي يتمكنوا من سحق « الأنا » واحتقار الحواس ونبذ الاثرة وابادة الطمع والتعبد للحقيقة المجردة ، وتكريس وجودهم المادي والمعنوي لضمير الثورة ولمنطقها ، وازاحة كل عبة تقف في طريق الكفآت الثورية .

د — متى تنحرف الثورة ؟

كل ثورة غير متكاملة الايدولوجية في حقول الاقتصاد والاجتماع والسياسة معرضة في كل لحظة الى الانحراف والتخبط وانحراف الثورة عن اهدافها يعني نزول مظالم اشد قسوة ، واقتواف جرائم اشد هولاً من المظالم والجرائم التي كان قد انزلها النظام الذي قوضته الثورة بالجماهيم الشعبية ، وانحراف الثورة عن اهدافها وذهولها عن مقاصدها يحولان الحكم الى تحكم والسلطة الى تسلط ، وينزلان بقيادة الثورة من حيث لا يدرون من مرتبة الانسان الواعي الى مرتبة الحيوان الشرس الضاري فيقترف آنذاك قادة الثورة احط الجرائم وأبشع المفاقات وهم مقتنعون بان مايقومون به من اعمال انما يقومون به من اجل الشعب وفي صالح الشعب ، عندئذ تتحول القوة الى عنف ، وتتضاءل العواطف فتغدو نزوات وتعمى الابصار وتتحكم الظروف الانية بمنطق الثورة وضميرها ويستلم قادة الثورة آراءهم واحكامهم من المظاهر الخداعة والشكوك السخيفة الجبينة ، ويصبح المهم الاوحد لقادة الثورة ، ليس حماية الثورة بل انما حماية انفسهم ، فيغرقون في الارهاب يأخذون بالشكوك ويحاکمون الاشياء والامور والمشاكل بأهوائهم لا بمنطقهم وبرغائبهم لا بضائهم وبذلك يتجردون من الاخلاق الثورية ، هذه الاخلاق التي تنبع من ارادة واعية تتمثل في اقامة توازن عملي وفعال بين الفرد كمواطن صالح في ظل دولة قومية ، والفرد ذاته كإنسان .

وهنا تضيق صدور قادة الثورة بالحرية ، وتصبح كرامة المواطن كإنسان معرضة

في كل آن ولحظة الى التجريح والامتهان ، ويفتح قادة الثورة قلوبهم الى «سوس كل مجتمع» وأعني بهذا المتملقين من الانتهازيين والمخادعين من الدجالين الذين يزينون لقادة الثورة مايقترفون من جرائم وما ينزلونه بالشعب من مظالم وحماقات ، وبهذا يقصي قادة الثورة عن صفوفهم كل ناصح عاقل ومخلص ، وذلك لان دوامة الانحراف التي غدا للقادة فريسة لجحها لا تترك لهم فرصة ، ولو قصيرة ، لمراجعة اعمالهم ومحاكمة افعالهم والتأمل العميق بما يقدم اليهم من اقتراحات او يعرض عليهم من مشورة .

وبهذا يتنكر قادة الثورة ، الذين امتشقوا الحسام باسم الحرية ، للحرية ذاتها ، ويفهمون للحرية معنى واحداً هو ان يكونوا وحدهم احراراً فيما يفعلون وفيما يأتون ، غير عالمين بأن من بديهيات الحرية هو مايقوله « هيغل » « ما من احد يستطيع ان يكون حراً ، اذا كان جميع الناس غير احرار . ان اول شروط الحرية ، ان يكون جميع الناس احراراً ، حتى وان كنت ظالماً وضغطت على الآخرين فأنا لست بحراً لسبب عينه لأنني اخلق حولي عالماً من الظلم أكون حبيسه . »

والحرية كما يعرف الجميع هي ثار الثورة المثالية ، وهي روحها ، وهي منطقها . وهي ضميرها ، لذلك وعند ما يقدم قادة الثورة على قتل الحرية ، يقتلون حينذاك كل ما في الثورة من قيم وتراث وتقاليد ، ويحولون الثورة ، من حيث هي انتفاضة شعبية ضد الاستبداد ، الى قيصرية تعيش على الاستبداد ، منه تتغذى ومن أجله تمارس وجودها .

ويرافق هذه المرحلة من الانحراف ، انحطاط مريع في الضمائر والاخلاق فيعم الفساد وتنتشر الرذائل ، وتخرب الذمم ، ويصبح الرغيف او المنصب او الحماية الهدف النهائي لانصار الثورة المنحرفة وتتعطل الكفاءات او تعدم ، ويشرد الاحرار ، وتغدو الجاسوسية الجهاز الرئيسي في الدولة ، فيعم الكبت وتجمد حيوية الامة ويعطل الخوف نشاطات الفكر وتردم الرشاوى منابع الوجدان ، وتسيطر المادية البشعة على كل قيمة ، فينجر الالباء على مذبح الشهوات ، ويضحى بالحقيقة على اعتاب الدجل والزلفى ، اما الثورة المنحرفة فانها تتابع تدحرجها مشتعلة ملتهبة لتحرق وتسحق كل ما يعترض طريقها من خير حتى تستقر رماداً خابياً في قعر الهاوية ، غير مخلقة وراءها سوى جروح وآلام وخسائر

فادحة مروعة ، وشعبا كسير القلب مكدودا ، وجماهير فاقدة الثقة بالمستقبل معدومة
الامل بالثورة ومستعدة للترحيب بنظام شيطاني بديلا عن الثورة المنحرفة .

هذه صورة واقعية للثورة المنحرفة ولنتائجها الخطيرة على تطور الشعب ونقدمه وقد
تعمدت ان ارسم هذه الصورة للشبيبة العربية رغبة مني في اقناع الجيل العربي الثوري بان
واجبنا الاساسي يتلخص في صيانة الثورة من الانحراف ، وهذا الواجب يقتضينا ان
نكرس وجودنا المادي والمعنوي لمنع اية محاولة - ولو بالقوة - قد يقوم بها قادة الثوريين
العرب ، للانحراف بثورة قوميتنا في هذه المرحلة الحاسمة من تطورنا كأمة تعي ذاتها
وعيا كاملا وتعزم على ممارسة وجودها بكل مالكمة الممارسة من معنى ومفهوم .

واول شروط صيانة ثورة القومية العربية من الانحراف هو المحافظة على الحرية ،
حرية الفكر وحرية القول وحرية العمل ، وذلك طالما ان هذه الحريات لا تضر او تعرقل
سير الثورة نحو اهدافها ، وطالما ان هذه الحريات يتوخى من وراء ممارستها الاجتهاد في تفسير
دستور الثورة لصالح الشعب ، واستنباط النجع الوسائل لمعالجة قضاياها وحل مشاكلها .

اذ ان كل ثورة تخاف أو ترهب أن تمارس وجودها على أضواء الحرية وانوارها
هي ليست بثورة ، انها مؤامرة على حرية الشعب وكرامته لان الثورة الحقيقية
معدنها نار وروحها نور ، وهي بهذا التلقي بالحرية فحسب بل انما تندمج فيها وتذوب
في منطقتها ووجدانها .

ان القومية العربية هي اليوم بمسيس الحاجة الى طبقة مفكرة غفيرة العدد عميقة الغور ،
تتفاعل مع الثورة وتعمل فيها ، تأخذ بيدها ، تهديها الطريق ، تدلها على المفاصل لتقتلعها ،
ترشدنا الى المظالم لترفعها ، وتشير الى الطغيان لتسحقه ، طبقة مفكرة تكون للثورة
بمثابة الدماغ والاذنين والعينين .

والقومية العربية لا تستطيع ولن تستطيع ان تتمخض عن هذه الطبقة ذات الالهية
الحيوية بالنسبة لثورتنا ، والتي بدونها لا يستطيع ثورتنا ان تتابع رسالتها ، اذالم
تؤمن قوميتنا لابنائنا - جوا من الحرية الفعلية والحرية الحقيقية والحرية كما يقول
« مونيسكيو » لا يكفي ان تعالج من حيث صلتها بالنظام بل يجب ان ترى من حيث

صلتها بالمواطن ، فقد يكون النظام حراً ولا يكون المواطن كذلك ابداً .

ان تحقيق غايتنا ؛ هذه الغاية المتمثلة في خلق طبقة مفكرة تسند القومية العربية وتغذي ثورتها ، لن يتم الا اذا استطاعت ثورة القومية العربية في كل مراحلها ان تنفي الخوف وتنفي القلق فالفكر لا يستطيع ان يغوص الى اعق أغواره اذا كان الهواء الذي يملأ رئتيه سممه الارهاب والطغيان ؛ والعقل يصبح كسيحاً مشلولاً اذا ماتلفت حوله فرأى مخالب الاستبداد وأنيابه تنهش اجساد من سبقوه اوساروا قبله على طريق ما يؤمن به حقاً وحقيقة . والفكر لا يستطيع ان يشرح الاحداث بمبضع العقل ، وان يفعل في الحوادث بضميره وفكره ووجدانه وسيف الطاغية مشرع فوق رأسه .

لذلك كله يعتبر الثوريون العرب الحرية جوهرأ لقوميتهم وروحأ لثورتهم وحجر الزاوية للنظام الذي يكدهون اليوم ويشقون لارساء قواعده وتشيميده . والثوريون العرب يؤمنون ايماناً راسخاً وطيداً لا يتزعزع بانه لافرق هناك بين الاستعمار والاستبداد ، فكلا الشرين سواء ، وكلاهما يهدران الكرامة البشرية ويتزلان بالانسان الى درك الحيوان .

المعروف :

بما ورد يتضح ان اول انحراف يصيب ثورتنا يتم عندما يبدأ قادة الثورة بمصادرة الحريات ، أما الخطر الثاني الذي يهدد ثورتنا بالانحراف فانما يتمثل في استيرادنا لانظمة اقتصادية او اجتماعية او سياسية ، وفي محاولتنا تطبيق هذه الانظمة على بلدنا وعلى امتنا دون ان نبحت او ندرس ما اذا كانت هذه الانظمة تنفق او تتلاءم وواقعنا وامكاناتنا في التطور الذي تريده لنا ثورة القومية العربية . ومن المؤسف ان اقرر هنا ان جيلنا يعرف كل شيء عن كل بلد ويجهل ابسط الحقائق عن بلده ، وهذا الواقع قد نجم عن كون جيلنا قد اولى الكثير من اهتمامه ، ان لم يكن كل اهتمامه لثقافة الغرب ومجتمعات الغرب وواقع الغرب

ولم يلتفت او يكثر لدراسة واقعنا وتركيبنا الاجتماعي . وعدم دراسة واقعنا وتركيبنا الاجتماعي ومعرفتنا العميقة بامكاناتنا وبالمرحلة التاريخية التي نمر فيها ، وبطبيعة الارض التي نقف عليها بالاضافة الى رغبتنا الثورية في الاصلاح ، كل هذه الامور تجعلنا نفتش عن الانظمة التي طبقت بنجاح في الغرب ، فنحملها الى بلدنا ونسعى لفرضها وتطبيقها على مجتمعتنا . ولهذا نرى الحيرة تغلب على جيلنا والقلق يسودنا ويمنعنا من معرفة ذاتنا الحقيقية .

من المسلم به ان النظام الصالح والذي يجسد اكبر قدر من العدالة الاجتماعية في مرحلة تاريخية معينة هو ذلك النظام الذي يتلاءم ويتفق والواقعين الروحي والمادي لأمتنا ومن ثم يساعد على تطور وانماء هذين الواقعين - المادي والروحي ، ويدفع بالشعب قدماً على الطريق اللانهائي للتطور والتقدم .

والانظمة كالملابس تماماً ، والملابس اللائق هو ذاك الذي يفصل وفقاً لمقاسات الجسد الذي يراد ستره ، ومشكلتنا مع بعض الثوريين العرب في هذه الحقبة ، انهم يريدون ان يفصلوا الجسد جسد الامة العربية - وفق مقاسات اللباس الذي عادوا به لنا من الغرب ولذلك نراهم يعذبون امتنا فيشدون اطرافها وينفخون في جذعها ، مؤملين بأن تثمر أعمالهم فينمو جسدها ويكبر ويتضخم فيملأ اللباس الذي عادوا به لنا من الخارج .

وهذا العمل ليس بسخيف مضحك فحسب ، بل انه مجرم مجنون ايضاً ، اذ ان ما يأتيه هؤلاء الثوريون من العرب يشكل خرقاً خطيراً لدستور ثورتنا لانه يتخطى بها حدود الامكان ، ويسقط من حساب قوميتنا عامل الزمن ، وينحرف بالثورة عن اهدافها القابلة للتحقيق ويقفز بها قفزات بهلوانيه في ظلام دامس ، وبالتالي يعرض قوميتنا لمغامرات مجنون .

ومثل هؤلاء المنحرفين من الثوريين مثل والده ابن لم يتجاوز السادسة من عمره بعد ، وحببه الدفاق لولده يتخطى به التفكير بأمر ارسال ابنه الى المدرسة

الى الانهالك في تدبير زواج ابنه الطفل . ان هؤلاء المنحرفين من الثوريين العرب يهدرون جهودا ويضيعون اوقات ثمينة على امور تنافى وطباع الاشياء ، انهم يحاربون ويصارغون ، يثرثرون ويتظاهرون مطالبين باستنابات الموز في القطب الشمالي . ومن المؤسف ، المؤلم ، الحزن ، ان هؤلاء المنحرفين من الثوريين العرب هم اكثر فئات الامة العربية صخباً وضجيجاً ، واكثر ابناء العروبة استغراقا في الكسل والتمول ، يتأفون من منظر الفلاح وينفرون من زيارة الريف ويرفضون العيش في مضارب العشائر ، وبذلك يجهلون كل الجهل واقع امتهم وحقائق تركيبها الاجتماعي . وبعد هذا كله نراهم يقدمون مشروعاً لاصلاح حال الفلاح ويزكون هذا المشروع بقولهم انه اعطى خير الثمار في المانيا ، وحينما يتقدمون باقتراح لتحضير العشائر ويزكون هذا الاقتراح بصياحهم القائل بان الاتحاد السوفياتي قد عمل به فتحضرت العشائر واستقرت .

ان هؤلاء المنحرفين من الثوريين العرب يجهلون كل الجهل ان مهمة الثوري الحقيقي هي في التوفيق بين المبادئ الاساسية للثورة وبين الاوضاع القائمة ، ورغبة في تطوير احوالنا وتحسينها وذلك باقل قدر ممكن من الخسائر والجهد .

وهكذا ينتقل هؤلاء المنحرفون بالثورة من حيث هي صراع في سبيل ضرب المفاسد والبناء الى جعل الثورة صراعاً بين نظريين مستغرقين في الخيالات والاوهام ، شرهين جائعين للسلطان ، وبين قوانين حديدية تنظم الاقتصاد والاجتماع والسياسة وترسم الامة طريقها وتدفع بها عليه .

وأخطر ما في هؤلاء المنحرفين أنهم باصرارهم وعنادهم يمزجون العامل الشخصي ، او بالاحرى العوامل الشخصية ، بمبادئهم ونظرياتهم الغربية عن الوطن والامة ، ويفسرون كل نصح او ارشاد يقدمه اليهم شخص يشفق عليهم ويرى فيهم مواطنين ضالين من واجبه ان يهديهم سواء السبيل ، أقول يفسرون مثل هذا النصح أنه حسد وغيرة ومنافسة لهم على التربع على عروش ممالكهم الطوباوية التي تشيدها أحلامهم السخيفة واراؤهم السطحية .

والحق ان من أشد ماتصاب به أمتنا من نكبات وكوارث وتعطيل في طريقها الثوري يتمثل في هذه الفئة التي قد تمتلك كل ما أودع الله صدر الانسان من نوايا طيبة وتدفق بكل ما ينكب به المرء من حماقة وسخف وطيش .

وهؤلاء المنحرفون من الثوريين العرب يشكلون عقبة كؤود ترغم الثورة على تكنيسها بمكنستها الفولاذية . والثورة اذ تقدم على هذا العمل الاجرائي القوي - أقول القوي لا الضعيف - فانها بذلك لا تتعارض او تتناقض ومبدأها الاساسي وهو الحرية ، اذ ان الحرية الثورية ذاتها ، هذه الحرية النابعة من ضمير الثورة والمتدفقة من وجدانها ، تضطر ، وهي ترى بام عينها وتلمس بينان وجدانها العوامل الشخصية التي يمزجها هؤلاء المنحرفون بنظرياتهم المغلوطة ، ان تسحقهم بطرقها وأن تحمي نفسها وتحمي الجماهير من التضليل والانحراف .

والصفة البارزة في هؤلاء المنحرفين هي السفسطة والقدرة على إبراز السراب المنطقي اذا جاز لنا استعمال مثل هذا التعبير ، ولما كانت المهمة الاساسية للثورة العربية هي انماء المقدرة لدى الجماهير ، مقدرة التمييز بين ماهو حقيقي وماهو خيال ، لذلك يغدو من واجب الثورة والثوريين العرب الاصلاح أن يعمدوا بادىء ذي بدء الى مناقشة مثل هؤلاء المنحرفين مناقشة حرة بكل ما لكلمة الحرية من معنى ، فان استقام هؤلاء وارعوا فهذا ما نريده وهذا ما نبتغيه ، والا فعلى الثورة في حالة عناد اولئك واصرارهم على الخطأ ان تلجمهم أو تضربهم بقسوة وعنف اذ ان هؤلاء المنحرفين يشكلون خطراً داهماً على أهداف الثورة ، انهم الدمل في جسدها ، انهم البثور في وجهها ، وهؤلاء المنحرفون من الثوريين العرب يكمن خطرهم بما أصابهم به الله من ذلاقة لسان وبما أنزل بهم القدر من سطحية تفكير وثقافة فجأة ، وكلنا يعلم أنه في حالة اجتماع ذلاقة اللسان وسطحية التفكير والثقافة الفجأة لدى شخص من الناس ، فان هذا الشخص يمتلك انذاك قدرة بالغة على التغرير بالجيل الناشيء ، ونتيجة عمله المجرم هذا تكون وبالأعلى الأمة اذ أنها توزع ارادتها العامة ، ارادة ثورتنا ، في نفي الطغيان والمظالم ومن ثم البناء .

ومن المؤسف ، المؤلم ، الحزن ، ان العوامل الشخصية التي يميزها هؤلاء المنحرفون بمبادئهم تشكل خطراً داهماً على أخلاق الشعب ، وعلى أخلاق المنحرفين بالذات ، وذلك لانها تجعل الفرد منهم آتياً ، انتهازياً مغروراً ، يعرض ماحصل عليه من شهادات علمية في الاسواق وعلى الجماهير ولا يسمح لاحد بان ينطق باسمه الا وهو مسبوق بالالاقاب العلمية التي حصل عليها في غفلة من الحق والحقيقة ، يولي المظاهر كل همهم ، ويعطي القشور فائق . غنايته ، يتحدث عن الفضائل أمام الاغرار ويمارس أخط انواع الرذائل في خلوته .

وهؤلاء المنحرفون من الثوريين العرب ، الانكاريون بكل ماللانكارية من مفهوم ومعنى ، هم ملحدون لا يؤمنون بالله ولا يؤمنون بوجوده ، والحادث غير ناشئ عن قناعة علمية منبعها وجدانهم وضميرهم ، بل انما ناشئ عن المكابرة ورغبتهم الحقيقية في أن يصدمو المجتمع ، صدمة عنيفة مدوية ، تثير من حولهم ضوضاء وضجيجاً ، تلفت اليهم أنظار المجتمع غير أنها تنبه في الوقت ذاته منطق الثورة وضربها وتطلع الثورة على خطرهم وضرورة تلافيه .

واذا أضفنا الى الروح الانكارية ، التي تتلبس منطق هؤلاء المنحرفين وتفكيرهم ، العوامل الشخصية التي على أضواؤها يناقشون مشكلات المجتمع ومعضلاته ، نرى هؤلاء المنحرفين ينحدرون دون علم منهم الى العدمية والعدمية المطلقة . والعدمية كما يعرف كل ذي رشد هي أشد الامراض التي تنزل بالامة وتعطلها عن السير في مجالات التقدم والبناء .

ومنشأ العدمية لدى هؤلاء المنحرفين هو ان العرب قد فتح أعينهم على تأخر بلدهم وانحطاطها ، كما وان الثقافة الاستعمارية التي سممت عقولهم جعلتهم يرون كل ما في الوطن العربي فاسداً مفسداً علاجه الاوحد البتر والنسف ، وبذلك سها عن بلهم أننا أمة ذات تراث وذات حضارة غارقة في القدم ، وأن حاضرتنا وان كان فاسداً فان في ماضينا قيماً وتقاليد انسانية لاتزال صالحة للاستعمال في ثورتنا

الحالية ، بل انه يتوجب علينا استعمالها كي نغيز ثورتنا ونطبعها بطابع انساني رائع مشرق يبدد ظلمات العدوان ويطمس معالم التمييز العنصري .
فنحن لسنا أمة مستجدة في الحضارة أو دخيلة عليها ، بل أننا أمة وأقولها بكل تواضع ، حملنا مشاعل الحضارة وفعلنا في تكوينها وتأسيسها حقبة طويلة من الزمن ، لذلك فنحن لن نسمح ولن نسمح أبداً وفي كل الظروف لهؤلاء المنحرفين بان يتسللوا بروح الانكارية وسمومها الى ماغلك من تراث حضاري .

فالانسان الذي يشوه محاسن ماضيه ويتنكر لسالف حضاري مشرق ، لا يولد من جديد بل انما يقتلع جذور وجوده ، والحضارة الانسانية ليست من عمل جيل او جيلين ، انها عمل الاجيال المتعاقبة منذ الخليقة حتى اليوم ، ونحن ليس همنا او هدفنا ان ننسف الحضارات السالفة لنبني حضارة جديدة كل الجدة ، بل انما هدفنا الاساسي ان نضيف الى الحضارة الانسانية الجديد والمزيد من المنافع والقيم .
والماضي ليس بعبء فحسب يعتبر بها الخطيء بل انه لدى امة كأمتنا قدوة يقتدى بها وعلى منوالها ينسج وعلى هديها يسير . ونحن لانستطيع ولن نستطيع اذا اردنا ان نحرم قوميتنا وان نرتفع بثورتنا الى ذرى البناء ان نقطع كل مالنا من صلة بماضيها وان ندعي بان الحضارة العربية الاصلية تبدأ بجيلنا ، اننا اذا اقتربنا مثل هذا الخطأ الشنيع نكون قد صفعنا وجه الحق وبصقنا على جبين الحقيقة ، وهدرنا من الجهد لطمس ماضيها مقداراً لو وظفناه في تطوير حاضرها لكان ذلك أجدى علينا وأنفع .

والصفة البارزة الثانية لدى هؤلاء المنحرفين من الثوريين العرب هي الخيرة ، وتنشأ حيرتهم عن اصطدام منطقهم بالواقع ، اذ يستفيقون على هذا الاصطدام مدهوشين مدهولين ، فيحارون في امرهم ، ويختارون في النتائج المتعارضة وحساباتهم ، وهنا وبدلاً من ان يفتشوا عن اخطائهم ليصححوها ينعثون الامة بالخطأ فينقمون على الشعب ويثورون ، وينعتون الشعب بالانحطاط والجهالة والغفلة ، وبالتالي يفقدون الثقة بآمتهم وبقدرتها على التقدم والبناء ، ويشعرون في

قرارة أنفسهم بانهم مظلومون اذ رمى بهم القدر الى مجتمع امة كتب عليها الموت الابدي والجهالة المطلقة ، والصفة البارزة الثالثة لدى هؤلاء المنحرفين هي القلق ، وينشأ قلقهم هذا اول ما ينشأ عن عدم اخلاصهم للحقيقة ولطبيعة الاشياء ، والانسان الذي لا يخلص للحقيقة لا يخلص لنفسه ومن لا يخلص لنفسه لا يخلص للانسانية ، وهكذا يعيش من كتب عليه هذا القدر المنكود يرى كل يوم وجوده معرضاً للخطر وبقائه عرضة للزوال ، عندئذ تدفع غريزة البقاء هؤلاء المنحرفين الى التكتل والتجمع وتكتلهم وتجمعهم لا يتمان رغبة منهم في مناقشة اخطائهم واعادة فحص ماتعلموه ، بل انما يتمان رغبة منهم في حماية وجودهم المادي والمعنوي ، حتى ولو عرضت مثل هذه الحماية الشعب للمخاطر ، وخير دليل على ما ذكرت ما هو واقع الآن في اكبر مؤسسة علمية في سورية من الاساتذة الشباب الذين يزينون جدران منازلهم بشهادات الدكتوراة ، وهذا العدد تضمه كتلة واحدة وهدف هذه الكتلة التي تدعي حسب ما ينقل انها تحتكر الثقافة والعلم ليس في ان تقدم المناهج والبرامج ، بل ان يساند بعضهم بعضاً في التوظيف والترقية او الايفاد في جولات « اطلاعية » الى الخارج .

وقبل ان اختتم بحثي عن المنحرفين من الثوريين العرب يتوجب علي ان اقرر حقيقة مؤلمة وهي ان الكرامة العليا في هذه المرحلة من مراحل ثورتنا والسطوة البالغة اليوم هما لهؤلاء المنحرفين من الثوريين العرب في سورية .

اني اذ اضرب الامثلة بما يجري في سورية انما أفعل ذلك لكوني اولاً عربياً يعيش فيها ولا يمانى العميق ثانياً بان الثورة في سورية تختلف في بعض الوجوه عن الثورة في مصر ، وأوجه الاختلاف تكمن في كون الحركة الثورية في سورية اكثر عمقاً واسرع تفاعلاً واوسع شمولاً للجماهير منها في مصر ، كما وان في مصر قادة ثوريين يوجهون الشعب ويدفعون بجماهيره على سبيل الثورة بينما ان في سورية شعباً يسوق « قادتته » .

وهذا هو السر في كون مصر قد استقرت سياسيا عقب الثورة ولم تشهد اي انقلاب على النظام الذي انبثق عن ثورة ٢٣ يوليو بينما ان سورية التي بدأت ثورتها الحقيقية في ٣٠ مارس ١٩٤٩ شهدت خمسة انقلابات عسكرية ومرد هذا الامر يعود اولا واخيرا الى كون الشعب العربي الثوري في سورية تنقصه زعامة ثورية جريئة واعية وناضجة .

٣ - الاوضاع التبعية :

ان ثورة القومية العربية تستهدف الامور الخمسة التالية :

الاول : تحرير الاقطار العربية التي لم تتحرر بعد من الاستعمار - فلسطين - الجزائر - مشيخات الخليج العربي .

الثاني : توحيد الاقطار العربية في دولة اتحادية .

الثالث : بناء اقتصاد قومي فعال ينسق بين النشاطات الاقتصادية في مختلف الاقطار العربية بغية انماء رأس المال العامل .

الرابع : تنظيم تعاملنا ورأس المال الاجنبي في الوطن العربي على أساس التبادل العادل للمنافع .

الخامس : بناء مجتمع عربي تسوده الحرية والعدل الاجتماعي وتوجهه الروح الانسانية في نشاطاته وفعالياته .

من أجل تحقيق هذه الامور الخمسة تشتعل اليوم ثورة القومية العربية ، وفي سبيل انجاز هذه المهام تكافح الشعوب العربية وتناضل قوميتها وتستमित . غير انني لن أتطرق حالياً الى بحثها جميعاً بل سأكتفي بالتطرق الى البند الثاني والقائل بتوحيد الاقطار العربية في دولة اتحادية ، وذلك لايماني العميق بانه اذا لم نعرف أن نسلك طريقنا الى الوحدة والاتحاد بعقل وروية وحذر فان ثورة القومية العربية ستصاب آنذاك بنكسة مخيفة مروعة كما أصيبت في الاردن ؛ فالاستعمار يتربص بنا الدوائر ، وفي العالم العربي أنظمة في الحكم لايمكن للقائمين عليها ان

يرضوا أو يوافقوا على أي نشاط يقوم به الثوريون العرب ويستهدفون من وراءه تحقيق الوحدة والاتحاد ، اذ يرون في تحقيق هذا الهدف القضاء المبرم على ما يتمتعون به من امتيازات وسلطات وسلطان . ومن المؤسف ان هؤلاء النفر من الحكام العرب يقفون اليوم في وجه التاريخ عاجزين أن يتفهموا الروح الجديدة التي أضرمت شعلتي الحرية والكرامة في الجماهير العربية ، لذلك فهم يرون في الثوريين العرب الاصلاء فئات مشاغبة هدامة معتقدين بأن الثورات تندلع نتيجة لتحويل المحرضين ، أو صخب المشاغبين ، غير عالمين ان رغبة جماهيرية تفجرها عوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية تخلق الثورة وتضرم نيرانها .

ان سورية ومصر تشكلان اليوم البوتقة التي تلتهم تحتها ثورة القومية العربي لتصهر الشعوب العربية في دولة تمتد من المحيط الاطلسي حتى الخليج العربي ولهذا فان القدر قد أنط في هذه المرحلة من مراحل ثورتنا قيادة القومية العربية بسورية ومصر ، ولذلك يتوجب على القادة الثوريين في هذين القطرين أن يتحلوا بفضيلة الصبر وأن يتخذوا من شعار الجمعية الغابائية شعاراً لهم وقاعدة للعمل ، وهذا الشعار يقول :

« لا بد أن تنتظر اللحظة المناسبة كما انتظروها « فاييوس » من قبل في حربه مع هانيبال في صبر عظيم ، رغم لوم الكثيرين له ، ولكن حين تحل اللحظة المناسبة فلا بد أن تضرب ضربتك القاضية كما فعل « فاييوس » من قبل والا ضاع صبرك أدراج الرياح ولم تجن ثماره » .

اذن فالصبر المرافق بالعمل التحضيري الحكيم الحذر هو طريقنا ووسيلتنا لالغاء أنظمة الحكم المتعارضة ورغبة الشعوب العربية في الوحدة والاتحاد .

ان الاستعمار واعداء الوحدة العربية من حكام العرب يعلمون حق العلم أن قوى الثورة في نمو وتزايد مستمرين ، وان هذا التزايد وذاك النمو اذا ماتتباعا على الصورة الحالية وبنفس الزخم الحالي فان العالم العربي سيشهد عما قريب دولة عربية اتحادية قوية الجانب مرهوبة الشكيمة رايتها الحق وشعارها العدالة . والعقبات

الوحيدة التي يمكن ان تؤخر من سير ركب الثورة لاتتمثل كما أرى في كفاح الرجعية العربية او كفاح الاستعمار ضد ثورة القومية العربية ، بل انما تتمثل في الاخطاء التكتيكية التي قد يفتورها الثوريون العرب في صراعهم من أجل غايات القومية العربية وأهدافها .

وأهم هذه الاخطاء هو ممارسة أحد الاقطار العربية لمبدأ الاختضاع في السياستين الخارجية والداخلية ، ولتجنب هذا الخطأ الفاحش الذي قد ينحرف بالثورة عن أهدافها وبالتالي يضرب مبادئ ثورة القومية العربية في الصميم ومن ثم يؤخر ركب العروبة في طريقها الى الاتحاد والوحدة ، يتوجب على قادة القوى الثورية في كل من سورية ومصر أن يعمدوا دائماً الى المناقشة الحرة في كل الامور المختلف عليها بين قطر ثوري متحرر وآخر محافظ متخلف ، وان يبتعدوا كل البعد عن الاجراءات العنيفة ووسائل الارغام ، وذلك لان مثل هذه الاعمال تخلف وراءها ردود افعال سيئة في نفوس بعض الجماهير من الشعوب العربية ، كما وانها تزود حكام القطر المحافظ المتخلف بالذرائع والحجج وأحياناً بالبراهين والادلة على محاولة الثوريين في سورية مثلاً على ارغام لبنان واستعباده .

فاذا قدر مثلاً لحكومة لبنان أن تنهج سياسة تضر بقضايا ثورة القومية العربية ، آنذاك يتوجب على قادة الثوريين العرب في كل من مصر وسورية أن لا يعمدوا وفي كل الاحوال الى اتخاذ اي اجراء من شأنه أن يضر بمصالح الشعب العربي في لبنان ، بل علينا ان نشعر الشعب اللبناني في مختلف جماهيره وطبقاته اننا لن نعمد ولا يمكن ان نعمد الى اي عمل من شأنه ان يلحق اذى او ضرراً بمصالح جماهير الشعب العربي في لبنان ، وان ثورتنا تعتمد على مبدأ العطاء في تعاملها مع كل قطر شقيق لا على ميزان التجارة الخارجية والرغبة في موازنته . ولذلك يتوجب على القادة الثوريين في كل من مصر وسورية الا يعمدوا وفي كل الاحوال الى تأديب حكومة لبنان مثلاً بانزال الاضرار بمصالح الشعب العربي في لبنان . والثوريون العرب الاصلاء في سورية لن يوافقوا ابداً على منع سفر

السوريين الى لبنان كما وان الثوريين العرب الاصلاء في مصر لن يعمدوا ابداً الى منع استيراد التفاح اللبناني بغية ممارسة ضغط على الحكومة في لبنان ، وان الثوريين العرب الاصلاء اذ يتبنون مثل هذه السياسة ، فانهم يتبنونها لايمانهم المطلق بالجمهير العربية في كل قطر عربي ، ورغبتهم العميقة في تمتين أواصر الاخوة بين الجماهير العربية في قطر محافظ متخلف وآخر ثوري متحرر ، كما وان الثوريين العرب اذ ينجحون مثل هذه السياسة فانما ينجحونها انسجاماً ومباديء ثورة القومية العربية ، هذه المباديء التي تقول في افصح لسان بان طريق الاقطار العربية الى الاتحاد والوحدة هو طريق المناقشة الحرة والاقتناع لا طريق الارغام او الخضاع والتبعية .

لذلك يتوجب على القادة الثوريين من العرب ان يناقشوا حكام الاقطار المحافظة المتخلفة في انظمة حكمها جهاراً نهائياً ، وان يطلعوا جماهير الشعوب العربية في الاقطار المحافظة المتخلفة على كل ما يدور في هذه الاتصالات والمناقشات وذلك كي يفوتوا على الراغبين في الاصطياد في المياه العكرة كل الفرص .

كما وانه يتوجب - واكرر ثانية - يتوجب على القادة الثوريين أن لا يقدموا وفي كل الاحوال على اتخاذ أي اجراء عنيف من شأنه ان يلحق ولو اقل ضرر بمصالح الجماهير العربية في قطر عربي تختلف سياسة حكمه وسياسة ثورة القومية العربية .

كما وأنه يتوجب ايضاً على القادة الثوريين ان يصلوا بجماهير الشعوب العربية في جميع الاقطار المحافظة المتخلفة الى مركز القناعة الراسخة المطلقة بان اهداف ثورة القومية العربية ، هذه الثورة التي تصارع من اجل اقامة دولة اتحادية ، اقول ان اهداف ثورة القومية العربية لا ترمي ابداً الى فرض سيطرة قطر او قطرين على بقية الاقطار العربية ، وان تقسم الاقطار العربية الى أقطار تابعة واخرى متبوعة ، بل انما اهداف ثورتنا تتركز على مبدئي المساواة التامة والمشاركة المثالية الآمنة في بناء دولة اتحادية واقامة مجتمع

قواعده العدل الاجتماعي والمساواة والحرية ، مجتمع ينتفي فيه الاستبداد والاستغلال والاضعاف والتبعية كما وان القادة الثوريين في كل من مصر وسورية لا يرغبون في توحيد العالم العربي كي يشيدوا امبراطورية تتيح للشعبيين العربيين في سورية ومصر استعباد الشعوب العربية في الاقطار العربية الاخرى فعهد الاستعباد قد ولى وعهد الامبراطوريات قد تصوم ودخل في ذمة التاريخ .

انني اذ اتوسع في بحث خطر مبدأ الاضعاف والتبعية على ثورة القومية العربية انما يدفني الى الاستفاضة عبوة تاريخية مريرة وخطأ تاريخي شنيع كان له اسوأ النتائج على انتفاضتنا القومية . فعقب أن قام محمد علي بثورته على الامبراطورية العثمانية ففصل مصر عن الاستانة دفع بجيوشه تحت قيادة ولده ابراهيم باشا الى احتلال فلسطين وسورية . وقد رأت الجماهير العربية في كل من سورية ومصر في الجيوش المصرية ، جيوشاً عربية جاءت لتحررها من نير الاتراك ولتعيد الى الامة العربية وحدتها ، فاستقبلت الجيوش المصرية استقبال المحرر المنقذ من نير العبودية ، غير ان ابراهيم باشا ووالده محمد علي سرعان ما خيأا أمل الشعبين العربيين في كل من فلسطين وسورية ، اذ أخذوا بمصادرة الحريات وبمعاملة العرب في فلسطين وسورية معاملة الغزاة المعتمدين في تبرير اعمالهم على حق الفتح . معتبرين هذين البلدين قطرين مفتوحين لا قطرين شقيقين تشدهما الى مصر اواصر العروبة والدين . ولهذا انقلب الرأي العام في كل من سورية وفلسطين على محمد علي وولده ابراهيم واندلعت الثورات ضد الجيوش المصرية في كل من سورية ونابلس والخليل وذلك في آذار عام ١٨١٣ .

ومحمد علي معذور فيما فعل فهو اولاً لم يكن عربياً والقومية العربية في مصر لم تكن موجودة وقوية وذات شأن كما هي حالها اليوم ، وما محمد علي سوى مغامر افاك حالفه النجاح في مصر فتضخمتم احلامه فاراد ان ينشئ له قيصرية تهيمن وتسيطر على الاقطار العربية ، كما وان روح العصر الذي عاش فيه محمد علي كانت تشجع مثل هذه الرغائب والمطامع .

انني كلما مررت بتاريخ محمد علي وبتاريخ حكم الاسرة العلوية في مصر يتلأ قلبي حزناً وألماً ويعصف الغضب والحقد بعاطفتي، ان تاريخ محمد علي وتاريخ أسرته يظهر لنا بجلاء مدى الاضرار الفادحة التي تنزلها قوة دخيلة على العرب بالقومية العربية . فلقد رافقت ثورة محمد علي على الاتراك في مصر انتفاضة عربية أخرى في قطر عربي آخر، وأعني بتلك الانتفاضة ثورة الوهابيين في الجزيرة العربية وقد تمكن الوهابيون بقيادة آل سعود من تحرير الحجاز وتوحيد نجد وتهديد العراق . لقد كانت كل الظروف الدولية آنذاك تساعد محمد علي على ادماج حركته بحركة الوهابيين وتحرير العالم العربي من نير العثمانيين واقامة دولة عربية متحدة تضم معظم الاقطار العربية في آسيا ، ولكن هيهات لمن كان غير عربي ان يتحسس بمشاعر العرب وان يسعى لتنفيذ رغائبهم ، اذ ان محمد علي الالباني الدخيل على العروبة توجه بما يمتلك من قوى الى الجزيرة العربية ليقهر العناصر العربية الاصلية الشائرة على الاستعباد التركي ، وليعيد لها الى نير العثمانيين .

ان تاريخ محمد علي وتاريخ أسرته خير مثال على ما تلحقه ثورة منجرفة من كوارث بانتفاضة شعب وثورة أمة .

هـ - بين الانقلاب والثورة

قلت في مطلع كتابي ان الثورة هي انفجار اجتماعي ينسف نظاماً كاملاً بجميع ماله من مؤسسات واحزاب وقيم وعقائد وتقاليد ، بغية احلال نظام جديد بديلاً عنه ، اما الانقلاب فانما يرمي الى ازاحة هيئة تشرف على ادارة وتنفيذ نظام معين بغية احلال هيئة اخرى تقوم مقامها وتحكم بدلا عنها ، لكن لا تمس او تتعرض للنظام القائم في تركيبه الاقتصادي والاجتماعي ومن ثم في اتجاهه السياسي .

بماورد تبين ان في الثورة تبادل ، او بالاحرى تغتصب الحكم طبقة شعبية من طبقة شعبية اخرى وتوجه الحكم في كل مجالاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسة الوجهة التي تؤمن مصالح الطبقة المعتصبة للحكم ، اما في الانقلاب فان ابناء الطبقة الواحدة يضطرون فيما بينهم ويتغلب القوي منهم على الضعيف ، غير ان النتيجة لغلبة الابناء الاقوياء لتلك الطبقة لا تؤدي ابدأ الى تبديل الاتجاه بالحكم وفي كل مجالاته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بل انها تحافظ على ذاك الاتجاه فتقتصر المنافع المادية والمعنوية للنظام القائم على الطبقة التي كانت تمثلها الهيئة المقلوبة ، ومن ثم جاءت الهيئة الجديدة لتتابع تمثيلها وتنفيذ ارادتها .

وهكذا يتبين لنا أن الانقلاب ومهامه مقصورة على معالجة المظاهر والقشور بينما ان الثورة ومهامها تتعدى معالجة المظاهر والقشور الى سحق الجوهر واقتلاع الجذور . والانقلاب يقع عندما يتعثر النظام القائم ، اما نتيجة لسوء الادارة او الضعف او الاثرة الجاحمة لبيئة معينة داخل الطبقة التي تمثل النظام القائم .

كما وان الانقلاب يحدث ايضاً عندما ترى فئة قوية من ابناء الطبقة الحاكمة ان النظام القائم كاد ينحرف عن رسالته فيتطور الى ان تصبح فوائده اكثر شمولاً بحيث تتعدى تلك الفوائد ابناء الطبقة الحاكمة الى طبقة اخرى (انقلاب غواتيمالا - محاولات الانقلاب في سورية) اذ ان الفئة القوية ترى في مثل التطور ذاك ارهاصات لثورة اجتماعية تهدد بقاءها ونفوذها وسلطانها بالزوال : لذلك تدفع تلك الفئة القوية الى اغتصاب السلطة بغية تدعيم سلطان النظام القائم وبالتالي تدعيم الطبقة التي انبثق عن

مصالحها ذلك النظام .

لقد أصبح الآن من المتفق عليه ان الثورة الفرنسية مع جميع ماتبلته من شعارات انسانية ونادت به من مساواة وحرية واخاء ، فانها كانت (الثورة الفرنسية) في جوهرها ثورة البرجوازية الامبريالية الاوروبية الحديثة لذلك سمحت تلك الثورة ، او بالاحرى سمحت الطبقة الحقيقية القائمة على تلك الثورة - الطبقة البرجوازية - باقتلاع جذور الاقطاع والطبقة الاقطاعية بكل ما في الثورة من اندفاع ولهب وعنف ، غير أن الطبقة البرجوازية عندما رأت أن أزمة الثورة تكاد تفلت من ايدي ابنائها وان اليعاقبة وزعيمهم روبسبير يعزمون من حيث يدرون ولا يدرون ان لا يقصروا ثمار الثورة على الطبقة البرجوازية بل انهم يريدون ان يشرکوا جماهير الطبقة العاملة في هذه الثمار ايضا قامت تلك الطبقة البرجوازية - بتهمة الانقلاب على روبسبير وبدفع حكومة الديركتوار الى مناصب الحكم ، ومن ثم وعندما رأت الطبقة البرجوازية ان حكومة الديركتوار اضعف من ان تمارس السلطان باسمها - أي الطبقة البرجوازية - دفعت نابليون الامبراطور الى شن حرب استعمارية بغية ايجاد متنفس لرؤوس الاموال النامية للبرجوازية الفرنسية .

وما الامثلة التي ضربتها بالثورة الفرنسية سوى خير برهان وشاهد على صحة النظرية التي قررت في مطلع بحث موضوع الثورة والانقلاب .
اذن فالثورة الفرنسية - وهي ثورة واضحة سهلة الدرس - تمثل في كل مراحلها ثورة كاملة - ثورة طبقة على طبقة اخرى - البرجوازية على الاقطاع ومن ثم تمثل انقلابين ، الاول انقلاب على قادة ثوريين ارادوا ان ينحرفوا بالثورة عن اهداف الطبقة التي احتضنتها ومن ثم انقلاب آخر على الحاكمين من ابناء الطبقة التي احتضنت الثورة وذلك نتيجة لضعف وسوء ادارة اولئك .

والآن ننقل الى العالم العربي - عالمنا - ذي القومية الشائرة ان اول ثورة شاهدها عالمنا في النصف الاول من القرن العشرين هي ثورة الحسين ، وقد قام بالفعل على هذه الثورة مزيج من الطبقة الاقطاعية العربية يشاركها بعض ابناء طبقة برجوازية ضعيفة

في دورها الجيني الاول ، وكانت ثورة الحسين تقتصر اهدافها على قضية التحرر السياسي وقضية الوحدة العربية ، ولم تتعد هذه الاهداف الى معالجة تركيبتنا الاقتصادي والاجتماعي ، بل ان هذه الثورة اتسمت وبقيت متصفة بكونها ثورة طبقة الاقطاع في سبيل تحرير ابنائها من ربة الاستعمار التركي . ومع ان هذه الثورة قد استهوت الجماهير ، اذ ان الرباط الثوري الذي كان يشد الجماهير العربية اليها كان رباط التحرر السياسي غير ان تلك الثورة لم تفعل او تنفعل والרגائب الغامضة للجماهير العربية في التطور والتقدم والاصلاح ، ودليلي على ذلك انه عقب ان استكملت بعض الاقطار العربية استقلالها وخاصة سورية ولبنان ومصر كان الذين يتولون مقدرات الحكم في سورية ولبنان من جنود الثورة العربية - ثورة الحسين - غير ان وعي اولئك القادة لم يتجاوز قضية التحرر السياسي الى قضايا التطور والاصلاح لذلك حدثت الانقلابات في سورية والانقلاب الابيض في لبنان .

ولكننا يذكر ثورة الشعب العربي في مصر عام ١٩١٩ وقد ولدت تلك الثورة حزباً شعبياً ثورياً ، واعني بذلك الحزب حزب الوفد ، غير أنه سرعان ما انفضت جماهير الشعب العربي في مصر عن ذاك الحزب ونسته وتناسته عقب أن لمست أن أهداف حزب الوفد لا تتعدى قضايا التحرر السياسي الى قضايا الاصلاح الداخلي لذلك وجد عبد الناصر ورفاقه الطريق ممهدة أمامه عندما قام بثورته وجعلها تأخذ على عاتقها مهمة ضرب نظام الاقطاع وسحق النظام السياسي الذي يستند اليه ، وبذلك قضى عبد الناصر ورفاقه على جميع المؤسسات والاحزاب التي كانت تسند ذاك النظام - النظام الاقطاعي الملكي - وقضى بالتالي على الحزب الذي كان يسمى بحزب الاغلبية - حزب الوفد - وسبب نجاح عبد الناصر في القضاء على تلك القوة السياسية الضخمة - حزب الوفد - تعود الى كون حزب الوفد الذي رفعته الجماهير دائماً الى السلطان في كل انتخابات حرة قد انحرف عن رسالته الشعبية اذ انه أصبح بؤرة يعشعش فيه الاقطاع وتجذب فيه الرأسمالية المصرية الشرهة - اقول الشرهة - لها ملاذا وملجأ . نحن لاننكر أن جميل مردم مثلاً ومصطفى النحاس كانا يمثلان فئة ثورية ، غير

أن الفئة التي كنا يمثلانها شاخت وانحلت ، ولم يتمكن شباب تلك الفئة الثائرة من الموت معها ، لذلك خرج من تلك الفئة جيل ثار عليها واندمج في الشعب انفعل معه وتفاعل فيه .

طابع ثورة القومية العربية :

من الامثلة الواردة أعلاه يتضح أن طابع الثورة والانقلابات في الاقطار العربية لا يزال حتى الآن طابعاً برجوازيّاً بكل ما لهذه الكلمة من معنى . وهذا القول الذي اورده خطير وخطر ، خطير اذ انه يقرر حقيقة واقعة لا يستطيع من يتبنى المنطق والمعقولة أن ينكر فيه حرفاً واحداً أو ينقض من مفاهيمه مفهوماً واحداً ، وخطر لأنه يقول بان الثورة والانقلابات التي حدثت في الاقطار العربية انما هي ولادة لثورة جديدة تنتقل بطابع الثورات والانقلابات الحالية من حيث هو طابع برجوازي الى صيورته طابعاً جماهيرياً .

وهنا تبرز المهمة الاساسية للثوريين العرب الأصلاء ، واعني بهذه المهمة تطوير الثورة الحالية وذلك بمراقبة الطبقة البرجوازية مراقبة دقيقة وحذرة بحيث تمنع الطبقة البرجوازية من الاستئثار بثمار الانتفاضات الشعبية النابعة من الرغائب الشعبية العميقة في التطور والتقدم والاصلاح .

وهنا تبرز الحكمة المستترة وراء المادة التي جاءت في الدستور المصري والقائلة بمنع سيطرة رأس المال على الحكم . ومفهوم هذه المادة في منطق ثورة القومية العربية يتلخص في أن على الدولة الثورية الحاكمة ان تجرد رأس المال من العنصر الشخصي ، أي أن تمنع الرأسماليين من حرية اعادة توظيف الارباح في المشروعات التي تدر منافع شخصية اكثر من منافع عامة ، وهذا ما يعني ضمناً ان الحكم يرى بالاحذ في سياسة اقتصادية تنهيجية ، تخضع المشروعات الفردية للمشروعات العامة وذلك عن طريق حرية الحكم في فرض واشتراء نظام ضرائبي يتفق وصالح الاكثرية الساحقة من الجماهير . فالحكم كما لاشك يعلم القاريء لا يتمثل بالشرطي او المدير الذين ينفذان ما لديهم من اوامر ادارية فحسب ، بل انما يتعلق بجهاز

دولة يأخذ على عاتقه تنفيذ سياسة تتوخى في هدفها النهائي صالح المجموعة الكبرى من الشعب .

والطريقة المثلى التي انصح بها الثوريين العرب في انتהاجها والطبقة البرجوازية التي هي في الوقت الحاضر في مركز بالغ الاهمية بالنسبة لثورة القومية العربية ، هي في ان توجه سياسة الدولة في صالح اناء رأس المال لاني صالح اناء ارباح الرأسماليين ، وذلك بغية ايجاد امكانات تحقيق عدل اجتماعي فنحن نر كجا قلت آنفاً في طريق تطورنا بمرحلة الرأسمالية ، وواقعنا الاجتماعي ، اقول الاجتماعي ، من الناحية الثقافية في وجهتي الفن والادارة يحتم علينا ان نسند الطبقة البرجوازية ، طالما ان هذه الطبقة تنشط وتقوم بوظيفة المدير ، اقول المدير فقط للمشروعات الاقتصادية واني لوائق من انه اذا استطعنا ان نطبق هذه السياسة التي اشترت اليها آنفاً ، عندئذ يصبح باستطاعتنا ان نغير طابع ثورة القومية العربية من حيث هو طابع برجوازي الى حيث يكون طابعاً جماهيرياً .

عندئذ يستطيع المتعمق في خطواتنا من الوجهة التكتيكية ان يتفهم بيسر ان ما يبدو له من طابع برجوازي يطبع ثورتنا - ثورة القومية العربية - فانما هو سراب خادع ناشيء عن كون المرحلة التي نمر فيها اليوم هي مرحلة الرأسمالية - رأسمالية الدولة - غير انها تختلف عن رأسمالية الدولة بالمفهوم العلمي لهذا النوع من الرأسمالية ، وذلك من حيث ان رأسمالية الدولة في مفهوم القومية العربية هي تلك التي تحافظ على الملكية الخاصة من حيث الشكل فقط غير انها تلغيا من حيث الاصل وذلك لان الدولة الثورية المنبثقة عن مبادئ واهداف القومية العربية يهها الجوهر لا المظهر ، فهي طالما ترى أن فوائد رأس المال وارباحه لا تعود على ابناء الطبقة البرجوازية فحسب بل انما تتعداهم على صورة اوسع الى الجماهير الشعبية وذلك عن طريق اناء رأس المال القومي العامل لتوفير امكانات تطبيق العدل الاجتماعي .

كما وأني انصح في الوقت ذاته بان نهج السبيل ذاته التي تنهجها الصين الشعبية في معاملتها للطبقة البرجوازية في بلدها ، وهذا السبيل يتلخص في ان تدخل الدولة بالذات مساهمة في المشروعات الفردية وذلك في حالة توفر الاموال الكافية لدى الدولة ، ومن ثم تشتري الدولة بما يتجمع لديها من الارباح المزيـد من الاسهم في المشروع المساهمة فيه ، وهذه الخطة جد حكيمة اذ انها اولا توفر للدولة رقابة فعالة على توجيه المشروعات الفردية وذلك عن طريق ممثلي الدولة في مجالس ادارات تلك المشروعات ، ومن ثم تصفي تدريجياً الملكية الفردية دون ان تثير زوابع او عواصف تجرف رؤوس الاموال خارج الوطن العربي كما وانها تتيح للدولة فرصة من الزمن تستطيع خلالها ان تدرب الاشخاص على اعمال التنظيم والادارة . اضع الى ذلك ان التفاعل بين الافكار الفردية وبين الافكار والخطط للدولة يؤديان حتما الى التوصل الى ابتكارات جديدة ووسائل جديدة تهبط بكلفة الانتاج وتزيد من فعاليات رأس المال وتنمي القدرة الشرائية لدى الجماهير ، كما وانه يتيح للدولة حين وضعها لبرامجها وتصاميمها ، هذه البرامج والتصاميم المفترض ان تنشط المشروعات الفردية ضمن نقاطها وداخل دائرتها ، اقول ان تلك الخطة تتيح لرجالات الدولة حين التخطيط فيها عمليا واقعيًا يساعدهم على التنسيق بين المشروعات الفردية والمشروعات العامة بغية ايجاد انسجام ووافق تامين بين عنصري الاقتصاد القومي ، العنصر الفردي والعنصر الرسمي .

وهناك حقيقة بارزة لا أستطيع وأنا أنبحث موضوع طابع ثورة القومية العربية الا ان اتعرض اليها ، وهذه الحقيقة هي ارتباط الطبقة البرجوازية بالزراعة الواسعة « EXTENSIVE AGRICULTURE » التي تجري الآن في سهول الجزيرة العربية السورية هو ارتباط وثيق ولا أغالي اذ أقول ان الزراعة في الجزيرة والنجاح الواسع الذي صادفته إنما كان ولا يزال بفضل رؤوس أموال الطبقة البرجوازية في الشعب العربي في سورية ، اذ أن هذه الطبقة ونتيجة للجمود الذي يسود منطقتها يجعلها دائماً وأبدا تسعى الى توظيف رؤوس

أمواها في مشاريع قصيرة الأمد - كالمشاريع الموسمية -

عودة الى المخضرمين :

قلت ان المخضومين من أمثال جميل مردم ومصطفى النحاس كانوا يمثلون فئة ثورية وقلت ايضاً ان طابع هذه الفئة كان يغلب عليه الطابع الاقطاعي والعائلية ، وقد تبنت هذه الفئة ثورة الشعوب العربية ضد الاستعمار في شكله التركي والغربي غير انها أي الفئة المخضومة - لم تأت على التركيب الاجتماعي السيء الفاسد الذي خلفه الاستعمار وراءه في الاقطار العربية التي حققت استقلالها ، وذلك لان ثورتها على المساويء والمفاسد في التراكيب الاجتماعية التي كانت قائمة آنذاك تعني بصورة مباشرة ثورتها على نفسها أو بمعنى أدق ثورتها على طبقتها بالذات وعلى النظام الاجتماعي الذي تمثله ويؤمن لها مصالحها الاقتصادية والسياسية ، وأعني بهذا النظام - نظام الاقطاع والعائلية .

ولما كان من ابرز طبائع الحياة الحركة والتقدم وتوسيع دوائر المنافع ، وامتداد هذه المنافع الى الجماهير لذلك كانت الثورة والانقلابات الثورية - اقول الثورية بكل تحفظ - ضرورة محتومة ، وتطوراً تاريخياً تلزم حدوثه قوانين التقدم وسنن الارتقاء والنشوء .

وهناك بادرة تاريخية مذهلة ، تتنافى وقوانين الثورات التي نشبت في اوربا وذلك فيما يتعلق بجهود المخضرمين في كل من سورية ومصر ، وأعني بهذه البادرة تأخي او بالاحرى تعاون أبناء الطبقة البرجوازية في عهدها الطفولي وطبقة الاقطاع والعائلية مع كون المنطق التطوري للتاريخ يرفض هذا التعاون بل بالعكس يرى فيه استحالة مادية لا يمكن ان تتم او تحدث ، غير أننا نحن الذين رافقنا عهد حكم المخضرمين في كل من سورية ومصر قد لمسنا هذه الحقيقة لمس اليد ورأيناها تعيش في مجتمعنا ورأينا بام عيننا البرجوازية الحديثة تتعاون او بالاحرى تدعم حكم أنظمة المخضرمين في كل عهودهم فما السر في ذلك ؟ ان السر يكمن أولاً وأخيراً في الزواج المصلحي الذي كان ولا يزال حتى الآن قائماً بين كبار ملاك الاراضي واصحاب المؤسسات والمشروعات الفردية .

فعندما رأى أبناء طبقة ملاك الاراضي ان الفوائد المادية تؤمن وبصورة مضمونة في حالة توظيف بعض ريعهم من مردود الارض في المشروعات الفردية انتقل هؤلاء الملاك الى الاسهام في تلك المشروعات كما وأن كبار الزراع اخذوا يشترون او يقيمون الابنية في المدن ويؤجرونها ، كما وأن البعض الآخر منهم اخذ يمارس بصورة شخصية ودون وسيط اعمال تصدير منتوجاته الزراعية وبيعها في كل من السوقين الداخلية والخارجية - مؤسسة اصغر ونجار - في سورية اضاف الى ذلك ان الطبقة البرجوازية في المدينة نفسها عندما رأت ان توظيف اموالها في مشروعات زراعية يعود عليها بالفوائد بادرت الى هذا العمل ، وكلنا يذكر الحمى التي انتابت بعض المتمولين في الدور الاول لزراعة القطن في سورية ، كما وان بعض المؤسسات المنشأة حديثاً كمعمل السكر في سورية ، اخذ بنفسه يمارس اعمال زراعة الشوندر السكري الى غير ذلك من الامثلة .

وقد ادى هذا الواقع - واقع المنفعة - الى اندماج مصلحي بين العائلية والاقطاع وبين البرجوازية الحديثة ، وهذا هو السر في التعاون المتناقض تاريخياً اقول المتناقض تاريخياً والذي كان قائماً بين الملاك الزراعيين وبين طبقة البرجوازية الحديثة . اما في مصر ، وحزب الوفد المصري كما قلت آنفاً كان يمثل زواجاً موفقاً بين الاقطاع والبرجوازية ، فسر التوفيق في هذا الزواج يعود اولاً واخيراً الى حقيقة اولية وهي عقم توظيف الارباح التي تعود بها الزراعة في الريف المصري اذ ان تكاليف الاستصلاح الزراعي في مصر تكاليف غير تجارية ، لذلك اتجه أبناء طبقة الاقطاع بالفائض من مردود الارض الى المشروعات التجارية والصناعية ، وهذه الحقيقة ادت كما ادت في سورية الى الاندماج المصلحي بين طبقتي الاقطاع والبرجوازية الحديثة . ولما كان هذا الاندماج المصلحي بين هاتين الطبقتين لم يكن موجهاً في كلياته او جزئياته الوجهة التي يمكن ان تعود بالنهاية على الجماهير الشعبية بالخير والنفع ، لذلك حدثت الثورات ووقعت الانقلابات ، اذ ان بقاء الاحوال على حالها كان يعني فرض الجحود على الحياة ، وهذا معناه التعارض والقانون الاساسي للحياة ،

القانون القائل بان الحياة حركة متطورة تأبى الوقوف او الجمود وتمدفع
ابداً ودوماً الى الامام . وقبل ان اختتم بحثي في المخضرمين وعهودهم تفرض علي
الحقيقة وتجري المطلق للحق القول بان المخضرمين قد ادوا خدمات جلي للجماهير
الشعبية في كفاحها السياسي ، هذا الكفاح المتمثل بالتححرر من الاستعمار ، غير انهم
لم يتمكنوا - او بالاحرى - لم تمكنهم الروح الطبقيّة التي كانت تسيطر على
منطق ووجدان طبقتهم من الاسهام في الكفاح الاجتماعي ، ولقد وقف المخضرمون
من الكفاح الاجتماعي موقف المعارض لرغبات الجماهير واهدافها وأصبحوا
يرون في الكفاح الاجتماعي الذي تخوض غمراته الجماهير الشعبية تعارضاً
خطراً على مصالحهم الطبقيّة وتهديداً خطيراً لوجودهم السياسي وبذلك فرض
المخضرمون - أو على صورة أدق - فرضت طبيعة الطبقة التي ينتمون اليها ، عليهم
الانحلال والموت .

لقد رأى المخضرمون في الاستقلال السياسي الغاية النهائية لكل صراع او كفاح
جماهيري ، وهذه العقيدة الخاطئة الضالة المضلّة ، هي التي قذفت بهم - المخضرمين -
من السلطان ، اذ أن منطق الجماهير في امانيه الغامضة ترى في الاستقلال وسيلة
الى غاية وليس بغاية مجردة اما هذه الغاية فهي التحرر من الفقر ، والتحرر
من الخوف والمشاركة مشاركة فعالة في بناء الدولة وتوجيه النظام القائم
الوجهة التي تدعم كرامة الانسان وكرامة الجنس البشري . وهذه الحقيقة ، حقيقة
كون الاستقلال غاية لاوسيلة وعجز المخضرمين عن تفهمها ، هي التي أشعلت نيران
الثورة في مصر وأجرت سلسلة الانقلابات الثورية - واقول الثورية ثانية بكل
تحفظ - في سورية وهي التي ستؤدي في النتيجة الى اشعال الثورات واحداث
الانقلابات في بقية الاقطار العربية الاخرى .

بين الثورة في مصر والانقلابات في سورية :

شاهد العالم العربي عقب الأحداث والمآسي التي مثلت على مسرح فلسطين

انتفاضات شعبية نابغة من أعماق أغوار نفس الجماهير العربية ، وكانت أول هذه الانتفاضات انقلاب حسني الزعيم ومن ثم الانقلاب على حسني الزعيم بقيادة سامي الحناوي ومن ثم الانقلاب على الحناوي بقيادة الشيشكلي ، ومن ثم انقلاب الشيشكلي على السلطة القائمة وأخيراً الانقلاب على الشيشكلي بقيادة الجيش كمجموعة تقدمية ، هذا في سورية أما في مصر فحدثت الثورة بقيادة جمال عبد الناصر ورفاقه من الضباط واطاحت بعرش واودت بملك وهدمت نظاماً اقطاعياً فاسداً ظالماً مستبداً .

كل هذه الاحداث جرت في حقبة قصيرة ومذهلة في قصرها عقب كارثة القومية العربية في فلسطين ، لقد نهبت هذه الكارثة اذهان الجماهير ووجدانهم وفتحت اعينهم على التركيب الاجتماعي الفاسد الذي يلجمه رغائب الجماهير العربية في التطور والتقدم .

والحق أن خلق دولة اسرائيل في قلب العالم العربي قد دفع بالوعي الثوري في الشعوب العربية مراحل هائلة الى الامام ، ولولا اسرائيل ، وشعور الشعوب العربية بالخطر المميت الذي تشكله هذه الدولة على وجود العرب المادي والمعنوي ، لسارت خطوات الشعوب العربية وتأييدها متتدة في طريق الثورة التي نعيش اليوم ساعاتها المشرقة ، ونحمل مشاعلها في كل قطر عربي ونستضيء بنورها في سراديب السياسة الدولية .

لقد ارغمت اسرائيل جماهير الشعوب العربية على التفتيش عن اسباب النكبة ، وبذلك اضرمت اسرائيل جذوة الثورة في نفوس العرب ، فأخذ القوميون العرب الذين أشعلت النكبة في فلسطين جذوة الثورة المقدسة في وجدانهم وضمائرهم ومنطقهم بمراجعة جميع ما غللك من مؤسسات ومن أنظمة ودراسة كل ما لهذه الأنظمة من مشتقات تتمثل في سلطات تشريعية وتنفيذية وطبقية . نعم ان النار التي اشعلها الاستعمار والصهيونية في فلسطين والتي أكلت حقوق ومقدسات شعب عربي أبي ، قد اضاءت وهي ترعى في أجساد أخواننا الطريق لنا ، الى سحق

الفاسد وتدمير الانظمة الاجتماعية التي كانت تعيش في كل من سورية ومصر ،
وانني لأرى بعين الامل الوطيد ، وأمس بيد القناعة الراسخة ، وأشعر بكل
مالي من حواس بجرارة الثورة - ثورة القومية العربية ، منبعثة من لب الثورة
المقدس المتصاعد عالياً عالياً والذي يرعي نهائرها غاضباً حاقداً ، كل المظالم الاجتماعية
في كل قطر عربي ، في عالم بأكمله عالم يمتد من المحيط الاطلسي وينتهي بالخليج
العربي ليبداً من جديد امتداده اللانهائي في عالم الانسانية على ظهر هذا
الكوكب والكواكب الاخرى ، في هذا النظام الشمسي وفي الانظمة
الشمسية الاخرى .

هذه المراجعة الاليمية والدراسة التاريخية العميقة التي اوجبتها علينا ارادة
الحياة اولا والاستعمار والصهيونية ثانياً كان لها الفضل كل الفضل في دفع
موجب الثورة الى الامام ، لذلك ما كاد المذيع في صباح الثلاثين من مارس
عام ١٩٤٩ يعلن عن ان انقلاباً عسكرياً قد جرف السلطة القائمة برئيسها
وبرلمانها وحكومتها حتى انطلقت الجماهير لتعانق الجنود مؤمنة ان ترى في
قبضاتهم المعاول التي ستهدم تركيباً اجتماعياً فاسداً لتبني نظاماً اجتماعياً جديداً يحوي
كل صالح وينفي كل طالح ، وبذات المشاعر وب نفس الاحاسيس استقبلت
الجماهير العربية في القطر المصري يوم ٢٣ تموز عام ١٩٥٢ .

غير ان هذه الحقيقة لم تنف ان ما قام في سورية كان انقلاباً ذا طابع
ثوري ولم يكن كما كان في مصر ثورة ذات طابع ثوري أصيل بكل ما للثورة
من معنى وحقيقة ومفهوم ، ومع هذا فان الحدثين التاريخيين الهامين اللذين
وقعا في كل من مصر وسورية خلفا ذات النتائج الثورية ورائهما مع اختلاف
نوعهما علماً ومفهوماً . فما هو السر في ذلك ؟ وما هو السبب او الاسباب التي
جعلت عمليتين مختلفتين في أصلهما وطبائعهما يؤديان نفس النتائج ويأتیان بردود
الافعال ذاتها في كل من سورية ومصر ، أضف الى ذلك ان الانقلابات
العسكرية ، مع كونها انقلابات وليست بثورات ، قد غاصت عميقاً عميقاً

بالوعي الثوري في نفوس الجماهير العربية في القطر السوري وجعلت المفهوم
الثوري للشعب العربي في سوريا اكثر اكتمالا وعمقا وشمولا منه للمفهوم
والوعي الثوريين لدى الشعب العربي في مصر ؟

ما هو اذن السبب الاصيل الذي دعى الى حدوث ثورة في مصر وانقلابات
في سورية ؟

ان الجواب على هذه الاسئلة يتلخص في اختلاف العوامل في المناخات
الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ومن ثم النفسية بعضها عن بعض في كل من
سورية ومصر ، اذ ان كل ثورة ناجحة هي تلك التي تتعامل وماهو كائن بغية
تطويره الى ماتريد له ان يكون ، وهذا مايعني « تأقلم » الثورة روحاً ومادة .

ان اولى الحقائق هي ان سورية لم تكن كمصر بحاجة الى ثورة ، وذلك
لان نظامها - نظام الحكم فيها - كان نظاماً اكثر تقدمية واشد قابلية للانطلاق
بالجماهير من النظام الذي كان قائماً في مصر ، فسورية جمهورية ومصر كانت
حتى الثورة ملكية اقطاعية ، سورية كانت مبتلاة بنظام عائلي له طابع
الاقطاع السياسي أكثر من طابع الاقطاع الاقتصادي ، ومصر كانت مبتلاة بنظام ملكي
له الطابع الحقيقي للاقطاع في ميدانيه الاقتصادي والسياسي ، لذلك لم يكن من طريق امام
الثوريين العرب في مصر الا هدم النظام الملكي المستند ، او بالاحرى المنبثق
عن نظام اقطاعي يحسن تنظيم المظالم ويسدع في توزيع الاضرار والشرور .
وطبيعة هذا العمل اقتضت الثوريين العرب في مصر انشأ ثورة تهدم الملكية
اتهدم الاقطاع في حقله الاقتصادي والسياسي ، فالملك لم يكن في مصر رأس
السلطات بل كان بالاضافة الى ذلك اكبر ملاك للاراضي المتزرعة في القطر
المصري قاطبة ، وهو بهذا يكون رأس طبقة كبار الملاك وعليه لهذه الطبقة
التي هو رأسها وممثلها الفعلي واجبات الحماية والرعاية . وهو حينما يقوم بهذه
الواجبات فانه بذلك لايجمي او يرعى ابناء الطبقة الاقطاعية فحسب ، بل انما

يقوم في الوقت ذاته بحماية نفسه ورعاية مصالحه وتدعيم اسباب بقاءه ،
لذلك كان التركيب في السلطة القائمة قبل الثورة ذا هدف واحد وغاية واحدة
تتمثل في الحفاظ على التركيب الاجتماعي الموجود ، دون التحسس بما يلحقه
مثل هذا التركيب الاجتماعي بالشعب من كوارث ونكبات وامتهان
للكرامة الانسانية .

فمثلا لم يكن من الممكن ابدأ ان يمر او يقر قانون كقانون اصلاح الزراعي
الا على جثة نظام سياسي كامل يتمثل بالنظام الملكي وبشخص الملك بالذات
الذي كان المالك الأكبر للأراضي المنزوعة ، وكلنا يذكر أن من الاسباب
الرئيسية لسقوط وزارة على ماهر في الايام الاولى للثورة العربية في قطر
كان قانون اصلاح الزراعي القاضي بتحديد الملكية ، كما واننا نذكر ان
كبار الملاك بذلوا المحاولات الحثيثة ورجال الثورة كي يجنبوا قادة الثورة من
استصدار مثل هذا القانون وذهبوا في محاولاتهم تلك الى حد اقتراح
رفع الضرائب على اراضيهم حتى نسب خيالية مع الاحتفاظ بحقوق
الملكية لاقطاعاتهم الواسعة ، غير ان هذه المحاولات كانت جهوداً مهدورة
وذلك لانها تتنافى ومنطق الثورة وتعارض وضميرها ، فالثورة الشعبية عندما
تندلع نيرانها لا تستهدف فقط نفس الاسس الذي يرتكز عليها النظام الاقتصادي
بل ان الثورة عندما تقوم بنسف وتدمير مثل هذه الاسس فلما هي تقوم بالوقت
ذاته بنسف وتدمير القواعد التي يرتكز عليها النظام السياسي ايضاً ، ولهذا رأت
الثورة في مصر في محاولات رجال الاقطاع تلك محاولات تتوخى الابقاء على
السلطان السياسي للاقطاع اذ ، أنه يكفي ان يبقى للاقطاعيين حق الملكية كي
يبقى لهم اثر هائل ونفوذ جبار في فرض سلطانهم السياسي عن طريق انتخابات
نيابية او غيرها ، اذ ان بقاءهم كطبقة ملاك الاراضي وخاصة في بلد كمصر ريفه
يكاد ينفجر بسكانه ، يجعل من رجال الاقطاع قوة مرهوبة الجانب من الفلاحين

العاملين في اقطاعهم ، وهذا مما يبغي لهؤلاء حتى ولو جردتهم الثورة من الكثير من امتيازاتهم وحريرتهم في ادارة الاراضي وتأجيرها وتحديد اسعار استئجارها وحماية الفلاح من التهجير والطرء الخ .. اقول ، ان احتفاظ رجال الاقطاع بحق الملكية يعني بقاءهم قوة سياسية ذات شأن حاضراً فستقبلاً ، ومن ثم ابقاء العقبات في طريق الجماهير الشعبية الى ممارسة سلطتها والمشاركة مشاركة فعلية في الحكم وتوجيه نظام الحكم في صالح الجماهير ، كما وانها تؤدي بالتالي الى اتاحة الفرصة لرجال الاقطاع لاستجماع صفوفهم وتركيز قواهم وترويق اللحظة المناسبة للانقضاض على الثورة وتصفيتها .

لقد رأى رجال الثورة في مصر ان من واجباتهم الاساسية ان لا يتردوا في الشباك التي نصبها الاقطاع ، اذ ان ضمير الثورة لا يرتاح ولن يرتاح نتيجة لما يدخل صندوق الحكومة من واردات تحيى نتيجة للعمل باقتراح الاقطاع - رفع الضريبة على اراضيهم - بل انما يرتاح فقط في ايجاد طبقة جديدة من صغار الملاك متحررة من الخوف اولا ومن العوز ثانيا كي تمارس حقوقها السياسية دون رهبة او وجل ، لذلك كان أمام الثورة ان تجرف في طريقها طبقة كاملة حكمت مصر لقرون عديدة حكما مليئاً بالمظالم والفساد والافساد والجور ، وان تأتي على نظام سياسي انبثق عن مصالح هذه الطبقة وعن تفرغه لخدمة هذه المصالح ولهذا اتصف الحدث الذي قام به الجيش العربي في مصر بكل صفات الثورة الاصلية ، اذ انه هدم نظاماً اقتصادياً وآخر سياسياً بغية الاصلاح في التركيب الاجتماعي .

أما في سورية فان النظام السياسي كان اكثر تقدمة من النظام السياسي في مصر ، كما وان القواعد الاساسية التي استند اليها الدستور السوري السابق لدستورنا الحالي كانت في مجملها اكثر ديمقراطية واشد قابلية للتطور ومجاراة الجماهير

الشعبية في انطلاقاتها الثورية في مجالات التطور والتقدم من تلك التي كان يقوم عليها الدستور المصري .

أضف الى ذلك ان الديمقراطية في سورية من حيث التطبيق ، كانت حتى انقلاب حسني الزعيم اكثر تحقّقاً من الديمقراطية التي كانت تطبق وتنفذ في مصر .

ولذلك وبينما كنا نشاهد في سورية وخاصة في الولاية الثانية للسيد شكري القوتلي عناصر شعبية تتسلل الى الحكم او بالاحرى يرتفع بها الشعب الى هيئة التشريع ، بقي الطابع الاساسي للحكم في مصر طابعاً ارسطقراطياً بكل المفهوم الارستقراطية من معنى ومفهوم . ولقد نشأت هذه الحقيقة عن ان نظام الحكم في سورية ، وأعني بذاك النظام النظام الذي كان قائماً حتى انقلاب حسني الزعيم ، كان في روحه اكثر تسامحاً واكثر اتاحة للفرص من النظام الذي كان يسود مصر حتى قيام ثورة ١٩٥٢ .

وخير دليل على صحة ما أوردته آنفاً هو ذاك الجواب الواعي والذي اجاب به المغفور له سعد الله الجابري بعض رجالات الرجعة ، عندما طالبوه باتخاذ تدابير زجرية ضد المعارضة . لقد كان جوابه رحمه الله بما معناه :

« يجب ان نجعل المواطن يدرك الفروق بين عهدي الاستعمار والاستقلال والطريقة المثلى لتحقيق هذا الامر هي في اتاحة الفرصة له في انتقاد تصدّفات الحكومة واعمال مؤسساتها . »

هذه لمحة سريعة على الفروق في العوامل السياسية التي كانت تكتنف النظامين الدستوريين في كل من مصر وسورية ، وهناك فروق اخرى بالغة الاهمية شديدة الخطر تتصف بكل صفات الحسم والتقدير وذلك في التركيب الاجتماعي القائم في كل من القطرين العربيين .

واول هذه الفروق كون طبقة الاقطاع في مصر اكثر تماسكاً من مثيلتها في

سورية ، وبذلك كانت تلك الطبقة اكثر فعالية واشد قوة ، وكان لها نظام سياسي يمثل برأس الدولة الملك - يسندها ويدعمها ، كما وان البرجوازية المصرية الناشئة تكتلت في اكثريتها الساحقة وانضمت كما قلت في موضع آخر من هذا الكتاب الى رجالات الاقطاع القائمين على الامر في مصر . وقد تجلّى تكتلها واضحاً في حزب الوفد المصري ، اضاف الى ذلك ان القوى الثورية الناشئة في مصر كانت ضعيفة الى درجة جعلتها تلتمس الحماية بين صفوف الوفد وذلك نظراً لما كان لهذا الحزب من ماض ثوري في الميدان السياسي .

وقد يقول قائل ان حزب الوفد كان ماضيه حافلاً بالخلافات بين رجالاته وبين الملك - رأس الاقطاع - وهذا مايعني ان « الوفد المصري » كان على خلاف والاقطاع ؟ !

وهنا اجيب ان تلك الخلافات لم تكن يوماً ما في جوهرها تدور حول قضايا أساسية بالنسبة لمصالح الشعب اذ انما لم تتعد في حقيقتها التناحر والتنافس بين الملك والوفد على الاستئثار بالسلطة والسلطان ، اما الشعب العربي في القطر المصري فكانت غريباً عنها ، غير ان رغبته الغامضة في الاصلاح وقناعته بان النظام القائم هو المسؤول الاول عما يلحقه من مظالم وتفهمه السطحي لموقف حزب الوفد من الملك ، كل هذه الامور جعلت الشعب العربي في مصر يرتفع عقب انتخابات حرة مجزب الوفد الى مراتب السلطان ، وذلك لكون حزب الوفد الحزب الوحيد بين الاحزاب المصرية ذي الماضي الصراعى والملك .

لقد كان بإمكان حزب الوفد ان يوفر على مصر تدخل الجيش والقوات المسلحة الاخرى لانهاء النظام القائم وذلك لو انه كان بإمكان الجناح اليساري في حزب الوفد وأعني بالجناح اليساري ، تلك الفئة الثورية من شباب مصر التي التمس لنفسها الحماية بين صفوفه - اقول لقد كان بإمكان حزب الوفد المصري ان يوفر على مصر لو أن الفئة الثورية من شبابه تولت مقاليد الامور في الحزب ، غير ان حقيقة

ما حدث كان عكس ذلك تماماً ، اذ أن الجناح اليميني في حزب الوفد ممثلاً بعائلي سراج الدين والبدر اوي وغيرهما من العائلات ، هو الذي كان حتى قيام الثورة يسيطر سيطرة تامة على حزب الوفد ومقدراته .

وبذلك غدا حزب الوفد معقلاً للرجعية وحصناً للاقطاع بالرغم من المتناقضات الطبقيّة التي كانت تكتنف تركيبه الاسامي .

أما الفئة الثورية في سورية ، تلك الفئة التي أخذت تتبلور شيئاً فشيئاً عقب الاستقلال ، فإنها ونظراً لروح التسامح التي كانت تطغي على النظام السياسي القائم في سورية آنذاك لم تكن بحاجة الى الناس الحماية لدى الهيئة الحاكمة او الهيئة المعارضة للحكم ، ولذلك لم تدخل ، او بالاحرى لم تضطر الى الدخول ، في مساومات او مهادنات وبالتالي لم تصب بكبت عقائدي ، بل انها تابعت نشاطها في هدم مفهوم النظام القائم وتطوير جوهره تطويراً وان جاءت خطواته احياناً متخبطة ، واخرى متعثرة ؛ غير ان ارادة الحياة في الشعب كانت تصحح سيرها وترشدّها وتلهمها يوماً بعد آخر خبرة وحساً سليماً .

فاذا اضمنا الى الحقائق الواردة اعلاه حقيقة جوهرية اخرى وهي ان الفرد العربي في سورية ، ونتيجة لمختلف العوامل التي كونت نفسيته وفعلت في مشاعره جعلته يتمتع بفردية اشد بروزاً من فردية اخيه العربي في مصر ، وبالتالي اضفت عليه هذه الفردية روح المغامرة والثورة على الانظمة السياسية والاجتماعية وجعلته اسرع تفاعلاً والاحداث . ولذلك كانت الحركة العربية تلقى لها ابداً ودوماً استجابة اعمق من تلك التي كانت تلقاها في مصر ، اضع الى ذلك ان الاستعمار من تركي وعربي لم يتمكن بالرغم من حيث محاولات ان يعزل الشعور العام في سورية عن الشعور العربي العام ، ففشلت حركة السوريين القوميين في العهد الحديث ، كما فشلت كل حركة أرادت ان تقنع العرب في سورية بان مصيرهم غير مرتبط بمصير اخوانهم العرب في مختلف اقطارهم ، والحق ان الانظمة

السياسية في مصر كانت حتى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ قد حققت بعض النجاح في فصل الشعب العربي في القطر المصري وعزله عن بقية اجزاء الامة العربية في الاقطار الاخرى ، فنمت الحركة الفرعونية وتضخم عدد القائلين بمصر للمصريين حتى جاء عبد الناصر ورفاقه واكتشفوا الحقيقة الازلية الابدية بان الشعب في القطر المصري هو جزء من الامة العربية . ينفع كل معها ويتفاعل ، تربطه بالعروبة والعرب اواصر لا انفكك لها و انقسام ، يشترك وبقية اجزاء الامة العربية في مصير واحد ويسير وايها الى هدف مشترك ، ينظم تعامل العرب في مصر وبقية اخوانهم المساواة التامة الكاملة في الحقوق والواجبات .

فاذا اضعنا الى تلك العوامل عاملاً أساسياً وهو ان سيطرة قبضة الاستعباد الاجتماعي في مصر كانت تضرب جماهير العرب بقسوة وعنف لم تشهد لها سورية في كل حقبات تاريخها مثيلاً ، استطعنا عندئذ ان نتبين الفوارق في العوامل التي جعلت الفردية العربية في سورية اشد بروزاً واكثر قابلية للالتهاب والثورة على المظالم منها في مصر .

انني لا انحرف عن الموضوع - موضوع الفارق بين الثورة والانقلاب - اذ اتطرق الى حقيقة بارزة شاهدها وما زلنا نشاهدها في تركيباتنا الاجتماعية القائمة في معظم الاقطار العربية ، واعني بهذه الحقيقة المظالم الاجتماعية التي شيد عليها الاستعمار التركي المجتمعات العربية ، ومن ثم جاء من بعده الاستعمار الغربي ليدعمها ويزيد فيها قسوة وحيفاً وجوراً .

فعقب انحلال الامبراطورية الاسلامية او بالاحرى جامعة الشعوب الاسلامية ، وعقب ان تمكن الاتراك من السيطرة على البلاد العربية واستعمارها ، ادرك المستعمرون من العثمانيين ان لاسبيل الى بقاء نفوذهم في دنيا العرب ولا سبيل الى اخضاع العرب الى حكمهم وسلطانهم الا باستعباد العرب استعباداً اجتماعياً ينزل بالعرب افدح المظالم واشدها اهداراً للكرامة الانسانية ، وقد ادرك العثمانيون ان تحقيق

هذه الغاية لا يتم الا اذا تحكمت فئة قليلة وغربية عن العرب بأسباب الوجود
المادي للجماهير العربية ، فكان ان اقدم العثمانيون على استيراد الدخلاء الغرباء عن
العروبة والعرب الى البلاد العربية واقطعوا الاقطاعات الواسعة واباحوا لهم
حرية التصرف ، فكان هؤلاء الاقطاعيون لا يتصرفون وينهبون ويسرقون اتعاب
ومجهودات الجماهير العربية التي اقتطعت لكبار الملاك مع اقطاعياتهم فقط ، بل
ان هؤلاء المجرمين كثير ما كانوا يمتنون الكرامات ، ويزدرون كل المقدسات
الانسانية ، لقد عاش اولئك المجرمون مخالب للاستعمار وركائز لسلطانه .

والمصدق بانساب كبار الملاك في معظم البلاد العربية ليدرك ان معظمهم ،
ان لم يكن جميعهم ، غرباء دخلاء على العرب والعروبة .

وهنا أيضا توجب علي الامانة والصدق أن أنطرق الى بحث الفوارق في سلوك
طبقتي الملاك في كل من مصر وسورية ، ان طبقة الملاك في مصر عاشت ابدأ
غريبة عن الشعب في أحاسيسه الوطنية وذلك في حقل التحرر السياسي ، وموقف
هذه الطبقة من حركة أحمد عرابي خير مصداق لما أوردته . وهي لم تنضم الى العمل
السياسي في حزب الوفد المصري الا لتعطل نشاطاته وتلجمه او بالاحرى لتمنعه
من ولوج مجالات الاصلاح الاقتصادي ، وهي أيضاً لم تنفعل ونشاطات التحرر
السياسي الا عندما وجدت ان هذه النشاطات ستكون لها نتائج ايجابية وان من
صالحها ان تساند هذه النشاطات وتغذيها ، وان عليها احيانا ان تندمج فيها بغية
المحافظة على الطابع الارستقراطي لنظام الحكم القائم ، ولذلك فنحن اذا دققنا النظر
بالزعماء الحقيقيين الذين قادوا حركات التحرر السياسي في مصر لوجدنا غالبيتهم اما
من ابناء طبقة الفلاحين او ابناء الطبقة الوسطى - احمد عرابي - سعد زغلول -
مصطفى النحاس - غير انه من المؤسف ان حزب الوفد المصري لم يستطع طيلة مراحل
حياته ان يحافظ على مغزى الصراع الجماهيري وان يخطو بغيره الى مفهوم القضاء
على الاستعباد الاجتماعي ، فكان الطلب الاول لمصطفى النحاس الذي جاء الى
الحكم آخر مرة وعقب انتخابات ثورية اشعرت فاروق واشعرت النظام القائم

آنذاك بدنو أجله ، أقول كان المطلب الاول لمصطفى النحاس من الملك فاروق
السماح له بتقيل يدي « ولي الأمر » ، وهذه الحادثة وان خالها البعض ملقاً
ومتلقاً من رئيس منتخب من أغلبية ساحقة من الشعب العربي في القطر المصري ،
انما تدل في جوهرها على الانحلال النهائي الذي بلغه حزب الوفد ، هذا
الانحلال الذي لم يجعله فقط خادماً للاقطاع بل جزءاً اساسياً منه ، لقد كان
بامكان مصطفى النحاس وعقب تلك الانتخابات الثورية ان يفرض على الملك
ارادة الشعب في التحرر والاصلاح ، وكان فاروق خائفاً هلعاً ومستعداً للاستجابة
للمطالب الشعبية ، لكن أننا لحزب الوفد ان يفعل ذلك ، وهو كحزب قد
استسلم استسلاماً مطلقاً للاقطاع والرجعية .

وهنا وقبل ان استوغل في بحثي اود ان اقرر حقيقة او من بها وأدين بما
تنص عليه من عقيدة ومبدأ ، وهي انني كعربي ، حينما بحثت موقف الدخلاء
على العرب والعروبة من قضايا جماهير الامة العربية ، هؤلاء الدخلاء المتمثلين بطبقة كبار
الملاك ، فانما تطرقت الى بحث هذا الموضوع مدفوعاً فقط بتقرير حقيقة تاريخية كان
لها بالغ الأثر على التركيب الاجتماعي في معظم البلاد العربية ، والله يشهد انني
آخر من يؤمن بالتفرقة العنصرية وآخر من يريد للقومية العربية ان تغدو
قومية عدوانية تؤمن بتفوق العنصر او الجنس . وأنا لا استطيع ان انكر او
اتنكر لبعض القوميات التي اندجت في القومية العربية وأخلصت لقضايا العرب
وخط أبنائها وأبناء العروبة تاريخاً متألماً بجلال الاعمال مشرقاً بانصعها انسانية
واغزرها حباً للخير والجنس البشري ، كاخواننا الاكراد مثلاً . هذه حقيقة
لا بد من تقريرها وذلك كي لا أنهم بانني أرى الانسانية تنتهي عند حدود
العالم العربي .

اذا أضفنا الى جميع هذه العوامل الآتفة الذكر عوامل التطور الاقتصادي
الهائل الذي شاهده سورية عقب الحرب العالمية الثانية وقابلنا هذا التقدم
وانعكاساته على المجتمع العربي في القطر السوري بالتطور البطيء نسبياً للاقتصاد

المصري ، او بالاحرى بقلة المردود الذي عاد على جماهير العرب في مصر نتيجة
لذلك التطور ، لادر كئنا آنذاك الاسباب التي جعلت الثورة محتومة في مصر وجعلت
الانقلابات العسكرية في سورية تعطي النتائج ذاتها من حيث الوعي والادراك الثوريين
في كل من القطرين العربيين ، ومن ثم جعلت بالتالي للثورة في مصر زعماء يوجهونها
ويقودون الجماهير على الطريق الثوري المحتوم ويفرضون ارادة الثورة فرضاً بينما
حرمت الشعب في القطر السوري من مثل هذه الظاهرة - ظاهرة الثورة
ذات الزعامة - .

واول هذه العوامل كون امكانات التقدم الاقتصادي وبالتالي التطور الاجتماعي
في القطر العربي السوري اكثر غزارة واشد دفقا واقل نفقة . وهنا ارى من المفيد
ان اعود فأنقل مقالا كنت قد كتبه في جريدة « النضال » المحتجة بتاريخ ٣
حزيران عام ١٩٥٦ وفي العدد رقم ٣٤١٥ .

وانني لاستميتح القراء الكرام عذراً اذا ورد في هذا المقال تكرار لبعض
الحقائق التي كنت قد ذكرتها في صفحات سابقة من هذا الكتاب . قلت آنذاك
مايلي : يتساءل الكثيرون عن الاسباب التي ادت الى نجاح الثورة في مصر
وفشل الانقلابات العسكرية في سورية ، (هذا الفشل المتمثل بالانقلاب على كل
انقلاب) ويحاول هؤلاء ان يردوا هذه الاسباب الى كون الشعب العربي في
اقليم مصر اعمق رغبة في التطور والاصلاح من شقيقه في سورية . غير ان هذا القول
يتنافى وجميع القوانين التاريخية ويتعارض وابسط بديهيات سنن التطور والنشوء ،
هذه السنن التي تنبع من اعماق الرغبات الشعبية في حياة كريمة وفي مجتمع سعيد
يكفل الانسان من المهد الى اللحد ويقضي على الشبح الذي مازال يروع الانسانية
ويقض مضجعها منذ الفجر الانساني الاول حتى يومنا هذا ، واعني بهذا الشبح
شبح الخوف من الغد .

وهذه الرغبات الشعبية تستحيل يوما بعد آخر الى ارادة ، ارادة اذا ضاقت
بها القيود الاجتماعية والاقتصادية ، ووقفت في طريقها اثره طبقية ، وسدت

السبل امامها انظمة سياسية اوجدت لحماية القيود الاجتماعية والاقتصادية ووقوفت نشاطاتها على حماية الاثرة الطبقيّة عندئذ تتسلح هذه الارادة بسواعد الشعب الفولاذية لتحطم جميع العقبات الآنفة الذكر ولتكنسها من طريقها بمكنسة الحياة .

وهذه العملية يطلق عليها التاريخ والمؤرخون اسم الثورة ، وهي احيانا ينجزها الشعب واخرى يقوم بها الجيش باسم الشعب ، ولهذا فان الثورة الشعبية او الثورة الشعبية ذات الطابع العسكري لاتقف عند حدود السلطة القائمة بل تتعدى هذه الحدود الى تحطيم الانظمة الاقتصادية والاجتماعية ، هذه الانظمة التي كانت في مصر تشد الشعب الى نظام اقطاعي جائر استنزف اسباب بقائه ؛ لذلك فان اللطمة الاولى التي اكسبت الحركة العسكرية في مصر مزايا الثورة وأضفت كل صفات الثورة عليها كانت متمثلة بقانون اصلاح الزراعي ، هذا القانون الذي انهى عهد الاقطاع في مصر .

أما فيما يتعلق بانهاء التنظيم الرأسمالي للاقتصاد المصري في وجهتيه الصناعية والتجارية فان جمال عبد الناصر ورفاقه لو أقدموا على مثل هذه الفعل لكانت عندئذ الثورة قد انحدرت انحداراً مروعاً الى مرتبة الانكسارية فالفوضوية ومن ثم العدمية . وذلك للأسباب الآتية :

أ - كون الرأسمالية المصرية لاتزال في الطور الجنيني .

ب - كون الجهود الفردية لاتزال ضرورة ملحة ولازمة لتطوير رأس المال القومي وزيادة فعالياته .

ج - كون المجتمع المصري ملزماً بالمرور في مرحلة الرأسمالية في طريقة الى الاشتراكية والعدالة الاجتماعية .

د - كون الادارة الفردية للمشروعات الاقتصادية قد اثبتت انها اكثر فعالية وحيوية ومن ثم اغزر انتاجاً من الادارة الحكومية .

هـ - كون الحكومة المصرية وكل الحكومات العربية وحتى حكومات بلدان الشرق الاوسط لاتزال تفتقر الى الجهاز او الاجهزة الادارية والفنية التي تمكن تلك

الحكومات من ادارة المشروعات الفردية ادارة جماعية .

و - كون الانماء الاقتصادي في منطقة الشرق الاوسط بمسئس الحاجة الى التعاون المتخلص بين المجهودات العامة والمجهودات الفردية واتخاذ اجراءات ذات طابع « توليتاري » مما يؤدي حتماً الى انكماش المجهودات الفردية .

ز - كون العقلية والتربية الاقتصادية لمعظم الشعوب العربية وشعوب منطقة الشرق الاوسط لاتزالان حتى اليوم في مرحلة بدائية وذلك فيما يتعلق بالمشروعات الاقتصادية الواسعة .

ح - كون ثقة الافراد لاتزال حتى الآن مزعزعة بالمشروعات العامة وحتى الخاصة ايضاً ولذلك لاتزال تعتبر المساهمة في المشروعات الاقتصادية من عامة وخاصة مغامرة اكثر منها عملية اقتصادية مضمونة الربح .

ط - كون منطقة الشرق الاوسط عامة والبلاد العربية خاصة بمسئس الحاجة الى رساميل اجنبية تنشط في المجالات الاقتصادية العربية بغية الاسراع في السير على طريق الاشتراكية والعدالة الاجتماعية .

هذه الاسباب مجتمعة ومنفردة حالت وتحول حتى الآن دون اتخاذ اجراءات ذات طابع توليتاري بالنسبة للاقتصاد الصناعي وسياسة التصنيع في مصر والبلاد العربية ومنطقة الشرق الاوسط .

ولو ان حكومة الثورة في مصر لم تراعي هذه العوامل بل انها اندفعت وراء النظريين والمثاليين فضربت بالعنف ذاتها الرأسمالية كما ضربت الاقطاع لانحدرت آنذاك حكومة الثورة بالثورة من حيث هي حركة بناءة الى صيرورتها حركة طوباوية انكارية عدمية ، وكان مصير الثورة في مصر مشابهاً تماماً لمصير « كومون باريس » ، وكانت حكومة الثورة حتى ولو اختزنت صدور رجالها كل ماهنالك من نوايا طيبة قد عاشت منفصلة عن جميع الطبقات الشعبية وذلك لتنكرها للقوانين الحديدية التي تسير وتوجه جميع عمليات التطور .

وهنا قد يتساءل القاري ايضاً عما اذا كان هناك من الاسباب ما يخطيء حكومة

الثورة في مصر بضرب الاقطاع تلك الضربة القاصمة .

وعلى هذا اجيب بان ضرب الاقطاع وانهاء عهوده في مصر كان ضرورة تاريخية وملزمة أساسية من ملزمات التقدم والتطور ، وذلك لان بقاء الملكية الواسعة مع تزايد السكان المطرد والضييق الخناق في الرفعة المنزوعة من القطر المصري ، كل هذه الامور كانت تشكل مظالم اجتماعية غدا من الواجب ازالتها ورفعها عن كاهل جماهير الشعب العربي في مصر بضرب الاقطاع وانهاء عهوده . وهنا قد يتساءل القاري ايضاً عما اذا لم يكن بالامكان الحفاظ على الملكية الواسعة عن طريق تهجير السكان الى مناطق زراعية أخرى والاستعانة بالزراعة الميكانيكية لاستثمار الاراضي التي رحل سكانها ، وهذا العمل لو تم كما يخيّل للقاري لازدادت فعاليات الاقتصاد الزراعي والاقتصاد العام للدولة .

وهنا ايضاً اجيب بان هذا الامر لم يكن بالامكان ايضاً وذلك للأسباب الآتية :
أ - كون الاراضي المنزوعة في مصر لا تزيد مساحتها عن ٢٤ مليون دونم .
ب - كون عمليات استصلاح الاراضي في مصر عمليات باهظة التكاليف وغير تجارية (مديرية التحرير) فتكاليف استصلاح الفدان الواحد (٢,٤ دونم) تتجاوز الالف والخمسمائة ليرة سورية .

ج - كون طبقة معينة - طبقة الاقطاع - وعدد افرادها لا يتجاوز الخمسين الف نسمة تملك وحدها ثلث الاراضي المنزوعة (٨ ملايين دونم) .

د - كون تفتيت الملكية الواسعة بما يساعد مؤقتاً وفقط مؤقتاً على ارتفاع المستوى المعاشي لفئة معينة من طبقة الفلاحين ، غير انه يحرق الفلاحين جميعاً من ربة الاقطاع السيامي .

هـ - كون ضرب الاقطاع في مصر بما يساعد على تهذيب الرأسمالية الناشئة ويشعرها بان هناك يداً هائلة القوى تدير الادارة وتخطط المناهج بما يتفق والصالح العام للشعب .

هـ - كون المزايد الزراعية او بالاحرى جزء ضخم منها كان ينتقل من

الريف الى المدينة وهذا مما كان يؤدي الى تمدن مستمر في المستوى المعاشي للفلاحين وكان يزيد في بأساء هذا التدني تكاثر مخيف في النسل بين الفلاحين . من هذا يتضح لنا بان الثورة على الاقطاع كانت قدراً تاريخياً محتوماً .

والآن قد يتساءل القاريء ولكن هل لو اتخذت الانقلابات في سورية الاجراءات التي اتخذتها الثورة في مصر فهل يمكن لهذه الانقلابات ان تكتسب مزايا الثورة وصفاتها ؟ (وذلك في الريف -)

وهنا أجيب ايضاً اجابة قد يدعش منها القاريء وأقول : كلا والف كلا، وذلك لان الظروف الاقتصادية وبالتالي الاجتماعية تختلف في الكثير من وجوها عن ظروف مصر بدليل :

أ - الاراضي المنزرعة في سورية تعادل مساحتها ٣٥ مليوناً من الدونمات (مصر ٢٤) ب - الاراضي المنزرعة في مصر تزرع جميعها كل عام أما في سورية فان الاراضي التي تتروك « بورا » تقارب عشرة ملايين دونم .

ج - كثافة السكان في الريف المصري كثافة خيالية أما في سورية فان الريف بحاجة الى سكان .

د - الاراضي القابلة للاستصلاح السريع في سورية تقارب مساحتها الاربعين مليون دونم وهنا يتوجب على الدولة القيام بعمليات تهجير السكان بغية اقامة توازن ديمغرافي .

هـ - الرساميل العاملة في الزراعة في سورية تهاجر من المدينة الى الريف بينما يهاجر جزء كبير من الرساميل من الريف الى المدينة في مصر .

و - الزراعة الواسعة في سورية زراعة رأسمالية بكل ما لهذه الكلمة من معنى ومفهوم بينما ان الزراعة الرأسمالية في مصر والزراعة الواسعة تكاد تكون معدومة .

ز - قام الفرد في سورية او بالاحرى المجهودات الفردية عقب الحرب العالمية الثانية باستصلاح مساحة من الارض تزيد على ١٢ مليون دونم منها ١,٥ مليون دونم « سقي » .

أضف الى ذلك ان الريف السوري شاهد ثورة في التقدم والتطور الزراعيين وقد انعكست نتائج هذه الثورة على جميع نواحي الحياة العامة من اقتصادية واجتماعية بدليل :

الانتاج من القمح كان عام ١٩٤٩ ٣٠٦٠١١ طناً فاصبح عام ١٩٥٣ ٧٨٠٠٠٠ طناً ؛ أما الشعير فكان عام ٤٩ ، ٦٦٢٦١ طناً فقفز عام ١٩٥٣ الى ٤٧٢٤٥٧ طناً ؛ أما القطن فكان عام ١٩٤٩ ، ٣٤٨٢١ طناً فقفز عام ١٩٥٣ الى ١٣٢٨٥٩ وبلغ عام ١٩٥٥ مبلغاً قدره ٢٣٥٣٣٨ .

أما الميزان التجاري وأثر هذه الثورة عليه فكان كما يلي :

الصادرات	(بملايين الليرات السورية)	الواردات	العجز
عام ١٩٥١ : ٢٩٢		٤١٨	١٢٦
عام ١٩٥٣ : ٤٠٨		٤٨٤	٧٦

أما أثر هذه الثورة على العمليات المصرفية فكان كما يلي :

بلغ مقدار عمليات الحسم والقروض والسلف مبلغاً قدره ١١٥,١ مليون ليرة سورية وذلك عام ١٩٥١ وقفز هذا الرقم الى ٣٥٤,٦ مليون ليرة سورية عام ١٩٥٦

كانت الرساميل العاملة في المصارف عام ١٩٥١ تقدر بـ ٢٥,٩ مليون ليرة سورية وقفز هذا الرقم عام ١٩٥٤ الى ٩٤,٦ مليون ليرة سورية .

أما الموازنات العامة فكان اثر هذه الثورة عليها كما يلي :

كانت واردات الموازنة العامة لعام ١٩٥٠ تقدر بـ ١٤٣٤٩٦٨١٠ ليرة سورية وقفز هذا الرقم عام ١٩٥٦ الى ٣٢٤٠٥٤٠٠٠ ليرة سورية . أما اثر هذه الثورة على الحياة الثقافية في سورية فكان على هذا الوجه

بلغ عدد الطلاب الذين نالوا شهادة البكالوريا عام ١٩٤٥ ٣٧٥ طالباً وقفز هذا الرقم الى ١٠٥٩ طالباً عام ١٩٥٤ ؛ أما الكفاءة فكان عددهم عام ١٩٤٥ يبلغ ٨١٠ طالباً وقفز عام ١٩٥٤ الى ٤٠٩٥ طالباً ؛ وأما الابتدائية فكان عام ١٩٤٥ ٤٠١١

وقفز عام ١٩٥٤ الى ١٨٨٨٥ طالبا .

بما ورد يتضح ان سورية قد استطاعت عقب الاستقلال ان تحقق قفزات رائعة وان تخطو خطوات عملاق في حقلي التقدم الاقتصادي والاجتماعي ، وهذا مايعني بصورة مباشرة وصرحة ان الاسس التي كان يرتكز عليها النظام العام في سورية كانت أسساً سليمة من حيث الجوهر ، لذلك فان الانقلابات العسكرية التي حدثت في سورية لم تكن لها من نتائج ايجابية في دفع موكب التطور سوى من حيث انها قد حررت الشعب السوري من اقطاع سياسي يتمثل في عائلية طاغية وقبلية زمنية ، وهذا التحرر بالغ الاهمية اذ انه خلق وعيا شعبيا ويمكن للجماهير من ان تمارس فعليا سلطتها في توجيه سياستها وتقرير مصيرها دون النظر الى اية اعتبارات لمصالح طبقة ارسقراطية كان ابناءؤها يتوارثون الهيمنة والسلطان على مصائر الشعب ابناً عن اب واباً عن جد .

كما وان الانقلابات العسكرية قد فتحت اعين الشعب على حقيقة هائلة وهي ان الدولة تملك قوة مثلة في الجيش وقواتها المسلحة ، وان هذه القوة من الضخامة والجهوت بحيث انه بإمكانها فيما لو احسن توجيهها ان تسحق كل عنصر او عامل او مجموعة من العناصر او العوامل تقف في طريق الشعب الراغب في التحرر اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا . ولكن ومن المؤسف المؤلم ان قادة الانقلابات العسكرية في سورية ، متأثرين بالعوامل الشخصية وبالاطماع الذاتية وبالانانيات الفردية او الحزبية ، اساءوا فيما مضى استعمال هذه القوة ، فبدلاً من ان يوجهوها لخدمة اغراض الشعب وخدمة مصالحه حاولوا توجيهها لخدمة اغراضهم الشخصية ومصالحهم الذاتية ؛ فارتفع حسني الزعيم الى منصب رئاسة الجمهورية وحذا اديب الشيشكلي حذوه واخذ هذان القائدان يوجهان هذه القوة الضارية لمصادرة الحريات وتكليم الافواه واعتقال شباب الطليعة من المفكرين وقادة الرأي ، ولما كان الجيش العربي في سورية في جوهره جيشاً وطنياً يتحسس بالام الشعب ويتبنى آماله ، لذلك انقلب الجيش على قادة الانقلابات السابقين ووضع لطفانيهم حداً مفجعاً

محزنا وحزيناً .

والسبب في ذلك ان سورية كانت قد حققت كل اغراضها الثورية في الحقل الداخلي ، فهي كانت تتطور بسرعة مذهلة وتقفز في مجالات التقدم قفزاً ، والشعب بلغ درجة جد رفيعة في وعي ذاته ووعي وجوده ووعي مقاصده ، لذلك كانت الاجراءات الاستثنائية التي اتخذها قادة الانقلاب اجراءات شاذة وسبب شذوذها يعود اولا واخيراً الى كونها غير ضرورية ابداً وغير مجدية لانقضاء كل اسباب جدواها ولانعدام كل مبرر لها ، وهذا ماضى على الانقلابات العسكرية في سورية الطابع الشخصي والاثرة الفردية ، وذلك لان الانقلابات العسكرية التي جرت في سورية حققت كل اغراضها منذ الانقلاب الاول الذي قام به حسني الزعيم وذلك في الحقل الداخلي ، اذ ان الانقلاب الاول لم يأت فيحسب على الروح الطبقية التي كانت تسيّر الحكم في سورية حتى فجر الثلاثين من آذار عام ١٩٤٩ بل انه اتى ايضا على الشعور الغامض من الاحترام والرهبة الذي توحيه الطبقة الحاكمة ذات الطابع الارستقراطي آنذاك ، وبهذا استرد الشعب ثقته بذاته وغدا اكثر شجاعة واندفاعاً في الاستجابة لمشاعره الاصابة في ثورتها . لذلك فان جميع الانقلابات التي حدثت عقب انقلاب حسني الزعيم كانت ، اذا ضربنا صفحا عن العوامل الخارجية انقلابات ، مفتعلة في انعكاساتها على الشؤون الداخلية ، هذه الشؤون المتعلقة بمؤسساتنا الديمقراطية وبنظامنا الديمقراطي الذي استطعنا في ظله ان نحقق المعجزات في حقلي الوعي والتقدم الثوريين . فلقد كان باستطاعة الجيش ان يرقب السياسة الخارجية بدقة وحذر وان يمنع اية محاولة من شأنها ان تنحرف بالسياسة الخارجية عن مقاصدنا واهدافنا القومية والانسانية ، وذلك دون اللجوء الى رفع حسني الزعيم او اديب الشيشكلي الى منصب الرئاسة الاولى في الدولة .

والجيش له الحق كل الحق في ان يكون مسموع الكلمة حين تخطيط السياسة الخارجية ، وذلك نظراً للارتباطات الوثيقة والوثيقة جداً بين السياستين

الخارجية والدفاعية ، والجيش العربي في سورية يجب عليه في المستقبل ان يقف في وجه كل محاولة يقوم بها قائد عسكري او مجموعة من القادة العسكريين او هيئة او جماعة او حزب بحيث يكون من نتائج تلك المحاولة تسخير الجيش لتنفيذ اغراض شخصية او حزبية ، اذ ان الواجب القومي يفرض على كل مواطن مخلص لوطنه ان يسعى جاهداً للاحتفاظ وتنمية كفاءاتنا العسكرية الممثلة في الجيش والطريق الاوحد لتحقيق هذه الغاية هو العمل المخلص لوجه الله والوطن ، لتدعيم الوحدة بين صفوف الجيش ، وهذه الغاية القومية ان تتحقق اذا سمحنا للاشخاص او الهيئات او الجماعات السياسية بان تجد لها مرتعاً خصباً لتجنيد الانصار من بين صفوف الجيش . لهذا يغدو الواجب الاساسي للثوريين العرب الاصلاء ان يعملوا وخاصة في سورية ونظراً لظروفها الخاصة والفريدة في نوعها ، اقول يتوجب على الثوريين العرب الاصلاء المزودين بالعتيدة الصابرة المكافحة ان يحافظوا على الارادة الدفاعية للشعب موحدة في الجيش وان يتعدوا عن كل عمل من شأنه ان يؤدي مباشرة او غير مباشرة الى توزيع الارادة الدفاعية العامة للشعب ، فالانقلابات العسكرية الاخيرة قد علمتنا وعلمت جميع الاحزاب والجماعات في سورية ان الجيش لا يمكن ان يكون ملكاً لفرد او جماعة او هيئة او حزب ، اذ ان الشعور الاصيل الذي يسيطر على جميع افرادة هو انه ملك للقومية العربية في كل اقطارها وملاك للعرب في جميع طبقاتهم .

انني عندما الح على ابعاد الحزبية والتشيع عن صفوف الجيش فانما اقوم بهذا العمل مدفوعاً بغايتين اساسيتين :

الاولى : الحفاظ على وحدة الارادة الدفاعية العامة للشعب

الثانية : ضرورة الانتقال بالوعي السياسي بين الجماهير الى مرحلة التنظيم الثوري لكتل الجماهير في احزاب سياسية تنمي الوعي السياسي في نفوس الجماهير وتغذي هذا الوعي بلبان الثورة وتحضر للدولة المناهـج والبرامج ومن

ثم تخرج للدولة رجال الادارة والحكم .

وهذه الغاية لن تتحقق اذا حاول فرد او جماعة او حزب ان يقحم الجيش في السياسة ، وذلك لان مثل هذا الاقحام وما يرافقه وينتج عنه من اجراءات ذات طابع « توتليتاري » بما يردم المنابع التي تغذي النظام الديمقراطي ، هذا النظام الذي يمثل الهدف النهائي لثورة القومية العربية وبالتالي يؤخر تطورنا ويعطل ركبنا المنطلق على سبيل الحضارة الانسانية ، كما وانه يقتل الابداء في الفرد وينسف الاسس الاخلاقية للنظام الديمقراطي . والاستفتاء الذي اجراه اديب الشيشكلي على دستوره ، والاصوات التي نالها اديب الشيشكلي وحسني الزعيم حينما انتخبا لمنصب رئاسة الجمهورية ، تدلنا على مدى الانهيار الاخلاقي الذي لحق بنظام الادارة آنذاك .

والخط المستقيم لا يبدأ معوجاً ثم يستقيم بل انه يبدأ مستقيماً ويبقى مستقيماً ان المهمة التاريخية التي القيت على عاتق الثوريين العرب الاصلاء في هذه الحقبة تتلخص في ارساء قواعد وركائز واسس من الحق في اطلاقه والعدالة في شمولها لمجتمع الفرد فيه كريم خير وسعيد ، وهذه المهمة تلزم الثوريين العرب الاصلاء ان يسيروا في كل خطوة يخطونها على هدى الامور الآتية :

١ - الوجود القومي المصلح .

ب - الوجود الانساني المصلح .

ج - الايمان العميق والمطلق بان الحقوق خاصات يملكها الافراد بحكم انسانياتهم وهي لهذا ليست مجرد مطالب يمكن للدولة ان تعترف بها او لا تعترف .
د - الايمان العميق بان حقوق المواطنين ليست نتاج القانون ، بل ان القانون هو نتاجها ومهمته ان ينظمها ويوجهها الوجهة التي تؤمن لها التفاعل الايجابي والانسجام ومن ثم التدرج بها في سلم الاكتمال والكمال .

وهذه النقاط الاساسية الاربعة لا توجد ولن توجد الا في النظام الديمقراطي ، هذا النظام الذي يقوم على حرية الرأي في المناقشة وعلى التنافس في خدمة

الصالح العام

بما ورد يتبين ان المهمة الاساسية الملقاة على عاتق الثوريين العرب في هذه المرحلة هي، بالاضافة الى مهمتي التحرر والوحدة ، اقول هي ارساء قواعد ثابتة لنظام ديموقراطي في حقول الاقتصاد والاجتماع والسياسة ، وهذه المهمة غير قابلة التحقيق اذا لم يتمكن الثوريون العرب الاصلاح من الفصل بين السلطات الثلاث اولا وتكريس جهود كل مؤسسة من مؤسساتنا لتحقيق الاغراض الحقيقية التي اوجدت من اجلها ، واهم هذه المؤسسات لابل اقدسها هي الجيش . ولقد ادرك الرئيس عبد الناصر هذه الحقيقة ولذلك اوجب على كل ضابط يريد ان يعمل في السياسة وان يرشح نفسه عضواً في مجلس الامة المصري الاستقالة من الجيش ، وهذا العمل جد حكيم اذ انه يؤدي الى تكريس جميع افراد الجيش كل جهودهم لشؤون التدريب واكتساب الخبرة والمهارة العسكريتين .

وقد يقول قائل غير ان عبد الناصر قد أنشأ ما يعرف بالاتحاد القومي ، وهذا الاتحاد هو بمثابة الاخذ بسياسة الحزب الواحد ، وهذه الحقيقة كما قد يسترسل القاريء فيستنزع مما تتعارض وروح النظام الديمقراطي الذي قلت انه هو الهدف النهائي لثورة القومية العربية ، وهنا ايضاً قد يستطرد القاريء فيسألني عما اذا كنت انصح باتباع نفس الطريق في سورية ، هذا الطريق الذي افضى بعبد الناصر الى انشاء ما يعرف بالاتحاد القومي الآن ؟

اني اجيب على هذا بلا ولا ولا ، وذلك نظراً لاختلاف الاسباب والعوامل الاجتماعية والسياسية في مصر عنها في سورية ، وهذا الاختلاف يتمثل بالامور الآتية :

أ - ان احزاب الاقطاع والرجعية في مصر كانت بحاجة الى ان تسحق وتدمر وتستأصل جذورها كي تتوارى عن مسرح الوجود السياسي .

ب - ان احزاب الاقطاع والرجعية في سورية ماتت معظم القوى فيها نتيجة للتطور والوعي الشعبين وما بقي منها لا يمثل الا فلولاً وشراذم هي في

طريقها اما الى الموت او الى الثورة على نفسها لتنسجم والثورة في القطر السوري .
ج - ان القوى الثورية الشعبية في مصر كانت تكاد تكون معدومة الاثر في الحياة السياسية في القطر المصري ، ومعظمها كما قلت في موضع آخر من هذا الكتاب التمسست الحماية في صفوف حزب الوفد واندمجت فيه .

د - ان القوى الثورية الشعبية في سورية كانت بالغة الاثر في الحياة السياسية في القطر السوري ومعظمها عاش بمعزل عن التعاون والنظام ذي الطابع الارستقراطي الذي كان يهيمن على مقاليد الامور حتى فجر الثلاثين من آذار عام ١٩٤٩ .

هـ - ان القوى الرجعية في مصر كانت منتظمة في أحزاب منتظمة وذات أجهزة واسعة الاثر والنفوذ لذلك بقيت هذه القوى متمسكة وفعالة في الميدان السياسي وسدت السبل على قوى جديدة كانت تتطلع الوصول الى الحكم .

و - ان القوى الرجعية في سورية لم تكن في معظمها منتظمة في أحزاب وبالتالي لم تكن متمسكة موحدة الاهداف في الجزئيات كما هي موحدة الاهداف في الكليات ، وذلك بدليل ان البرلمانات التي شاهدها سورية منذ فجر الاستقلال حتى يومنا هذا كان معظم اعضائها من المستقلين وغير الحزبيين ، وهذا بما يسر لقوى جديدة الوصول الى الندوة التشريعية - اكتساح البعثيين لمقاعد حماة النيابية - انتخاب احمد الحاج يونس نائباً عن حمص وانتخاب رياض المالكي نائباً عن دمشق وأخيراً انتخاب كمال كلاليب نائباً عن حمص ايضاً وهزيمة الاقطاع والرجعية أمام هذه العناصر التي تطغى عليها الصفات التقدمية .

ومع أن القوى التقدمية في القطر السوري لم تبلغ بعد من الاكتمال ما يمكنها من ملأ الفراغ الناشيء عن احتضار الاقطاع السياسي والرجعية في سورية ، غير أن هذه الحقيقة لا تبرر أبداً عدم اتاحة الفرص اللازمة وعن طريق التطور الطبيعي الوثاب في سورية لهذه القوى ، لاكتمال نموها في جو داخلي هادي مطمئن وذلك لان من اهم أهداف الثوريين العرب الاصلاح هو اتاحة الفرص

كل الفرص للامة العربية لتجارس حكم نفسها عن طريق احزاب واضحة المناهج محدودة الاهداف معروفة المقاصد ، وهذا الامر يقتضينا بـل ويلزمننا ايضاً بأن لا نقحم الجيش في سورية في السياسة بغية املاء الفراغ الناشيء عن زوال المخضرمين .

يستثنى من هذه القاعدة الاساسية انحراف حكومة ما أو برلمان ما بسياستنا القومية عن أهدافها التقدمية في الداخل والانسانية في الخارج . في هذه الحالة يتوجب على الثوريين العرب الاستعانة بالجيش كهيئة ثورية لتصحيح الانحراف او لمنع وقوعه .

وهذا العمل يتوجب وقوعه في الاحوال الآتية :

- أ - في حال اقرار حكومة ما للصلح مع اسرائيل .
- ب - في حال تمنع حكومة ما او برلمان ما عن اقرار اتفاقات اقتصادية غير مشروطة ودولة أجنبية تختلف او تتفق معنا في المذاهب السياسية .
- ج - في حال الانحراف عن سياسة عدم الانحياز .
- د - في حال وقوف حكومة ما او برلمان ما موقف المعارضة من مساع قومية تستهدف تحقيق الاتحاد او الوحدة بين قطرين عربيين او اكثر ، تساويًا في درجة الاكتمال في التحرر والسيادة .
- هـ - في حال تأمر حكومة ما او برلمان ما على قضايا تحرر قطر عربي بغية جني فوائد شخصية او قطرية .

في مثل هذه الحالات فقط يحق للثوريين العرب الاستعانة بالجيش في الحقل السياسي وذلك لمنع الانحراف او لتصحيحه ، أما فيما عدا هذه الحالات فان أية محاولة تستهدف جر الجيش الى ميدان السياسة فان هذه المحاولة تعتبر محاولة تخريبية مجرمة .

الفصل الثاني

الدولة القومية والثورة

١ — ماهي الدولة القومية ؟

ارى اولاً في الدولة القومية الاداة ، التي تستعملها الشعوب العربية الموحدة المصير في الامة العربية ، حين ممارسة هذه الشعوب لسلطاتها . اما وظيفة الدولة فهي ان تقيم تعاوناً مخلصاً بين المؤسسات الرسمية والمؤسسات الشعبية ، ليعكس هذان النوعان من المؤسسات والالذان يشكلان الدولة القومية ، اقول ليعكسا وينفذا في تعاونهما ، ارادة الامة العربية ، في التحرر اولا ، وفي التقدم ثانياً وذلك كله ، بغية الاسهام في خدمة الانسان ، والاشتراك اشتراكاً فاعلاً في صيانة وتدعيم وبناء الحضارة الانسانية .

لهذا تعتبر الدولة القومية ، كما افهمها ، التنظيم والتنظيم في كل نواحيه السياسة ممثلة في الاحزاب ، والاقتصادية ممثلة في التعاون بين المشروعات العامة والمشروعات الفردية ، والاجتماعية ممثلة بالنقابات والجمعيات والنوادي .

اقول لهذا تعتبر الدولة القومية التنظيم القاعدة الرئيسية للدولة ذات النظام الشعبي جوهرأً ووجوداً .

ولهذا ايضاً قد ترى الدولة القومية ، خلال المرحلة الانتقالية ، الى التحرر والوحدة والعدل الاجتماعي ، اقول لهذا قد ترى الدولة القومية في قطر عربي ما ، دولة قومية ناقصة الصفات القومية في قطر عربي آخر ، وذلك لأن تلك الدولة الناقصة لاتعكس ولا تنفذ مؤسساتها الرسمية رغبات شعبها المتحدة والموحدة

والنابعة من ينبوع ذاته الذي تنبع منه رغبات وارادات الشعوب العربية
الاخرى ، هذه الارادات المجتمعة حول التحرر والوحدة والعدل الاجتماعي .
ولهذا ايضاً ترى الدولة القومية في الديكتاتورية عدواً لدوداً يقف في طريق
ارادتها ، لانه يهدم مبدأ التنظيم وينسفه كاساس لنظام شعبي ويحل بين البيئات
اقول البيئات لا الطبقات - الاكراه محل التراضي والوفاق .

والدولة القومية ، عندما ترى في الديكتاتورية عدواً لدوداً لها ، فانما
تفعل ذلك ، لانها تؤمن بان في قيام الديكتاتورية ، زوال مبدأ جوهرى من
مباديء وجودها ، واعني بهذا المبدأ مبدأ التعاون بين المؤسسات الرسمية
والمؤسسات الشعبية ، اذ ان التعاون بين هذين النوعين من المؤسسات في ظل
النظام الديكتاتوري امر مستحيل استحالة مطلقة ، وذلك لان التعاون لايقوم
ابداً بين اثنين بحيث يكون من حق الاول ان يأمر ومن واجب الثاني ان
يطيع ، وما ينشأ عن هذا الامر فهو مبدأ التبعية لامبدأ التعاون .

والدولة القومية ، اذ تكافح الديكتاتورية ، فانما تفعل ذلك ، لان
النظام الديكتاتوري ينحرف بسلطات الامة ، من حيث هي تجسيد لارادتها
الى حيث هي تجسيد لارادة الديكتاتور .

والدولة القومية ، اذ تكافح الديكتاتورية ، فانما تفعل ذلك ، لتنسجم
وخمير ثورة القومية العربية ، هذه الثورة الممثلة بجهادها للاستعمار في كل
اشكاله ، من مباشر وانتداب ووصاية .

لذلك ، فالديكتاتور عدو لدود للدولة القومية لانه يعتبر نفسه وصياً على
الامة ، والامة التي تقبل بوصاية احد ابنائها او فئة من ابنائها ، تقبل ايضاً
بوصاية المستعمر عليها ، لان الامة تكون حينذاك ، امة غير مكتملة ، بل
مجموعة من الناس يشكلون مجتمعاً لايعي ذاته وبالتالي لايعي وجوده . ومن
ثم غير قادر على ممارسة وجوده كقوة قومية فاعلة ، وكقوة انسانية بناءة .
ارى ثانياً في الدولة القومية ، كما افهمها ، المجتمع ذا الحكومة

التي تؤمن باصالة الخير في النفس البشرية عامة ، وفي النفس العربية خاصة ، لذلك ترفض الدولة القومية أن تضع خططاً ومناهج معينة للنفس البشرية ، بل أنها ترى أي الدولة أن واجبها الاساسي يتركز على تحرير الخير في النفس العربية ، واطلاق سراحه من سجون الشر المتمثل بالاثرة والاطماع الناشئة عن غريزة حفظ البقاء ، هذه الغريزة التي ما زالت تتدفق بالخوف ، منذ الفجر الاجتماعي فالمجتمعي الاول .

لذلك فان نشاط الدولة القومية ، يجب وفي كل الاحوال ، ان لا يستهدف صنع قوالب للاخلاقية العربية ، بل أن على هذا النشاط أن يستهدف تحرير النفس العربية من القوالب الفاسدة التي صنعها لها الخوف ، الخوف على المصير في شكله المادي والمعنوي .

وذلك لان ضمير ثورة القومية العربية يريد الدولة القومية ان تكون الاداة ، التي تستعملها العناصر الخيرة في النفس العربي ، لتحقيق أغراض هذه النفس والسير بها نحو غايتها الانسانية ، وبهذا تغدو الدولة القومية نتاجاً طبيعياً لاصناعياً للنفس العربية ، ولا تغدو ، كما تريدها فلسفة « البرجماتزم » نتاجاً « للذكاء انظم » الممثل في الدولة ، اذ ان العناصر الخيرة في النفس البشرية موجودة قبل وجود الدولة ، والدولة حينما تمارس وجودها صالحاً ، فانما تمارسه نتيجة للوجود الازلي الابددي للطبيعة الخيرة في النفس البشريه وبذلك يتحكم الجوهر فيما حوله من موجودات ، ولا يتحكم ما حول الجوهر من موجودات في الجوهر ، كما ويكيف الجوهر ما حوله من موجودات تكيفاً ، يجعلها تلتئم وطبيعته ، ولا يتكيف الجوهر وما حوله من موجودات ليلتئم وطبيعتها ، وبهذا يتخذ الجوهر دور الفاعل في الموجودات ، ولا يتخذ ابداً دور المنفعل معها ، وهذا ما يفسر قول الله القائل لقد خلقت الانسان على صورتي اذ أن حقيقة مركز الانسان من الموجودات ، تكاد تعطي الانسان القدرة الناقصة على الخلق ، فالانسان كيف الاشياء ويروض العناصر ، غير انه لا يخلق الاشياء

والعناصر ، وهذا ما أعني به القدرة النافضة على الخلق ، وهذا أيضاً السر الحقيقي في عظمة الانسان وفي امتيازه على كل مخلوق آخر ، اذ أن الانسان هو الذي يكيف الاشياء والعناصر الاخرى غير أنه لا يتكيف ، لان بحثه عن المعرفة ، وحبه للمعرفة هذا الحب الاصيل الكامن منذ الازل في طبيعته الخيرة جعلته مكيفاً تكيفاً نهائياً ، بحيث هو دائم الاستعداد لمقابلة تحدي اسرار الكون له لاكتشافها وترويضها ووضعها في خدمته وخدمة النظام الكوني .

بما ورد يستنتج ان الدولة القومية الصالحة ، ليست تلك التي تفرض الصلاح ، أو بالاحرى تخلق الصلاح في النفس البشرية ، بل انما هي - أي الدولة القومية - تلك التي تساعد الصلاح على التحرر من الخوف ورواسبه الفاسدة المفسدة ، هذا الخوف الذي مازال حتى الآن الرباط الوحيد الذي يشد الانسان الى المجتمع والمجتمع الى الحكومة والاثنين معاً الى الدولة والدولة الى الانسانية .

والخوف كما ارى يمثل الوعي الحيواني للوجود ولحفظ البقاء ولكنه لا

يمكن للانسان ان يسمح للخوف بان يمثل وعيه وينظم وجوده .

اذن فالدولة لا تصنع الأمة ، بل ان الفرد ذي الغريزة الاجتماعية فالمجتمعية وذو الفطر الخيرة التي تسيطر على وجدانه وذكائه ، فتجعله انساناً ، هو الذي يصنع باتحاده وتعاونه مع اخوانه من ابناء قومه الامة ومن ثم الدولة ، والفرد يستمد قدرته على صنع الدولة القومية الصالحة من تدفق صلاحه وتفاعل هذا الصلاح مجتمعياً وصلاح ابناء قومه في الامة ، فتنشأ نتيجة لهذا التفاعل ورغبة في تنظيمه ، الدولة القومية .

اذن فالدولة القومية هي نتيجة للمقدمات الآتفة الذكر ، والنتيجة لا يمكن ان تتحكم في مقدماتها تحددها او توجهها ، لانها هي وليدة هذه المقدمات وليس والدتها ، والنتيجة التي تحاول ان تتحكم بمقدماتها يجب ان تتنازل اولاً عن جوهرها كنتيجة الى صيورتها مقدمة او مقدمات . ولما كان هذا الامر مستحيلًا بالنسبة للدولة الصالحة ، التي تمثل فرداً صالحاً والتي هي نتيجة لصلاح الفرد المصلح

في المجتمع ، وصالح المجتمع المنصلح بالفرد ، لذلك فان كل محاولة تقوم بها الدولة بغية « قولبة » النفس البشرية هي بمثابة محاولة من يريد تجسيد الوجود في العدم ، وهذا الامر مستحيل استحالة مطلقة ، اذ ان الدولة تتخذ بذلك صفة الخالق ، والانسان ذو موهبة تتركز في الاكتشاف والتكيف لخلق ، فنحن نستطيع ان نحسن الحسن الى الاحسن لان نخلق الاحسن من لاشيء كما وان وجود الاحسن كامن في الحسن ذاته ، اذ انه النمو الطبيعي للحسن . اذن فعلى الدولة القومية ان تترك للنفس العربية حرية الانطلاق على سجيته ، اذ ان في انطلاقها - اي النفس العربية - على هذه الصورة الفعل الخير كل الفعل الخير ومن ثم التنظيم العاقل كل التنظيم العاقل واخيراً النظام البناء الصالح كل النظام البناء الصالح .

انني اذ يراني القاريء اذهب بايماني بجوهر الخير في طبيعة النفس البشرية عامة وطبيعة النفس العربية خاصة الى محراب التعبد والعبادة ، فانما افعل هذا الامر لاننا كأمة ناشئة او بالاحرى امة تستعيد ذاتها وتستعيد وجودها ، ارى من اضروري لابل من الالتزام ان نيسر في كل مراحل تطورها الحرية كل الحرية للامة العربية وان نقيم اساس نظامنا العام على قاعدتي المناقشة والاقناع لاعلى قاعدتي الاملاء والاكراه ، وذلك لايماننا العميق بان الانسان في حالة اقتناعه ستندفع به فطرة الخير في نفسه وسيقفز عندئذ في سلم التطور قفزا ونحن قد نكره الانسان على عمل ما ولكن لا يمكننا ان نكره حماسه لتبني هذا العمل وانجازة ، لهذا كان من واجب الدولة القومية الفاعلة حقاً ان لاتجند القوى المادية للانسان فحسب بل ان تجند حماسه ايضا ومثل هذا الامر لن يتحقق اذا كان الاكراه للاقناع هو الوسيلة لتعامل الدولة والانسان .

وهناك رأي خطر وخطير يطغي اليوم على بعض علماء الاجتماع وهذا الرأي يتمثل في قول احد ائمتهم وهو العالم الاجتماعي الاميركي المشهور البروفسور « هادلي كانتريل » القائل :

« ان الطبيعة البشرية كما تتميز اياها جماعة في اياما وقت معين هي ماهي بسبب الظروف التي نضج فيها الافراد في تلك الجماعة . والطريقة الوحيدة لايحاء الطبيعة البشرية التي نريد هي ان نضمن بطريقة علمية نوع البيئة الاقتصادية والاجتماعية التي تقدم افضل الظروف لتطور للطبيعة البشرية في الاتجاه الذي نعينه نحن ، الاتجاه الذي يميز الحرية من نزاع الجماعة والحرية من التطور الشخصي . »

ان هذه الفلسفة المتعلقة والمفسرة للطبيعة البشرية فلسفة تتعارض في كل مبدأ من مبادئها وحقائق وجود الطبيعة البشرية وصفات هذه الطبيعة وميزاتها وذلك في القواعد الفلسفية المطلقة والميزات الجوهرية للطبيعة البشرية فالعقل الواعي لا يميز جوهر الطبيعة البشرية على ضوء الظروف التي نضجت فيها كما يقول البروفسور هادلي كانتريل وكما تنادي به فلسفة البرجماتزم بل انما يميز الطبيعة البشرية على أساس فطرة الخير في جوهرها ، وذلك لاننا اذا فعلنا كالبروفسور « كانتريل » او كالذرائعين « البرجماتزم » نكون قد اعطينا صفات الجوهر المظهر ، ونكون ايضاً كمن يتخذ لون عنصر من العناصر ، مفهوماً للقوى الكامنة في العنصر ، فاذا طلينا قطعة من الفولاذ باللون الاحمر فان هذا لا يعني ان لون الفولاذ احمر ، وان فعله - فعل الفولاذ - أصبح يعادل فعل اللون المطلي به ، كما وأن طبيعة اللون الاحمر لا تشكل بالضرورة او بالاحرى لا تشكل أبداً طبيعة الفولاذ ذاته .

كذلك حالنا والطبيعة البشرية ، فالظروف قد تلونها ولكنها لا تحدد أبداً كما يقول كانتريل نوع الطبيعة البشرية ولا تحدد اتجاهاتها وذلك لان نوع واتجاهات الطبيعة البشرية محددة تحديداً لانهاً ونوعها مصمم قصصياً ازلياً خالداً ، لا يتغير أو يتبدل نتيجة للظروف ، بل أنه كالنبذة التي تفلق الصخرة وتشقها لتخرج الى اجواء الحياة مدفوعة بقوى الحياة الكامنة فيها ، لذلك فان جميع الانظمة التي مرت بها البشرية لم تفعل أبداً في تبديل نوع الطبيعة البشرية أو في تغيير اتجاهاتها الصاعدة الى الخير علاء ، بل انها حبلت نموها عن الوجود أحياناً

واوقفت ولبعض الوقت فقط خطاها ، لكنها لم تحرف اتجاهها او تنحرف باتجاهاتها ، بل أنها تابعت - أي الطبيعة الخيرة - عملها تحت ضغط ظروف شديدة اقتضتها جهوداً أكثر لتشق طريقها ولتتابع سيرها في الخط الذي رسمه لها جوهر الخير فيها .

فالطبيعة البشرية لم يتبدل نوعها في عهد الاقطاع ولم تنحرف اتجاهاتها في ذاك العهد وذلك نتيجة لظروف الاقطاع ، بل انما كل ما جرى هو ان الطبيعة البشرية قد انكمشت على نفسها كما ينكمش الاسد حينما يتحفز وأصبحت كالاسد حينما يتحفز ، لجمع كل اجزاء جسدها لتستجمع كل قواها للوثوب في اتجاه الخير ساحقة العقبة التي تعترض طريقها الى الحياة ، والمفكر السطحي يرى في انكمش الطبيعة البشرية تبديلاً في نوعها وسطحيته ناشئة عن اعتقاده بان التغير في الكم ينتج تغيراً في الكيف .

ان الظروف قد تعترض - بالاحرى - اعترضت وتعترض طريق الطبيعة البشرية ، وهذا الاعتراض لا يشكل ابداً تبديلاً في الطبيعة البشرية المحددة الاهداف والمقاصد بل انما يشكل عقبات اما تنسفها الطبيعة البشرية في طريقها المرسوم او تدور من حولها لتتابع سيرها على طريقها المرسوم وهذا الدوران ، يخاله « كانتويل » وتخاله فلسفة البرجماتزم انحرافاً كلياً وتاماً في الاتجاه وفي الطريق ان « كانتويل » يرى فيه مفرق طرق ، بينما انه في الحقيقة منعطف في طريق مرسوم داخل الطبيعة البشرية تشقه الطبيعة البشرية حينما تمارس وجودية جوهرها في الوجود .

فكانتويل يرى على ضوء الانية القصيرة النظر نوع الطبيعة البشرية واتجاهها وهذا الرأي ضال مضلل او بالاحرى كاذب .

فمثلاً اذا جئت انسانا عرف بالكرم والعطاء وذلك لان كرمه وعطاءه اصيلا في طبيعته ، اقول اذا جئت هذا الانسان وهو في ظروف عسيرة لا يملك فيها ما يعطيه فرجعت خائباً فان رجوعي خائباً من لدن ذاك الانسان

لا يعني ابدأ ان ذاك الانسان قد تبدل نوعه فاصبح شحيحاً نجساً ، ولا يعني ايضاً ابدأ ان ذاك الانسان قد انحرف اتجاه طبيعته فاصبح الشح بدلاً من الكرم وغدا النجل بدلاً من العطاء جوهر طبيعته ونحن نعلم ذلك الانسان ونفتري عليه اذ ننعته بما هو مناف لطبيعته ، ان كل ما حدث لذاك الانسان هو انكماش اليم في طبيعته وتوقف الانحراف في اتجاهها ، ولكن الآنية والنفعية تفسران هذا التوقف بالانحراف وتعللان ذاك الانكماش بالتبدل الطارئ على نوع طبيعته الاصلية . وهذا كما يرى ولا شك يرى القارئ معي ايضاً ليس بخاطيء فحسب بل محاولة تروير للطبيعة البشرية ايضاً وبالتالي فرض طبيعة بشرية مزورة واحلالها محل الطبيعة البشرية الاصلية .

من هذا كله نستنتج ان الطبيعة البشرية خيرة خالدة الخير في جوهرها وان قابليتها - ورغبتها في الاستجابة لنوازع الخير - اقول قابليتها - فيها لا يتبدل نوعها او اتجاهها نتيجة للظروف الاقتصادية والاجتماعية ومن ثم السياسة ، وهذا ما يعني مفهوم الحقيقة في ذاتها لا مفهوم الحقيقة في فعلها المنكمش وهذا ما يعني ايضاً ان على الدولة القومية ان تبني الاخلاقية العربية لاعلى اساس المنفعة المادية المباشرة بل على اساس قابلية الطاقة الخيرة الكامنة في النفس البشرية .

أرى ثالثاً ، في الدولة القومية ، تلك التي تجعل من المحبة والتعاطف والتعاضد لامن الاستغلال ، ولاحتي من التبادل المتكافئ للمنافع ، القانون الذي ينظم علاقات الفرد بالفرد ، أو الجماعة بالمجتمع ومن وشم الدولة .

وذلك لان علاقات الفرد بالفرد ، أو بالجماعة والمجتمع والدولة اذا سيطر على تنظيمها روح التبادل وحتى المتكافئ منه للمنافع ، فعندئذ تنعدم الروح الانسانية في علاقات المواطنين بعضهم ببعض ويتلاشى المبدأ الاسامي للمحبة ، وتصبح محبة الانسان لأخيه الانسان ، تقاس بمقياس المنفعة لا بمقياس العطاء .

وبهذا ، تنهار الفضائل الانسانية السامية كالتضحية والشهامة والنخوة ، هذه الفضائل التي تشكل القواعد الاساسية « للفروسية » « Chivalry » . كما وتنعدم

القيم في ذاتها ، وتصبح القيم تقدر وتقاس بما تدره من فوائد مادية دون النظر الى ما في هذه القيم من جوهر ثابت .

ان دستور المحبة كما أفهمه ينص في كل قاعدة له على ان لكل انسان الحق في الحياة ، والحياة الكريمة السعيدة بالذات ، وان هذا لا يقرره أو يحده ما يستطيع الانسان أن يقدمه ، من خدمات ومنافع ، لأخيه الانسان ، أو لمجتمعه أو دولته ، بل انما يقرره ويحدده كون الانسان انسانا .

ووعينا الكامل لهذه الحقيقة الجوهرية ، وعملنا المخلص وفق منطوقها ، يمكننا من أن نجعل العدالة تنبثق عن الرحمة ، حينما نضع للقومية العربية « ايدولوجيتها » الحديثة وحينما نخطط للدولة العربية نظامها ودستورها .

ونحن اذ نريد للعدالة ، في ايدولوجية القومية العربية ، ان تنبثق عن الرحمة فانما نريد أن تكون عدالتنا عدالة انسانية حية ، وذلك لأن العدالة التي تنبثق عن الرحمة ، انما لاتنبثق عن العقل فحسب ، بل انما هي تنبثق عن العقل والضمير والعاطفة النبيلة ايضاً ، وبهذا تشترك جميع القيم السامية في الانسان في تحديد مفاهيم العدالة ، وطريقنا ، الى تحقيق هذه الغاية ، هو طريق المحبة والمحبة فقط .

ان أخطر انحراف قد تصاب به القومية العربية ، في ثورتها الخلافة البناءة ، هو أن يعتمد الثوريون العرب مبدأ النفعية ، لامبدأ العطاء من القلب ، وذلك لان في اعتماد مثل هذا المبدأ - مبدأ النفعية - التخلي الكامل عن الروحانية التي امتازت به الحضارات التي قامت في منطقة الشرق ، وخاصة الحضارة الاسلامية .

أنا لا أنكر ان كل حضارة ، يجب ان تقوم على عناصر وعوامل مادية ، وأعرف ان العوامل المادية جد ضرورية ، وأنها تتمتع بالاهمية ذاتها التي تتمتع بها العوامل الروحية ، كما وأعرف ايضاً ان المادة هي التي تجعل الحضارة في متناول العقل والحواس ، غير أنني أرى في طغيان المادة على الروح تقويضاً مروعاً للمثل العليا ، وانكاراً آثماً مخيفاً وبشعاً لحقائق الوجود الانساني ، هذه الحقائق الكامنة في الفطرة الخيرة للنفس البشرية ، والتي تستفز وتشحن في الانسان سلاح المعرفة

في ضلاله وقصر تجاربه ، تقوده نحو حقائق الوجود التي يكافح لاكتشافها ، كي يستخدمها لحيره وكماله .

ان الانسانية عاشت وتعيش في كل تقاليد السامية النبيلة ، وفي كل حضاراتها وفي كل مساعيها وجهودها وجهادها في سبيل التطور نحو الاكتمال فالكمال ، وهي تسترشد بوحى الروح والهامة ، تاركة للعقل ومنطقه ، معالجة وتنظيم ما تصل اليه من حقائق الوجود ووقائعه .

ان النفعية ، أو بالاحرى ، التبادل المستمر المتزايد والدائم المنافع بين المواطنين هو احدى نتائج المحبة ، وليس كل نتائجها ، والمحبة وحدها هي القدرة القديرة على تنمية التبادل في المنافع ، وهي التي توجده ، حينما يكون التبادل ، غير ممكن ، نتيجة لظرف أو ظروف طارئة ، وذلك لان العطاء الذي هو فعل المحبة ، ليس بقوة تستهلك فقط من قبل المعطى بل تستثير الامكانيات النافعة فيه ، كما وانها تدعم أمله وتوطد الايمان في نفسه بالانسانية ، وتنمي فيه روح التعاطف والتعاقد والتعاون .

ان العامل الرئيسي في انحراف الحركات القومية الاوروبية ، هو أن هذه الحركات اعتمدت في غوها وتبلورها مبدأ النفعية ، وتنكرت للروح تنكراً سافراً في كل خطوة من سلوكها ، وهذا الانكار البالغ للروح في الحركات القومية الاوروبية ، جرد الامم الاوروبية من أرفع الصفات الانسانية ، وبالتالي أدى الى نشوء الرأسمالية البشعة الجائرة التي تكتوي بنيرانها اليوم بعض الشعوب الاوروبية كما ونتج عنها مآسدها الاجيال السابقة جليتنا ، وما نشاهده نحن اليوم من استغلالهم شره ، واستعمار أسود مجرم

ان المحبة وحدها ، هي التي تستطيع ان تحفظ على الامة ضميرها ، وان تحافظ للامة على وجدانها ، والمحبة ، محبة الشيء في ذاته ، هي التي تحول العظمة من كونها عظمة إسمية الى صيرورتها عظمة حقيقية ، كما وان المحبة وحدها هي التي بإمكانها ان توفق بين الحرية والسلطة ، وبين ثنائية الحياة في الفرد ، الحياة كفرد ، والحياة كمجتمع . لقد حاولت شتى الفلسفات الاوروبية وسعت عبثاً ،

الى التوفيق بين الحرية والسلطة ، وجاهدت معظم الانظمة الاوروبية للتوفيق بين ثنائية الحياة في الفرد ، ولم تستطع الفلسفات الاوروبية والانظمة التي انبثقت عن هذه الفلسفات ان تحقق هذا الغرض السامي ، غرض التوفيق بين الحرية والسلطة ، ومن ثم التوفيق بين ثنائية الحياة في الفرد ، وسبب اخفاق الشعوب الاوروبية في تحقيق هذا المطلب الانساني يعود اولا واخيرا ، الى كون هذه المساعي كانت تعتمد في كل خطوة من خطواتها مبدأ « النفعية » المتدفق من المادة والمادية ، والمتنكر للروح والروحانية . لذلك شاهدنا في اوروبا تلك المساعي تنتهي ابدأ بالرديكالية ، آنا تظني « الأنا في الفردية » على الجماعة والمجتمع والدولة وحينما تطغي الجماعية على الفردية فتطمس كل ما فيها من « الأنا » او بالاحرى تسحقها سحقا عنيفا قاسيا ، يجعل المرء يخال ان الجماعية في روحها تجهل ان الفرد هو اصلها وهو جوهرها .

ان الواجب الاسامي للقومية العربية ، في ثورتها الحالية ، هو ان تقيم التوازن بين ثنائية الحياة في الفرد ، وعليها ان تنجح فيما اخفقت القوميات الاوروبية في كل حركاتها وانظمتها ، وطريقنا الى النجاح لتحقيق هذا الهدف الانساني الرفيع ، هو في ان نترك للروح ، وللروح الانسانية فقط حرية العمل في تنظيم القيم الاخلاقية والفعاليات المادية ، وفي تحديد علاقات الفرد بالجماعة والمجتمع والدولة ، اما اذا تركنا للنفع والنفعية هذه المهمة ، فعندئذ ستمتطي كل مساعيها الى ما انتهت اليه مساعي الحركات القومية في اوروبا .

ان الروح ، والروح وحدها ، هي التي تشد الانسان الى الله ، وهي بالتالي التي تجعل الانسان في محاوراة دائمة مع خالقه ، منها تنبع العقائد وفيها تولد الفضائل ، تحيا وتعيش ، وهي وحدها التي تضي على المجتمع البشري الصفات الانسانية ، وتحول دون انحدار المجتمع الى غابة تصطرع فيه الوحوش ، يعمل بعضها ببعض عضا ومزيقا ونهشا ، والروح تنشط ، وتنشط دائما ابدأ ، لالتأخذ بل لتعطي ، وعطاؤها فيض دفاق ، وهي عندما تعطي لاتسأل عما سيعود به

عطاؤها عليها من إفوائد ، بل انما تعطي لانها لا تستطيع الا العطاء ، ولانها لا تعيش الا فيه ، ولا تمارس وجودها الا فيه ايضاً ، وذلك لانها النتائج الاصيل للمحبة .

لقد ادرك الفيلسوف الالماني « شبنجار » السر في اخفاق الحركات القومية الاوروبية ، وسر عطل الحضارة الاوروبية من العظمة الحقيقية ، وذلك حينما قال :

« ان الامم في نهوضها تعبر طريقين مختلفتين ، طريق العقيدة وقوة النفس ، وتلازمه بساطة الظواهر وعظمة الضمائر ، وطريق الفخامة المادية والوفرة العددية ، وفيه تمحل الضمائر ، وتحلفها العظمة التي تقاس بالباع والذراع ، وتقدر بالقنطار والدينار ، وكانت من قبل ذلك تقاس بما لا يحس من العزائم والاخلاق » .

انني كلما تأملت في كلام « شبنجار » المدون اعلاه ، عدت في خاطري الى ما كان لنا من ماض حضاري وتساءلت في عقلي ووجداني عن الاسباب التي ادت الى انهيار الامبراطورية الاسلامية وبالتالي تلاشيها وزوالها ، والحق انني لم اجد حتى الآن من سبب سوى تنكسر الخلفاء الذين خلفوا عمر بن الخطاب ، لمبدأ المحبة والتعاطف والتعاقد ، وتنكسروا هذا ادى الى طغيان روح مادية بشعة على ادارة شؤون جامعة الشعوب الاسلامية .

لقد بدأ هذا الانحراف بعثمان بن عفان ، وفي عهد خلافة عثمان بن عفان ولدت الحلية السرطانية الاولى التي اتت على جسد العملاق العربي الجبار آنذاك انني اقرر هذه الحقيقة وانا المسلم السني ، لأن الامانة للحقيقة والتاريخ تفرض هذا الامر وتستوجبه . لقد اندفعت الجيوش العربية من الجزيرة العربية ، وهي لا تملك سوى العقيدة ، وكان الهدف الاساسي لكل عربي طيلة عهود النبي وابي بكر وعمر بن الخطاب ان ينشر راية العروبة والاسلام فوق كل صقع وناد ، غير آبه بالمغريات المادية ، وغير مكترث لما تعود عليه اندفاعاته من

فوائد آنية ، فتابعته جيوش العرب سيرها ، متنقلة من ظفر الى نصر ، لا تتطلع
الى ماحولها من ذهب براق وهاج يخطف بريقه الابصار ويعميها ، بل تابعت
زحفها المظفر وابصارها مركزة على السماء تستلهمها قوة وعزيمة ، وتطلها ظفرا
ونصرا ، تحمل الى البلاد المفتوحة نظاما جديدا لجمته الحرية وسداه
العدالة والمساواة .

ولكن ما كاد بن الخطاب يوسد قبره حتى انحرف عثمان بن عفان بأهداف
العرب والاسلام وانحرف الامويون من بعده ، فكان أن أخذت هذه الروح
بالحمود ، درجة فدرجة حتى غدت في العصر العباسي الاخير رمادا خائبا مربدا .
وأنا هنا سأسوق أمثلة تاريخية تبين مدى خطورة الانحراف الذي لحق بالقومية
العربية على يد عثمان بن عفان واقربائه من الامويين الذين تولوا الحكم من بعده
وسأبدأ بإيراد بعض سير عمر بن الخطاب ، هذا الخليفة العربي المسلم النموذجي في
عروبته واسلامه ، لاورد بعدها سيرا عن عثمان تاركا للقاريء الكريم اكتشاف
التناقض بين سلوك الرجلين .

(١) عقب أن ذبح عمر ناقة عمياء وطبخها ودعا الى مائدته الانصار ، تمنى
هؤلاء عليه لو أنه كل يوم يقوم بمثل هذا الامر فقال عمر .
« لأعود لمثلها أبداً ، انه مضى لي صاحبان عملا عملا وسلكا طريقاً ، اني اذا
عملت بغير عملها سلك بي غير طريقها . »

(٢) دخل عمر بيته وقد أصابه الغرث (الجوع) فقال عندكم شيء ؟ فقالت
امراته ، تحت السرير ، فتناول قناعاً فيه تمر فأكل وشرب ثم مسح بطنه ثم قال
ويح لمن أدخله بطنه النار .

(٣) قال ابو عمر الجوني : والله ما مكان يصيب عمر من الطعام هو وأهله
الا تقوتاً .

(٤) كان يجلس لدى عمر حفص بن أبي العاص وكان يحضر طعامه ولا يأكل
فقال له عمر ما يمنعك من طعامنا ؟ فقال طعامك جشب غليظ ، واني راجع الى طعام

لين قد صنع لي فأصيب منه .

فقال عمر : اني لاراك عالماً بطيب العيش ، والذي نفسي بيده لولا تنقص حسناقي لشاركتكم في لين عيشكم ، لكنني استبقي طيباتي ، لاني سمعت الله تعالى يقول عن اقوام :

« أذهبت طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها . »

وأمر غلاماً له أن يعمل عصيدة وقال :

أنضج كي يذهب حرارة الزيت ، فان اناساً تعجلوا طيباتهم في حياة الدنيا .

(٥) قال علي بن أبي طالب :

رأيت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ازاراً فيه احدى وعشرون رقعة من آدم (جلد) ورقعة من ثيابنا .

(٦) قال أنس :

لقد رأيت في قميص عمر اربع رقع بين كتفيه .

(٧) وعن أبي عثمان الفهدي :

رأيت عمر يرمي الجمر وعليه ازار مرقوع بقطعة جراب .

(٨) وعن غيره :

ان قميص عمر فيه اربعة عشر رقعة احداها من آدم (جلد) .

(٩) أبطاً عمر جمعة بالصلاة فخرج فلما أن صعد المنبر اعتذر الى الناس وقال :

انما حبسني قميصي هذا ، لم يكن لي قميص غيره .

(١٠) وعن نافع قال :

سمعت بن عمر يقول :

والله ماشمل النبي في بيته ولاخارج بيته ثلاثة اثواب ، ولاشمل ابابكر

في بيته ثلاثة اثواب ، لقد رأيت النبي يرقع ثوبه ، ورأيت ابابكر يخلل بالعباء

ورأيت عمر يرقع جبته برقاع من آدم (جلد) وهو أمير المؤمنين .

(١٢) كتب عمر الى أبي موسى :

إذا جاءك كتابي هذا فاعط الناس اعطيائهم واحمل الي ما بقي مع زياد ،
ففعل فلما تولى عثمان بن عفان الخلافة كتب الى أبي موسى كتاباً مماثلاً ، ففعل
وجاء زياد بما معه ووضع بين يدي عثمان فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئاً من فضة
فمضى به ، فبكي زياد فقال عثمان ما يبكيك ؟ فقال :

أتيت عمراً بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهماً فأمر به فأنزع منه
حتى ابكى الغلام ، وان ابنك هذا جاء فأخذ هذه ، فلم أر أحداً قال له شيئاً
فقال عثمان

ان عمر كان يمنع أهله وقربته ابتغاء وجه الله ، وانني أعطي أهلي واقربائي
ابتغاء وجه الله ولن تلقى مثل عمر ! ولن تلقى مثل عمر ! ولن تلقى مثل عمر !
(١٣) أعطى عثمان أهله بعض الجواهر والمجوهرات كانت في بيت المال
وهو يقول :

« لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وان رغمت انوف قوم » .

(١٤) زوج عثمان أربعاً من بناته لنفر من قريش وأعطى كل واحد من
أزواجهن مائة ألف دينار .

(١٥) أعطى عثمان مروان بن الحكم الاموي خمس الغنمية التي غنمها في افريقية .

(١٦) أعطى عثمان عمه « الحكم » ثلاثمائة ألف دينار .

(١٧) أعطى عثمان الحارث بن « الحكم » ثلاثمائة ألف دينار .

(١٨) ارسل عثمان الحارث بن الحكم لجمع الصدقة من قضاة فلما عاد الحارث
وهبها له .

(١٩) أعطى عثمان عبد الله بن خالد بن اسيد ثلاثمائة ألف دينار واعطى

كل واحد من الذين وفدوا مع خالد مائة ألف دينار .

(٢٠) أعطى عثمان بن عفان الزبير بن العوام ستمائة ألف دينار .

(٢١) أعطى عثمان بن عفان طلحة بن عبيد الله مائة ألف دينار .

(٢٢) حج عمر بن الخطاب - أقول عمر بن الخطاب - فانفق في حجه ستة

عشر ديناراً فالتفت الى ولده وقال : أسرفنا في سفرنا هذا .
(٢٣) جاء عقيل بن طالب أخاه علياً مستوفداً فقال علي لابنه الحسن :
إذا خرج عطائي فسر مع عمك الى السوق ! فاشتر له ثوباً جديداً ونعلين
جديدين !

فذهب عقيل الى معاوية في دمشق فاعطاه معاوية مائة الف دينار . ولعل
ابلق قصة تمثل الانحراف الخطير الذي طرأ على المبادئ الاساسية للقومية العربية
هي القصة التالية :

دخل سعد بن أبي وقاص على معاوية فبادره قائلاً : السلام عليك ايها الملك
فضحك معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا اسحق لو قلت يا أمير المؤمنين ؟! فقال
سعد ، أتقولها جذلان ضاحكاً ؟! والله ما أحب أن وليتها بما وليتها به .
هذا غيض من فيض ، غير انه يعطي صورة واضحة للانحراف الذي بدأ
بعثمان بن عفان لينتهي بالعباسيين ، تلك النهاية الاليمة التي قوضت جامعة الشعوب
الاسلامية ، وجرفت العرب كعنصر فاعل وفعال في تلك الجامعة ، الى ظلمات
التاريخ وزوايا النسيان الداكنة .

وهذه الامثلة تبين بجلاء ، ان اشد الضربات التي يمكن ان تنزل بعقيدة
ناشئة ، هي تلك المتمثلة بطغيان المادة على القيم الروحية ، اذ ان الانسان عندما
لا يستطيع ان يقاوم مغريات المادة يستسلم لشهواته ويستسلم « للأنا » المغلقة
وينحرف خطوة فخطوة عن خط سيره ، فيضل ويضل ، ولا يستيقظ من ضلاله
او تضليله الا وهو في قعر الهاوية .

لقد كان عثمان يحب اقرباءه ، وكل مافعله انما كان باعته « المحبة » ، لكن
محبة عثمان هذه تختلف عن المحبة التي يجب على القومية العربية ان تأخذها حجر
الزاوية في النظام الذي تريد ان تشيده للأمة العربية ، فمحبة عثمان كانت محبة
ضيقة غير رحبة ، وهاتان الصفتان تتناقضان وجوهر المحبة ، لان المحبة هي امتداد
مطلق لانهائي ، لاتنتهي عند الاقرباء او الانصار بل انها تشمل الكون كله وقد

تتجاوزه وتتعداه ، لانها هي الشمس الكونية ، التي يدور الكون حولها ، منها يستمد نوره ومنه يستمد اسباب وجوده .

ان المحبة ، اذا لم يتصف امتدادها باللانهائي ، تنقلب عدوانا ، وتنقلب استعمارا وتنقلب استبدادا ، وتنقلب مظالم وتنقلب طغيانا .

فانا احب نفسي عندما احب قومي ، واحب قومي عندما احب البشرية واحب البشرية عندما احب كل ما في الكون . وحي يجب ان لاتقرره المنفعة بل المحبة والمحبة وحدها ، بهذا فقط وبواسطة هذه العقيدة والايمان يستطيع ان امارس وجودي كإنسان خلقتني الله على صورته .

والقومية العربية اذا استطاعت في ثورتها الحالية ان تدفع بشعوبها الى اعتناق هذا المبدأ الاساسي ، فعندئذ تستطيع الامة العربية ان تنزعم الامم الاخرى وان تقود العالم في الاتجاه الصحيح .

ان العالم اليوم ، وعقب التطور الخيف في امكاناته المادية ، غدا يناقش وجوده ، ويناقش معضلاته على ضوء العلم المادي الحديث ؛ وهذه المناقشة ، اذا استمر جريانها على المجرى الحالي الذي تجري عليه ، فان مصير البشرية على ظهر هذا الكوكب الى دمار شامل وفناء محتوم .

ان العالم يفتقر اليوم الى زعامة روحية ، زعامة تستطيع ان تنظم امكانات العالم الضخمة وتوجهها في صالح الانسانية ، ومثل هذه الزعامة لا يمكن ان تولد الا اذا كانت المحبة منها الأم والوالد .

اننا نحن معشر العرب بمقدورنا ان نتولى مقاليد مثل هذه الزعامة ، وفي تاريخنا الحضاري من الامثلة مايدل على قدرتنا على تحقيق هذه الغاية ، وانني لو اتيقن من ان شعوب العالم سترحب بنا ، بل وسترفعنا الى مرتبة الزعامة والقيادة ، وذلك في حالة اقناعنا هذه الشعوب بان القومية العربية وفي كل مراحل حياتها منذ عهد البطل القومي الاول النبي محمد حتى يومنا هذا ، انما انبعثت عن المحبة الصافية المجردة عن كل غرض او غاية ، وانما من اجل المحبة

ونشرها تعيش ، وفي المحبة تنمو وتترعرع .

لقد استطعنا فيما مضى نحن معشر العرب ان نؤلف بين شتى الالوان والاجناس وبين مختلف البلدان والاقطار ، وان نصنع من السامي والحامي والآري امة واحدة وان نصنع من تلك الاقطار دولة واحدة يسودها العدل وتوجهها الرحمة ، لقد استطعنا ان نفعل ذلك فيما مضى لاننا اعتمدنا المحبة قانونا لنا ودستورا ، فساوينا بين جميع العناصر والعرب ، وساوينا بين جميع الالوان والعرب ، واعتمدنا الكفاءات دون ان ننظر الى لونها او جنسها ، وتساحنا تساحا مطلقا وارغنا معظم المستشرقين المنصفين من الاجانب على الاعتراف بان العرب كانوا اوسع الفاتحين تساحاً ورافة واكثر الحاكمين عدلا وانصافا . لقد سلكنا طريقنا آنذاك بنجاح وظفر ، لاننا حينما كنا نعمل لانفسنا كنا نعمل للانسانية جمعاء .

انه لما يدمي القلب ان يشاهد المرء عقب ان نجح الاتحاد السوفياتي في اطلاق الاقمار الصناعية ان يستقبل مثل هذا الحدث الثوري الخطير بالذعر والخوف والوجل من قبل العالم الغربي ، وان يقابل الشرق ذعر الغرب ووجهه بالتمك والسخرية ؛ وهكذا ، وبين ذعر الغرب وتهكم الشرق ، ضاعت المعاني الانسانية الحقيقية لمثل هذا الحدث الرائع الذي وضعنا على اعتاب الكون . وهذا الامر ليس بعجيب او مستغرب في عالم استسلم استسلاماً مطلقاً للمادة وأهمل الروح .

ان العالم بحاجة الى من يصرخ في آذان الشرق والغرب معاً صوتاً مدوياً ويقول :

فليستقبل جميعكم اطلاق القمر السوفياتي بالفرح والغبطة لا بالخوف والذعر والوجل ، فهذا الحدث حدث انساني لا قومية له أو جنس ، انه لي ولك وله ، انه لنا جميعاً !

فهل نكون نحن معشر العرب هذا الصوت ؟ وهل تكون قوميتنا له

الصدى ! أنا واثق من أننا سنكونه ، اذا اعتمدنا المحبة لنا قانوناً ودستوراً .

السلطة في الدولة :

ان المهمة الاساسية للسلطة في الدولة ، تتمثل في بعث الفضائل في النفس البشرية ، لا في غرسها أو ايجادها ، فالفضائل كما قلت سابقاً موجودة وكاملة في نفس كل انسان ، لكنها تكون أحياناً غافية لا تمارس وجودها ، وعدم ممارستها لوجودها لا يعني أبداً أنها غير موجودة ، لهذا يتوجب على السلطة في الدولة إيقاظ هذه الفضائل ، إيقاظاً يحجب النفس البشرية الاذى والامتهان أو الانكماش . لذلك يفترض في السلطة الحكمة والحذر المترافقين بالعطف والاعتدال والرحمة .

ووظيفة السلطة كوظيفة الأم تماماً ، والأم العطوف هي تلك التي توظف طفلها من نومه برفق وحنان ، كي ترسل به الى المدرسة ليبدأ نهـاراً مدرسياً جديداً . كذلك يتوجب على السلطة أن توظف حماس الشعب وضميره .

لذلك يتوجب على السلطة في الدولة القومية الابتعاد عن كل اجراء غير ضروري ، بحيث يكون من شأن هذا الاجراء ان يؤدي بالنفس البشرية الى الانكماش والتبدل ومن ثم الى الخضوع والتبعية . ان علاقات المواطن او المواطنين بالسلطة لا تقوم ولا يجوز ان تقوم في الدولة ذات السيادة ، على اساس حاكم ، ومحكوم ، بل انما تقوم فقط على اساس موجه وموجه . كما وانه ليس من واجب السلطة ان تجر الشعب أو الامة ورائها ، فالسلطة لا يمكن ان تملك هذه القوة وتستخدمها استخداما ناجحاً ، بل انما الواجب الاساسي للسلطة يتمثل في ان تستفز السلطة نوازع الخير في الشعب وان تدفع بهذه النوازع الى مجالات النشاطات والعمل ، ومن ثم تتدخل في توجيهها - اي نوازع الخير - لاعن طريق الارغام بل عن طريق المناقشة والاقناع ، وذلك لان مهمة السلطة الواعية مكررة على التعامل وشعب يرغب رغبة عميقة في التحرر والتقدم ، لاشعب فاقد الرغبة في التحرر والتقدم .

ولما كانت اهداف السلطة تلتقي باهداف الشعب الراغب في التحرر والتقدم ،
لانها تنبثق عن الشعب وتنبع من ضميره وارادته ، لذلك كان الاكراه والارغام
على شيء او عمل ، يريده الشعب اصلاً ، امراً لا يستوجبه عقل او منطق ، وكل
ما يستوجبه هو مناقشة فاقناع وذلك في حالة غموض اهداف السلطة
ومراميتها للشعب .

ان السلطة لامتلك سوى الشعب كأداة لتنفيذ اهدافها التي هي بالاصل اهدافه .
لذلك يتوجب على السلطة وفي كل الاحوال ان تنبذ المبدأ القائل بان على
السلطة ان تفرض هيبتها ، لان السلطة الواعية لاتعيش على مهابة الناس لها ،
بل انما تعيش على محبة الناس ، وايمان الشعب بفائدتها .

أما السلطة التي تسترشد بمبدأ فرض المهابة والهيبة ، فهي سلطة تتفجر قواها
حماسة ورعونة وطيشاً ، ومثل هذا النوع من السلطات لايمكن أن يدوم أو يعمر .
لهذا يتوجب على السلطة أن تفرض احترامها لامهبتها ، فالاحترام مبعثه
المحبة والايمان ، أما المهابة فمبعثها الخوف والاذعان .

والقوة قد تخضع ولكنها لاتقنع ، والاستعمار ، أو النظام الاستبدادي ، هما
وحدهما اللذان يعمدان الى الاخضاع ، بسبب التعارض الجوهرى القائم بين مصالحهما
ومصالح الامة المحكومة .

أما طريق السلطة الى اكتساب احترام الامة ، فيكون في اقناع الامة بان
في بقاء السلطة القائمة بقاء لتدفق الخير في المجتمع ، وأن في زوالها توقف للخير في
دفعه ، ومثل هذه السلطة يحترمها الشعب ويدود عند الضرورة عن حياضها بكل
غال ورخيص ، فيضحى الشعب آنذاك بماله ورخائه دفاعاً عنها ، ويحتمل في هذا
السبيل ما لايجرؤ أشد الانظمة استبداداً أن يفرضه عليه .

الدولة والتركيب المجتمعي :

قلت ، فيما سبق ، ان الدولة القومية هي الاداة التي تستعملها الشعوب العربية ،

الموحدة المصير في الامة العربية ، حين ممارسة هذه الشعوب لسلطانها ، وقلت أيضاً ان الدولة القومية هي تلك التي تؤمن باصالة الخير في النفس البشرية عامة ، وفي النفس البشرية خاصة ، وأنها لذلك ترفض ، وفي كل الاحوال ، أن تضع خططاً أو مناهج معينة تسيّر النفس البشرية وفقها ، بل نرى ان واجبها يتركز على تحرير الخير في النفس العربية واطلاق سراحه من سجون الاثرة والاطماع ، واخيراً قلت ان الدولة القومية هي تلك التي تجعل من المحبة والتعاطف والتعاقد ، لامن الاستغلال ، ولا حتى من التبادل المتكافئ للمنافع ، دستوراً لها وقانوناً . والآن ، وقبل ان ابدأ بحثي المتعلق بالدولة والتركيب المجتمعي ، أرى أنه من المفيد أن استعرض نظريات الاشتراكية العلمية - الشيوعية - والاشتراكية ، والفاشية ، والفوضوية ، في هذا الموضوع . ومن ثم سأسوق ماأراه صالحاً من آراء شخصية مقترحاً العمل بها ، في هذه المرحلة التي تحاول فيها القومية العربية أن تنشئ دولة اتحادية ترسي أسسها على قواعد ، توفر علينا مستقبلاً الثورات والانقلابات وما قد يرافق هذه من انحرافات واطغاء فنكسات فحشاء

١ - نظرة الاشتراكية العلمية - الشيوعية - في الدولة :

ترى الاشتراكية العلمية - الشيوعية - ان الدولة ليست بقوة تفرض من خارج المجتمع ، بل أنها قوة تنبثق عن التركيب الطبقي في المجتمع ، أو بالأحرى عن المتناقضات المصلحية التي تسود التركيب المجتمعي بالذات ، وتقول الاشتراكية العلمية - الشيوعية - بان مهمة الدولة ، والحال هذه ، تتركز على تخفيف حدة النزاع بين الطبقات ، هذا النزاع المحتوم نتيجة للتعارض المصلحي بين الطبقات ، ولهذا فان الدولة تضع نفسها بالظاهر فقط فوق المجتمع ، وتوجهه الوجهة التي تجنبه انفجاراً يدمر كل أسسه وتركيباته .

والواجب الاساسي للدولة في المجتمع لا يتمثل في حل هذه المتناقضات ، الحل الذي يذهب بالتعارض المصلحي بين طبقات الامة ، وبالتالي ينهي حالة النزاع

الطبقي الناشئ نتيجة لهذا التعارض ، بل ان الواجب الاساسي للدولة يتمثل في تهيئة الجو الملائم ، والقضاء على كل ما يعكر هذا الجو ، كي تتابع الطبقة الحاكمة استغلال جميع ما للمجتمع من قوى وخيرات ، استغلالاً يحصر عوائدها ومراديدها (القوى والخيرات) بانباء الطبقة الحاكمة ..

وبهذا يقول فريدريش أنجلز في الصفحتين ١٧٧ و ١٧٨ من كتابه المعروف باسم « اصل العائلة ، والملكية الخاصة والدولة » مايلي :

« لاتمثل الدولة مطلقاً قوة مفروضة من الخارج على المجتمع ، كما أنها ليست ، البتة ، « واقع الفكرة الاخلاقية » ، « صورة العقل وواقعه » كما يدعي « هيغل » ، الدولة نتاج للمجتمع في مرحلة من مراحل تطوره ، وهي تشكل الاقوار بان هذا المجتمع قد تعثر في تناقض مع نفسه بمنع عن الحل ، انه انقسم الى متضادات لا يمكن مصالحتها ، متضادات يعجز عن التخلص منها ، ولكنه أصبح من الضروري - كيلا تلتهم هذه المتناقضات هذه الطبقات المتناقضة المصالح بعضها بعضاً ، وتلتهم المجتمع في صراع مجذب - وجود قوة تخفف من حدة النزاع باقامة نفسها فوق المجتمع ظاهرياً وتحفظه في حدود « النظام » .

هذه القوة المنبثقة عن المجتمع ، لكن الواضحة نفسها فوق المجتمع ، المبتعدة اكثر فاكثر عنه ، هي الدولة . »

وفق هذه القاعدة التي أوردها أنجلز في كتابه الانف الذكر تحدد الاشتراكية العلمية - الشيوعية - مفهوم الدولة . وهي لهذا تفسر الدولة في عهود الاقطاع بكونها قوة سياسية ، قامت وتقوم لحماية طبقة الاقطاع وتيسير السبل لهذه الطبقة - طبقة الاقطاع - لاستغلال واستعباد الفلاحين .

كما وانها - أي الاشتراكية العلمية ، تفسر الدولة في عهود التنظيم الرأسمالي ، بكونها - أي الدولة - القوة السياسية التي تحمي الطبقة الرأسمالية وتهيء لهذه الطبقة الاجواء التي تمكنها من متابعة استغلال الطبقة العاملة - البروليتاريا -

كما ورد يفهم أن الدولة، في نظر الاشتراكية العلمية ، هي أداة لرغام بيد الطبقة الحاكمة ، وأنها قوة ساحقة ، ماحقة ، تسحق وتمحق كل عقبة تعترض سبيل الطبقة الحاكمة الى جني الفوائد والمكاسب .

وترى الاشتراكية العلمية - الشيوعية - أنه لما كانت الطبقة العاملة - البروليتاريا - هي التي تشكل الاكثوية الساحقة من الامة ، وهي ايضاً التي تنتج كل ما في المجتمع من فوائد وضرورات للحياة والعيش ، لذلك فان العدالة في ايسر مفاهيمها تقضي بان تنبثق الدولة عن الطبقة العاملة ، لتدير وتوجه الفعاليات الاقتصادية الوجهة التي تؤمن تحقق مصلحة الطبقة العاملة ، لهذا تنادي الاشتراكية العلمية - الشيوعية - بضرورة ثورة الطبقة العاملة على كل دولة غير مبنية عن الطبقة العاملة ، بغية الاستيلاء على الحكم والسلطان .

وترى الاشتراكية العلمية في الثورة ، أو بالاحرى ، في الحرب الاهلية الوسيلة الوحيدة للطبقة العاملة للوصول الى الحكم وادارة المجتمع في كل مرافقه لصالح الاكثوية الساحقة من الامة ، هذه الاكثوية المؤلفة من الطبقة العاملة « البروليتاريا » . وقد ورد هذا الامر واضحاً صريحاً في « البيان الشيوعي » الموقع من قبل فريدريش انجزل وكارل ماركس ، حيث يقولان مايلي :

« وحين نخطط مراحل تطور البروليتاريا بصورة اجمالية ، فاننا نرسم في الوقت نفسه تاريخ الحروب الاهلية ، الاكثر أو أقل خفاء ، المحتمدة في قلب المجتمع حتى الساعة التي تنفجر فيها بشكل ثورة علمية ، فيضع انهيار البرجوازية الاسس لسيطرة البروليتاريا . ان المرحلة الاولى في ثورة العمال ، كما رأينا آنفاً ، هي رفع البروليتاريا طبقة سائدة ، الاستيلاء على الديمقراطية .

وستستخدم البروليتاريا سيادتها السياسية لانتزاع رأس المال من البرجوازية شيئاً فشيئاً ، ومركزة جميع أدوات الانتاج في أيدي الدولة ، يعني في ايدي البروليتاريا المنظمة في طبقة حاكمة ، وزيادة كمية القوى المنتجة وانماؤها باسرع ما يمكن . »

أما لينين الذي أسس أول دولة تقوم على أسس الاشتراكية العلمية - الشيوعية - فإنه يعرف الدولة بما يلي وذلك في الصفحة ٣٧ من كتابه « الدولة والثورة » « ان الدولة هي التنظيم الخاص للقوة ، انما تنظم العنف لاضطهاد طبقة معينة . فماهي اذن الطبقة التي ينبغي للبروليتاريا أن تضطهدها ؟ انما طبعا الطبقة المستثمرة الوحيدة . يعني البرجوازية . لاحتاج الشغيلة للدولة الاكي يقهروا مقارمة المستثمرين ، ولكن قيادة هذا القمع وتحقيقه عمليا لا يمكن ان يقوم بهما سوى البروليتاريا ، وهي الطبقة الثورية حتى النهاية ، الطبقة الوحيدة القادرة على توحيد سائر الشغيلة وسائر المستثمرين - بفتح الميم - في النضال ضد البرجوازية خلعهما التام .

ويستطرد لينين في كتابه الآنف الذكر فيتحدث عن عقيدة نضال الطبقات فيقول في الصفحة ٣٩ منه مايلي :

« ان عقيدة نضال الطبقات المطبقة من قبل ماركس على الدولة والثورة الاشتراكية تقود بالضرورة الى الاعتراف بالسيطرة السياسية للبروليتاريا ، بدكتاتوريتها ، يعني بسلطة لا تقاسم احدا فيها ، سلطة تعتمد بصورة مباشرة على القوة المسلحة للجماهير . ان قلب البرجوازية لا يمكن تحقيقه سوى بتحويل البروليتاريا الى طبقة سائدة ، قادرة على سحق المقاومة التي لامفر منها ، المقاومة اليائسة التي سببها البرجوازية ، وعلى تنظيم سائر الجماهير العاملة والمستثمرة - بفتح الميم - في سبيل نظام اقتصادي جديد . »

وتقول الاشتراكية العلمية - الشيوعية - أنه وعندما تستولي البروليتاريا على الحكم فيتوجب عليها آنذاك ان تحطم آلة الدولة الممثلة في الجهاز البيروقراطي ، وان لا تنقل هذا الجهاز من يد الى اخرى حتى ولو كانت تلك اليد يد البروليتاريا بالذات ، وذلك لان تنظيم الجهاز البيروقراطي الموروث قد تم تصميمه وفق المصالح التي أملتها الدولة السابق وجودها لوجود دولة البروليتاريا .

وهذا يقول لينين في كتابه المعروف باسم الدولة والثورة ، وذلك في الصفحة

٦٠ منه :

ان تحطيم هذه الآلة (الآلة البيروقراطية) وتدميرها ، هذا ما كان حقاً في صالح الشعب ، صالح غالبية ، العمال ومعظم الفلاحين : هذا هو « الشرط المتقدم » للاتحاد الحر بين الفلاحين الفقراء والبروليتاريين .

ويستند لينين في عقيدته هذه على الخطاب الذي خطه ماركس بتاريخ ١٢ نيسان ١٨٧١ الى كوجلمان ، حيث جاء فيه مايلي :

« اذا ما أعدت قراءة الفصل الاخير من كتابي ١٨ برومير ، فسوف تجدني اؤكد ان الثورة في فرنسا ينبغي لها قبل كل شيء ان تجوب لانقل الآلة البيروقراطية والعسكرية الى ايد اخرى - الامر الذي حدث على الدوام حتى الآن - بل ان تحطمها » .

ويستدل كارل ماركس في خطابه الى كوجلمان فيقول :

« ههنا بالضبط يقوم الشرط المتقدم (تحطيم الآلة البيروقراطية) لكل ثورة شعبية حقاً في القارة . وهذا أيضاً ما يحاول ان يحققه رفاقنا الابطال في الحزب في باريس » . مما ورد يفهم ان الاشتراكية العلمية - الشيوعية - نقول بان على البروليتاريا حين وصولها الى السلطان ان لا تقتلع جذور الانظمة السابقة لوجود حكمها بل ان عليها ان تدمر جميع مشتقات هذه الانظمة تدميراً كاملاً بغية احلال مشتقات اخرى تكون منها البروليتاريا الجوهر والمظهر معاً ؛ فالجيش يجب ان يستبدل بالشعب المسلح ، والبرلمان يجب ان ينتخب من قبل « الكومونات » او السوفيات - الجمعيات .

وترى الاشتراكية العلمية - الشيوعية - ان وصول البروليتاريا الى الحكم لا يعني فقط فرض الطبقة العاملة طبقة سائدة ، بل إنما يعني بالضرورة ايضا زوال التركيب الطبقي في المجتمع ، وقيام دولة لا تعرف نظام الطبقات المألوف تاريخياً وبذلك يتلاشى كل تعارض او تناقض يمكن ان يصيب او يكتنف التركيب المجتمعي في الدولة . وعندئذ تتطور الدولة فتصبح جمعية .

وبذلك يقول ماركس في كتابه المعروف باسم « بؤس الفلسفة » (هذا

الكتاب الذي رد فيه ماركس على كتاب « برودين » المعروف باسم « فلسفة
البؤس » (اقول يقول ماركس في الصفحة ٢٥١ منه عن تطور الدولة
البروليتارية مايلي :

« ان الطبقة العاملة ستستبدل ، في مجرى تطورها ، المجتمع البرجوازي القديم
بجمعية تنفي الطبقات وتضادها ، ولن تكون (اي الدولة) عندئذ سلطة سياسية
بكل معنى الكلمة ، مادامت السلطة السياسية هي بالضبط التعبير الرسمي عن تضاد
الطبقات في المجتمع البرجوازي » . وتقول الاشتراكية العلمية -- الشيوعية -- بان
دولة البروليتاريا عندما تبلغ آخر مرحلة من مراحل تطورها فعندئذ تنفي الدولة
بكل ما لها من مفهوم ويصير الاشتراكيون العلميون على كلمة فناء لا الغاء
وعندئذ تصبح « الدولة » (وذلك اذا سمح لنا باستعمال كلمة « دولة ») اذ ان
الشيوعية لا تعترف بوجود دولة (اقول تصبح الدولة البروليتارية في آخر
مراحلها دولة شيوعية تنفي فيها موجبات قيام الدولة واسماها .
ويتم هذا التطور الآنف الذكر -- فناء الدولة -- حينما تتحقق الشروط
الاربعة التالية :

- أ - زوال الطبقات زوالا تاما وزوال بقاياها وعوالمها وامتداداتها .
- ب - تطور هائل وغو عظيم في القوى المنتجة .
- ج - تخطي تقسيم العمل الموزع بين اعمال مادية واعمال عقلية .
- د - سعادة الانسان الحر في مجتمع حر .

وقد وصف فريدريش انجلز فناء الدولة من وجهة النظر الشيوعية وضعا دقيقا
في كتابه المعروف باسم « ضد يوجين دوهرنج » وذلك من الصفحة ٣٦٠ الى
الصفحة ٣٦٢ ، وقد جاء في وصفه ذاك مايلي :

« تستولي البروليتاريا على سلطة الدولة وتحول وسائل الانتاج باديء ذي بدء
الى ملكية الدولة . ولكنها بذلك تقضي على نفسها بصفقتها بروليتاريا ، تقضي على
سائر الفوارق الطبقيّة وسائر التضادات الطبقيّة وتقضي بالتالي على الدولة بصفقتها

دولة . ان المجتمع كما هو ، المتحرك عبر تضادات الطبقات ، كان يحتاج في كل عصر الى الدولة ، يعني الى منظمة خاصة بالطبقة المستثمرة - بكسر الميم - في سبيل الحفاظ على شروط انتاجه الخارجية . وعلى الاخص في سبيل الحفاظ بالقوة على الطبقة المستثمرة - بفتح الميم - في شروط الاضطهاد التي يتطلبها اسلوب الانتاج (العبودية ، نظام الرق ، العمل المأجور) .

ويستمرس انجاز فيقول :

« لكن الدولة اذ تصير أخيراً الممثل الفعلي للمجتمع بأسره فانها تصبح هي نفسها زائدة عديمة النفع . ويستطر انجاز قائلاً :

« ان الدولة لم تلغ انها تفتى . »

وقبل ان اختتم بحثي هذا عن الاشتراكية العلمية - الشيوعية - في نظرتها الى الدولة وأسباب نشأتها ووظائفها ومن ثم فنائها أرى من المفيد ان أستعرض استعراضاً سريعاً عاجلاً للأسس الفلسفية التي تنهض عليها الاشتراكية العلمية - الشيوعية - .

تستند الاشتراكية العلمية - الشيوعية الى فلسفة تعرف بفلسفة المادية الديالكتيكية .

وهذه الفلسفة تحكمها وتوجهها ثلاثة قوانين حديدية وهي :

القانون الاول : قانون وحدة المتناقضات .

ينص هذا القانون على ان التناقض هو ينبوع كل حركة وحياة في العالم ، ويقول إن كل شيء يوازي نفسه وينفيها معاً .

فالزهرة ، مثلاً ، هي زهرة ونفي للزهرة في الوقت ذاته ، وذلك بقدرة الزهرة على ان تصبح ثمرة .

وفي حال اشتداد المتناقضات واشتداد صراعها في كائن ما ، مجتمع أو دولة ، ينتاب آنذاك المجتمع أو الدولة تفكك ومن ثم انهيار فتلاش فزوال ، مفسحاً

الطريق لقيام دولة أخرى أو مجتمع آخر .
وكان أول من اكتشف هذا القانون هو الفيلسوف الالماني هيغل .

القانون الثاني : قانون العبور من الكمية الى الكيفية :

ينص هذا القانون على ان كل تبدل يطرأ على المجتمع يكون بادىء ذي بدء تبديلاً كمياً ثم يزداد هذا التبدل حتى يصل الى ما يسميه هيغل « بالعقدة » ، أي حيث ان الشيء (المجتمع) لا يقدر أن يتحول فيبقى ذاته وهذا مما ينافي القانون الاول - قانون وحدة المتناقضات - وهنا يحدث انفجار (أي حين وصول التبدل الكمي الى العقدة) فينشأ عن هذا الانفجار تبدل كيفي ، أي أن التنظيم الرأسمالي عندما يبلغ أعلى درجاته ، وهي الاحتكار ، عندئذ يبلغ آخر درجات انحلاله ، فتحدث ثورة بوليتارية ، تبدل التنظيم الرأسمالي الى تنظيم اشتراكي ، وهذا التبدل ناشئ عن كون « كم » التنظيم الرأسمالي وصل العقدة ، فانفجر فأدى انفجاره الى تغيير في « الكيف » في المجتمع .

ويضرب الاشتراكيون العلميون - الشيوعيون ، للتدليل على صحة هذا القانون ، مثلاً بالماء ، فيقولون إنك اذ ارتفعت بدرجة حرارة الماء الى مافوق درجة المئة ، فعندئذ يتحول الماء الى بخار .

القانون الثالث : قانون نفي النفي :

يحدد هذا القانون القضية والنقيض والمركب :

« THESE, ANTITHESE, SYNTHESE »

يقول هذا القانون ان القضية (These) تنهار تحت تأثير المتناقضات التي تقوم عليها وتكتنفها ، وفي انهيارها هذا تخلي الطريق ، او بالاحرى المسالك ، للنقيض (Antithese) وبذلك يصبح النقيض نفياً للقضية ، ويحاول النقيض (نفي القضية) أن يوفق بين المتعارضات التي تكتنف وجود القضية (These) غير أنه لا يوفق في ذلك ، فيرت عندئذ النقيض (Antithese) عن القضية عناصر النزاع وأسباب الصراع . وعندما يبلغ الصراع والنزاع في النقيض ذروتها ،

أي عندما يبلغا « العقدة » ، يحدث الانفجار (الثورة) ليطيح بالنقيض ويحل المركب (Synthese) محل النقيض ، وبذلك ينفي المركب نفي القضية في النقيض فيصبح عندئذ المركب نفيًا لنفي القضية .

وهذا ما يسمى بقانون نفي النفي .

ويضرب الاشتراكيون العلميون - الشيوعيون على ذلك مثلهم التقليدي ، مثل البذرة التي تصبح شجرة ، فيقولون :

« الشجرة التي تعطي الثمرة هي نفي للبذرة ، والثمرة الناجمة عن الشجرة هي نفي لها ، فهي - أي الثمرة - اذن نفي للنفي

ويطبق الاشتراكيون العلميون - الشيوعيون - هذا المثل على التطور الاجتماعي أيضاً فيقولون : ان النظام الرأسمالي قد ألغى المتناقضات في النظام الاقطاعي ، غير أنه لم يوفق في التخلص من آثارها الاجتماعية ، فاكتنفه نتيجة لذلك مناقضات أخرى وستؤدي هذه المناقضات الى هدم النظام الرأسمالي وانهاره ، ويؤدي هذا الانهيار الى قيام النظام الاشتراكي .

وبذلك يعتبر الاشتراكيون العلميون - الشيوعيون - النظام الاقطاعي بمثابة القضية (These) والنظام الرأسمالي بمثابة النقيض (Antithese) والنظام الاشتراكي بمثابة المركب (Synthese) . هذا ملخص مقتضب لفلسفة المادية الديالكتيكية التي تنهض على أسسها الاشتراكية العلمية - الشيوعية - من حيث هي عقيدة ونظام . والآن سأنقل بالقاريء الى استعراض الاسس التي تقوم عليها الاشتراكيات الاخرى (غير الشيوعية) .

ب - نظرة الاشتراكية (غير الشيوعية) في الدولة :

اذا أردت أن اكون دقيقاً في بحثي هذا ، فالامانة تلزمني أن أبدأ البحث بقولي : إنه ليس هناك اشتراكية واحدة موحدة الاساليب والوسائل ، متفقة في العقائد والايدولوجيات ، بل أن هناك اشتراكيات ، أحيانا تكون متفقة في الاساليب

والوسائل والعقائد ، وأحيان أخرى تكون متعارضة متناقضة . وسبب ذلك
انما يعود الى ان الاشتراكيات الأخرى - ماعدا الشيوعية - اشتراكيات غير ذات
فلسفة واضحة وايدولوجية تنبع من نظره فلسفية متكاملة ، في الوجود الكوني
واسبابه ودوافعه . (Welt - Anschau)

وقد شبه أحدهم الاشتراكية بنبتة نمت وترعرعت وكبرت ومن ثم أصبحت
شجرة باسقة متعددة الفروع متشابكة الأغصان .

والحق أن هذا التشبيه جد موفق ، إذ أنه يمثل واقع الاشتراكيات في العالم
اليوم . فهناك مثلاً حزب العمال ، وهناك الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، وهناك
الحزب الاشتراكي المسيحي ، وهناك الحزب الاشتراكي الوطني الخ . . .

غير أن جميع هذه الأحزاب الاشتراكية تلتقي عند نظرة واحدة ، وهي أن
العامل الاقتصادي ذو اثر بالغ الأهمية في نشوء الدولة والانظمة السياسية المتعاقبة
في التاريخ . ولما كان من المتعذر علي أن بحث أبين دفتي هذا الكتاب المفاهيم المختلفة
للإشتراكيات في العالم ، وذلك لان مثل هذا البحث يحتاج الى مجلدات ومجلدات
ضخام ، ولما كان العالم العربي لم يشهد حتى اليوم قيام حزب نستطيع أن نصفه
وننعتة بالحزب الاشتراكي ونحن مطمئنون فكراً ووجداناً لذلك ، فسأقصر بحثي
على الاشتراكية البريطانية ، إذ أن هذه الاشتراكية تعتبر وبحق أكثر الاشتراكيات
الأخرى وضوحاً في الايدولوجية والمناهج .

تري الاشتراكية البريطانية أن مبدأ حرب الطبقات الذي تنشأ عنه الدولة في
نظر الماركسية هو مبدأ خاطيء ، وأن الاشتراكيين الذين ينادون بمثل هذا
المبدأ هم جماعات مثلهم مثل الجماعات الممعة في التأخر الديني التي تعبر عن علومها
اللاهوتية بعبارات استعملت قبل أن يعرف علم طبقات الأرض . كما وأن الخصم
الحقيقي للإشتراكية هو ذاك الذي ينادي بمبدأ الطبقة الواحدة .

وبذلك يقول « رمزي مكدونالد » الرئيس السابق للحكومة البريطانية
« وزعيم الدولة الثانية » في الصفحة (١٠٣) من كتابه المعروف باسم « الحركة

الاشتراكية » وترجمة محمود حسني العراقي ، مايلي :

« ان نظرية حرب الطبقات هي ميراث آخر يرجع الى النظريات الناقصة التي كانت تقود الاشتراكيين الاوائل . وهذا وصف سطحي لاحدى الحقائق التي لدينا منها صور في كل يوم . يتحد الاجراء في نقابات ، ويتحد اصحاب العمل في اتحادات ، وتعلن الاضرابات ، وتوقف الاعمال ، وتقوم الاضرابات بشأن الاجور وساعات العمل والاستغلال وغير ذلك . فيميل الاغنياء للتجمع معاً ، ويميل الفقراء الازكياء العاملون للتجمع معاً . فتتحرك الهيئات التي تنظمت للفصل ، فيجد المستأجرون اصحاب الاراضي والملاك على قدم الاستعداد لحماية ايراداتهم والاعلان في مهاجمتهم تهديداً للبناء الاجتماعي ، وهذا الطريق الذي يسير فيه حرب الطبقات » .

غير ان « رمزي مكدونالد » مع اعترافه بان مثل هذه الحال تؤدي الى الحرب المحتومة بين الطبقات ، غير انه يرى في هذه الحرب وسيلة غير مجدية وغير شرعية ، وبالتالي ضارة لذلك يستوكل « مكدونالد » بمعالجة هذا الامر الناشيء فينادي في الكتاب ذاته وفي الصفحة ذاتها بما يلي :

« على الاشتراكي ان يتدبر قيمة هذه الحقائق من اجل ذبوع دعوته ومن اجل تحقيق دولته السامية » .

ثم يتساءل « مكدونالد » قائلاً :

« ماذا تعني هذه الحقائق (الحقائق التي تؤدي الى حرب الطبقات) والى أي شيء تشير ؟ »

ويجيب مكدونالد على اسئلته تلك بقوله :

« انها تعني شيئاً واحداً في غاية الوضوح . فقيام حرب الطبقات ليس بذي أهمية للاشتراكية ، الا عندما توقف الخصومة الذهنية والادبية ، لان هذه الخصومة هي الوحيدة التي تؤدي الى الانقلاب التجديدي ، وهذا يفسر سبب حكم الاشتراكي على عدم صلاحية هذا الكفاح (حرب الطبقات) الذي بات مبعوضاً

لانه يخلق حالات ظالمة ويؤدي الى الفوضى ، ويحيب تحقيق دولة الهناء والسلام السامية التي نصبها الروح البشرية الهادية ، على الدوام كغرض أمامها . «
ثم يستطرد « رمزي مكدونالد » فيصف القوة المحركة للاشتراكية في المجتمع بما يلي :

« ان القوة المحركة للاشتراكية اذن ليست الكفاح (حرب الطبقات) ، ولكنها العقل المبدع والاحساس الادبي الذي قضى بعدم صلاحية الكفاح . ان النزاع حادث في تطور التنسيق الاجتماعي ، وعامل التطور ليس اقتصاديا ولكنه ذهني وأدبي . وعليه فليس في مكنة الاشتراكي ان يخاطب احساس الطبقة أو تغرضها ، بل يلزمه في الواقع أن يبتعد عن هذا ، لان أي نصر يكسبه نتيجة لميله مع حزب آخر في الكفاح سيثبت مايرغب في استئصاله . فالنداء الصالح لطبقة نداء للنظام القائم سواء أكان موجهاً للاغنياء أم للفقراء . «
مما ورد يستنتج أن الاشتراكية ، والاشتراكية البريطانية على وجه أدق ، تنبع في فلسفتها من نظرة هيغل « في الدولة » أي أن الدولة كما يقول « هيغل » هي واقع الفكرة الاخلاقية وهي على حد تعبيره صورة العقل وواقعه ، وهي عند « مكدونالد » نتاج العقل المبدع والاحساس الادبي .

وهذه الحقيقة الواردة أعلاه هي التي تشكل التعارض الجذري القائم بين الاشتراكية - الاشتراكية البريطانية - وبين الاشتراكية العلمية - الشيوعية - ووفق هذا المبدأ عينة ترى الاشتراكية البريطانية التي تريد أن تقيم - على حد تعبير مكدونالد - الدولة السامية ، ان الوسيلة الوحيدة لبلوغ الطبقة العاملة مراتب السلطان والتربع عليها ليست الثورة ، بل انما هي الديمقراطية ، الديمقراطية في مفهومها للحرية ، حرية الانتخاب ، اذ ان الحرية السياسية تقود بالتالي الطبقة العاملة الى فرض سلطانها وتسليمها لمقاييد الحكم .

وبهذا يقول مكدونالد في كتابه الانف الذكر وفي الصفحة ٧٨ منه مايلي :
« ان الروح الاشتراكية ، ووجهة نظرها ، قد يثير الخصوم دعاية عنيفة ضدها ،

الا ان كل احزاب الدولة لابد ان تأخذ بارشاداتها وان تسن قوانينها طبقاً لها .
ثم يتساءل مكدونالد قائلاً :

وهل يغير ميل التيار في المستقبل وجهته ؟ (اي هل يأتي يوم ترفض احزاب
الدولة العمل بروح الاشتراكية) ، ويجيب مكدونالد على السؤال الآنف
الذكر بقوله :

« ان هذه مسألة تخمينية يصرف فيها الكسالى كثيراً من الوقت في الجدل .
ثم يستطرد مكدونالد مقررأ مايلي :

« ان الاتجاه يجري اليوم واضحاً وقوياً ، لا لأن الناس يؤمنون
بالاشتراكية ، ولكن لان الاشتراكية نتيجة الديمقراطية . »

مما ورد يستنتج أن الوسيلة الوحيدة ، لتحقيق الدولة الاشتراكية ،
ليست في حرب الطبقات ، بل انما هي النتائج الطبيعي للديمقراطية السياسية ،
وهذه النقطة تشكل التعارض الجذري الثاني بين الاشتراكية العلمية - الشيوعية -
وبين الاشتراكية البريطانية .

ويحدد مكدونالد واجبات الدولة الاشتراكية في الحقلين الادبي والمادي بمايلي :

١ - ان الاشتراكية من الناحية الادبية عبارة عن وسيلة لبناء الحرية
الفردية الحقة .

٢ - ان الاشتراكية من الناحية الاقتصادية عبارة عن نظام سيوضع تحته
نهاية للاستغلال . وهذا النظام هو الذي سيضع الحدود لحيازة الملكية الخاصة .
لاشك ان القاريء يلاحظ بما جاء أعلاه ، وخاصة في تحديد واجبات الدولة
الاشتراكية في الحقل الاقتصادي ، التعارض الجذري الثالث بين الاشتراكية
العلمية - الشيوعية - وبين الاشتراكية البريطانية ، وهذا التعارض يمثل في
اعتراف الاشتراكية البريطانية بحق الفرد في الملكية الخاصة ، فالشيوعية كما لاشك
يعرف القاريء الكريم تذكر الملكية الخاصة وتعتبرها وسيلة من وسائل استغلال
الانسان لاختيه الانسان .

ويحاول « مكدونالد » أن يبرر اعتراف الاشتراكية البريطانية بحق الفرد في الملكية الخاصة ، معتمداً على كاوتسكي الذي ينعتة خطأ بأنه أصلب الماركسيين . وكان كاوتسكي هذا الذي يعتبره لينين من أخطر المنحرفين عن الماركسية قد أقر حق الافراد بتملك حداثتهم وبيوتهم الخاصة ، غير أنه (أي كاوتسكي) طالب في الوقت ذاته بوضع نظام ضرائبي خاص يمنع الدخل غير المكتسب . أما الخلاف الجذري الرابع بين الاشتراكية العلمية - الشيوعية - وبين الاشتراكية البريطانية ، فهو ناشيء عن اختلاف وجهتي النظر بينهما في سياسة توزيع المنافع الاقتصادية .

فبينما ترى الاشتراكية العلمية - الشيوعية - أن سياسة التوزيع يجب أن تقوم على أساس كون الانسان انسانا يعطيه الحق بالحصول على جميع احتياجاته المجتمعية ، وان هذا الحق يجب ان لا يقاس بمقدرة الانسان على تقديم الخدمات ، تقول الاشتراكية البريطانية بان ما يقدمه الفرد من خدمات هو الذي يقرر مقدار ما يستحق الفرد من منافع .

ومكدونالد واضح في هذا الامر كل الوضوح ، وذلك حينما يقول في الصفحة ٨٧ من كتابه الاتف الذكر :

« الاشتراكيون يفكرون في التوزيع عن طرق الكسب الشخصي ، والشيوعيون يفكرون في التوزيع عن طريق الحقوق الانسانية في الحياة . »

قد يتساءل القائل لماذا تعمدت أن استعين « بمكدونالد » فقط حين بحثي موضوع الاشتراكية - غير الشيوعية - والدولة ، وقد يسأل ايضاً لماذا لم استعن بآراء وتفسيرات العالمين الاشتراكيين البريطانيين « سديني وبياترس وب » وعلى هذا السؤال أجيب :

لقد تعمدت هذا الامر ، أمر الاقتصار على آراء « رمزي مكدونالد » في الاشتراكية وشروحه لها ، وذلك بسبب أن رمزي مكدونالد هو بالاضافة الى كونه أحد الفقهاء البارزين في ايدولوجية الاشتراكية البريطانية ، قد شغل

ايضاً منصب رئاسة مجلس الوزراء البريطاني، وهذه الحقيقة أضفت على « مكدونالد » صفة لم تضافها على « سدي » أو « بياترس وب » ، اذ انها مكتتبه من تكوين نظرياته في الاشتراكية على ضوء خبرته في الحقلين النظري والتطبيقي . أما فيما يتعلق بالجهاز البيروقراطي والعسكري للدولة ، فان الاشتراكية البريطانية لاتتحدث عنه اطلاقاً ، ولا تقرر أن الجهاز البيروقراطي والعسكري هو أحد اشتغاقات التنظيم الرأسمالي للمجتمع ؛ ولا تذهب ، كما ذهب الماركسية ، فتنادي لاضرورة انتقال هذا الجهاز من أيدي طبقة الى أيدي طبقة أخرى فحسب ، بل بضرورة تدميره تدميراً ساحقاً ايضاً . وبذلك توافق الاشتراكية البريطانية موافقة ضمنية على بقاء الجهاز البيروقراطي والعسكري الذي كان يعمل خلال مرور المجتمع بمرحلة التنظيم الرأسمالي .

وهذا الامر بما يشكل التعارض الجذري الخامس بين الاشتراكية العالمية - الشيوعية - وبين الاشتراكية البريطانية .

أضف الى ذلك ان الاشتراكية البريطانية لاتقول بفناء الدولة كما تقول به الشيوعية ، بل ترى في الدولة حقيقة أبدية . وكل مايطرأ على علاقات الفرد بالدولة في ذروة الدولة الاشتراكية السامية على حد تعبير مكدونالد ، هو ما يصفه مكدونالد في الصفحة ٧٧ من كتابه الآنف الذكر بما يلي :

« وهذا الانقلاب الجوهرى فى الروح السياسية (يعنى مكدونالد التجسد الكامل للدولة الاشتراكية) التى تأتى بالتحريض للشعب العادى ، والتى تجعل الديمقراطية شيئاً أكثر من « هيئة حكومية » فتقلب العلاقة بين الدولة والفرد . لأن الناس لما يفكرون فى الدولة كسلطة تقول « لنعمل هذا معاً » بدلاً من السلطة التى تقول « يجب ان لاتعمل هذا » ، يتغير الموقف من حيث النظر الى المستقبل . اذ يصير التقدم مسألة تعاون مشترك بدلاً من نتيجة كفاح من أجل الحياة . »

وأخيراً يقرر « ماكدونالد » أن الاشتراكية والديمقراطية أمران مترافقان

متلازمان لا يفتقران أبداً ، ويعبر عن ايمانه هذا بأسلوب شعري طريف أرى
من المستلح نقله :

« اذ لما كانت الحياة رفيقة لساعات الربيع ، حيث في الربيع تقترب الشمس
الى الارض فيسخن النسيم فتزدهر جوانب الطريق ، فذلك الاشتراكية رفيقة
الديمقراطية . وسيعتاد الناس المبادئ الاشتراكية حتى ولو تصوروا أنهم يتجنبونها
لانهم في الواقع يتبعونها . »

ج — نظرة الفاشستية في الدولة :

ترى الفاشستية ان الدولة تنشأ رغبة في التوفيق بين الطبقات المتعارضة
المصالح في المجتمع ، وترى الفاشستية ايضاً ان الواجب الاساسي للدولة يتركز
على ايجاد توازن بين القوى الاجتماعية . وتعتبر الفاشستية وجود الطبقة الوسطى
امراً حيويًا وبالغ الأهمية ، وذلك لان الطبقة الوسطى تشكل في نظر
الفاشستية عازلاً يمنع اصطدام الطبقة الفقيرة في المجتمع بالطبقة الغنية المالكة
لوسائل الانتاج ، وترى الفاشستية ان من وظائف الطبقة الوسطى بالاضافة
الى كونها قوة عازلة بين الطبقتين الفقيرة والغنية ، اقول ترى الفاشستية
ان من الوظائف الحيوية للطبقة الوسطى فتح مجالات التقدم الاقتصادي
والسياسي امام الطبقة الفقيرة .

ولذلك تؤمن الفاشستية بان التركيب الطبقي في المجتمع امر حيوي
لبقاء المجتمع وشم شرط اساسي لوجود الدولة .

وتؤمن الفاشستية بان السلطة تنحصر دائماً وابدأً بأيدي فئة قليلة ،
وان التبدلات التي تطرأ على الانظمة السياسية انما تجيء نتيجة لما يسمى
بقانون تداول الصفوة الممتازة للحكم . وان هذا القانون يقرر ان كل
ما هناك من خلاف بين نظام ديمقراطي وآخر ديكتاتوري ، فانما
هذا الخلاف لا يتعدى المظاهر او القشور الى اللب ، وذلك لان

الحكم والسلطة في كلا النظامين مركزان في أيدي قليلة .
وتقول الفاشستية انه من الوهم ان يفهم من « حكومة الفرد » انها حكومة يديرها فرد واحد ، لان الفرد لا يستطيع ادارة الآلة الحكومية ولا كسب النفوذ ما لم تؤيده « طبقة حاكمة » ، كما وانه من الوهم ايضاً ان يفهم من كلمة الحكومة النيابية ان الكتلة الغالبة هي التي تدير دفعة الحكومة بالاصالة او بالنيابة ، فليس بالصحيح ان الناخبين اتفقوا على اختيار نائب عنهم ، وانما الصحيح ان قلة صغيرة جعلتهم ينتخبونه .

وتقول الفاشستية ان لكل طبقة من الطبقات شعارات تدعو الجماهير الى الالتفاف من حولها ، وتستخدم هذه الشعارات لتدعيم سلطانها ، واقتناع الجماهير بصلاحها .

وتقول الفاشستية انه ليس من الضروري ان تكون هذه متفقة والمنطق والحق ، بل انها يكفي ان تكون قديرة على تجنيد الجماهير من حولها لدعم سلطان « الطبقة الحاكمة » .

اما بقاء « الطبقة الحاكمة » فمرهون ببقاء افرادها متمتعين بصفات القيادة والزعامة .

وتقول الفاشستية بان خير الطبقات الحاكمة هي تلك التي تخدم المصلحة العامة ولا تجوز فيها المطامع الشخصية على المصالح الكبرى .

وتقول الفاشستية ان تحقق الخير لا يتم بواسطة تشريع الدساتير او سن القوانين وانما يتحقق الخير في الطبقة الحاكمة بفضل القوى الاجتماعية التي تسند الطبقة الحاكمة في توازنها ، ومن ثم بفضل الحصانة الشرعية ، وتعني الحصانة الشرعية في مفهوم الفاشستية قدرة القوى الاجتماعية على الوقوف ومقاومة المطامع الشخصية التي قد يعمل لها الرؤساء والحكام .

وسبب نشوب الثورات في مفهوم الفاشستية يعود اولاً واخيراً الى اختلال التوازن بين القوى الاجتماعية ، بحيث تطفئ قوة اجتماعية اخرى على بقية القوى .

وتحدد الفاشستية القوى الاجتماعية بمايلي :

- ١ - قوة العقيدة - ٢ - قوة الرأي - ٣ - قوة العرف - ٤ - القوة العسكرية - ٥ - القوة الزراعية - ٦ - القوة الصناعية - ٧ - القوة التجارية - ٨ - قوة العمل ، وقوى اخرى ثانوية غير تلك .

وهذه القوى في نظر الفاشستية تدخل في التركيب الاجتماعي بنسب متفاوتة ، ووظيفة الدولة ان توازن بين هذه النسب في المجتمع .

اما شكل الحكم فيجب ان يكون مطلقاً بكل ما لكلمة الاطلاق من معنى ومفهوم ، وبهذا يقول الفيلسوف الفاشستي « دي جورمونت » مايلي :

« لو اتيسح لنا ازالة القوانين البتة لاصبح ارتقاء المتفوقين الممتازين هو القانون الوحيد ، واصبح حكمهم المطلق المشروع غير منازع فيه ، فالحكم المطلق لازم لكبح البلهاء ، والانسان الذي لاذهن له عضاض »

ويوافق الفيلسوف الفاشستي الايطالي « جاتيانو موسكا » (١٨٥٨ - ١٩٤١)

على هذا الرأي ؛ غير انه يقترح استبدال « كلمة » المتفوقين الممتازين « بكلمة » الاقوياء ، ولفظة البلهاء بلفظة الضعفاء .

بماورد يستنتج ان الفاشستية هي الرأسمالية المسلحة بفلسفة القوة « نيتشه » وباخلاقية « ميكيافلي » وهي لذلك متجردة من كل معنى انساني .

اني لا استطيع ان اختتم بحثي في الفاشستية قبل ان اورد للقارئ الكريم تعريف ازوالد شبنجلر الفيلسوف النازي للدولة ، فاسمع ايها القارئ هذا التعريف الذي تقشعر منه الابدان وتتأفف منه كل نفس انسانية ! وقل بربك هل تستطيع بعد ان تقرأه ان تميز بين المجتمع والغابة ؟ ! يقول شبنجلر في تعريف الدولة مامعناه :

« ان الدولة ماهي الا الصورة ذاتها التي تتخذها الحركة التاريخية ، فالتاريخ هو الدولة تتحرك . فالدولة اذن حقيقة واقعية ، ويجب ان تتخذ لنفسها « صورة » وان تكون مستعدة للنضال دوماً . اما دستور الدولة فيجب ان

يكون دستور المحارب ، ولا تريد دستوراً مكتوباً على القرطاس . ان الحرب ينبوع لكل شيء عظيم ونبييل ، وكل شيء عظيم ناشئ عن الحرب واصله من الحرب ، وكل شيء وجدناه ذا معنى ناشئ عن الحرب واصله من الحرب . والدولة هي صورة الامة ، هي فكرة في حيز العمل ، هي شعب تبلورت حياته العامة على صورة « واحدة » .

والدولة هي من صنع الرجال ومن صنعهم وحدهم ، تحافظ على الجميع وتحافظ على الشرف واحترام الذات . وهي اداة الانتصار على التعدي ، تتوقع الاخطار قبل حدوثها . انها الهجوم بمعناه الكامل الحقيقي ، وهو هجوم طبيعي واضح بنفسه الى كل حياة في حدود .

ويستمرسل شبنجلر في عزف هذا اللحن المرعب حتي يقول :
« للدولة الحق في ان تثب وجودها ، وان تظهر قوتها الى حيز الوجود بالشكل الذي تراه ، وما الحرب الا ضرورة من ضرورات وجود الدولة .

د - نظرة الفوضوية في الدولة .

تبدأ الفوضوية في نظرتها (WELTANSCHAU) من حيث تنتهي الشيوعية ، أي من حيث تفتي الدولة كما يقول أنجاس . وذلك لأن الفوضوية ترى في الدولة اداة ارغامية وسلطة الزامية تقيد حرية الفرد وتحد من تمتعه بحريته ، هذه الحرية التي تراها الفوضوية الحق الازلي الابددي للانسان ، ولذلك ترى الفوضوية أن أي قيد من شأنه أن يقيد هذه الحرية هو أمر غير مشروع ومن واجب الفرد أن يثور عليه وأن يحطمه ، فهدف الانسان كان وما زال الحرية المطلقة ، والمطلقة اطلاقاً لا مدى له أو حدود .

وتفرق الفوضوية بين أسباب نشوء المجتمع والدولة فتقول ان الدولة قد نشأت نتيجة لشرور الانسان وسوء اعماله ، اما نشوء المجتمع فسيبه حاجات الانسان ، لذلك فان الدولة شر وشر مطلق والمجتمع خير وخير مطلق .

وتقول الفوضوية بضرورة توزيع المجتمع وتقسيمه الى أجزاء صغيرة ،
أو بالأحرى تفتيت المجتمع الى مجتمعات وأن على هذه المجتمعات المتفرعة من
المجتمع أن تتجنب قدر طاقتها اقامة علاقات بعضها ببعض وذلك كي تتمكن
من المحافظة على ما تسميه بالاعتدال والنزاهة ، اذ ان المحافظة على هذين الامرين
لا تتم الا في حدود المجتمع الصغير الضيق .

ومن ثم على أبناء المجتمع الصغير الضيق ، والمتفرع من المجتمع الكبير ، أن
يوزعوا الثروة فيما بينهم توزيعاً عادلاً ، وفي حالة انجاز هذا الشرط فان أبناء
المجتمع يتحررون من وساوس الحاجات اليومية - أي من شبح الخوف من
الغد ، كما ويتحررون ايضاً من البحث عن الأموال وتجميعها ، وعندئذ ينظرون
الى العمل نظرهم كما يقول الفوضوي البريطاني (وليم غودوين ١٧٥٦ - ١٨٣٦)
نظرهم الى فرصة مائعة ، أو مران يرمون من ورائه الى المحافظة على
قواهم الجسدية .

وينادي الفوضوي البريطاني « غودوين » بعدم اللجوء الى أي نوع من انواع
العنف ، وذلك لان انتصار العقل كما يقول غودوين أمر آت لا ريب فيه ،
وهذا الانتصار يمثل في سيادة المجتمع الفوضوي. وينادي غودوين ايضاً بضرورة
انشاء محكمة لا تستمد أحكامها من أية شريعة أو أي قانون ، بل انما يجب
ان تستمد أحكامها من هدي العقل .

وتفرض الفوضوية - وخاصة فوضوية غودوين - على أتباعها اخلاقيّة
صارمة ، اذ أن هذه الفوضوية لا ترمي الى تحرير الانسان بكل ما فيه من
عقل وغرائز ، بل انما ترمي الى تحرير عقله ووعيه وجعل العقل يراقب الغرائز
ويكبتها . هذه لحظة سريعة على الفوضوية ولم أرد أن أتوسع فيها وذلك لعدم
جدوى مثل هذا الامر .

والآن سأنتقل الى بحث نظرة القومية العربية في الدولة .

هـ — نظرة القومية العربية في الدولة

لم يكن هناك قبل الاسلام من وجود قومي أو عقيدة قومية تنتظم العرب في أمة موحدة المشاعر والاحاسيس . ولم يكن **الحس الجماعي** في الفرد العربي يتجاوز نطاق قبيلته الى القبائل الأخرى فالامة . بل كان الفرد العربي يرى في قبيلته أمة كاملة ويرى في رقعة الارض التي ترتادها انتجاعاً الماء والكلاً وطنه وموطنه ، عن حياضه يذود ، وفي سبيل توسيع رقعته يكافح ، ومن أجل اعلاء شأن عشيرته يمتشق حسامه ويخوض غمرات الغزوات والمعارك . وكانت كل قبيلة ترى في القبيلة الأخرى عدواً لها ومنافساً ، لذلك شأهدت الجزيرة العربية طيلة قرون طوال احتواب القبائل بعضها ضد بعض ، وغارات العشائر بعضها على بعض . وبقيت هذه الحال حتى ظهور النبي محمد (صلعم) وانتشار الاسلام في ربوع الجزيرة كدين ونظام ، ومن ثم سيطرة الاسلام سيطرة كاملة على جميع القبائل وتوحيدها في أمة واحدة واذكاء جذوة القومية في نفوس ابنائها ، ووضع هذه القومية في خدمة رسالة انسانية سامية هي الاسلام ، وهكذا قفز الاسلام بالعرب من حيث هم أمة راعية وفي الطور البدائي من التطور الى حيث هم أمة تريد أن تنشئ حضارة لتدفع بمواكب الانسانية خطوات وخطوات الى الامام ، وبهذا شهد التاريخ ولادة القومية العربية على يد دين ونظام ، دين يهدم الاصنام والآلهة التي تمثلها هذه الاصنام ، ونظام يسحق الروح القبلية ، ويتخطى بمشاعر الفرد وأحاسيسه الجماعية نطاق القبيلة او العشيرة الى نطاق الامة فالانسانية ، والانسانية بكل ما لها من شمول .

وهنا علينا أن نتساءل عما اذا كان الاسلام ، وعما اذا كانت الثورة التي شهدتها الجزيرة العربية على يد الاسلام جاءت نتيجة لصراع طبقي ، أو نتيجة للتناقض الذي كان يسود التركيب الاجتماعي في الجزيرة العربية ، أم أن الاسلام جاء اولاً وأخيراً نتاجاً لقوة خارقة ، قوة هائلة ، قوة التوق الازلي الابدی في النفس البشرية للاندفاع في الخير المطلق الذي هو الله .

جاء الاسلام ، واذا به يدعو الى الخير والخير المطلق ، ويقول :
« ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . »
جاء الاسلام واذا به يعتمد الانسان افضل مخلوقات الله فينادي :
« لقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات
وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا » .

جاء الاسلام فاذا به يأمر بالتعاون والتكافل والتعاقد فيقول :
« المؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون
عن المنكر » .

جاء الاسلام فاذا به يأمر بالمساواة بين الشعوب والامم والاجناس فيقول :
« يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ،
ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

جاء الاسلام فاذا به ينسف نظرية الحق الالهي ، هذه النظرية التي ثارت
عليها الشعوب الاوروبية عندما بدأت بدور القوميات الاوروبية تختمر في تربة
بلدان الغرب لتدفع بالنبتات القومية الى الوجود . جاء الاسلام ليقول وهو
يخاطب نبي الاسلام ورسوله :

« قل : انما ادعو ربي ولا اشرك به احدا . قل اني لاملك لكم ضراً
ولا رشداً . قل : اني لن يغيرني من الله احد ، ولن اجد من دونه ملتحداً » .

جاء الاسلام ليقرر للانسانية حقيقة لم تكتشف في اوروبا الا في اواخر
القرن الثامن عشر ، حقيقة تقول بانه ليس هناك من دم ازرق ومن دم عادي ،
وليس هناك من نبلاء واشراف ، ودهماء ووضعاء ، بل ان هناك اناسا متساوون
في كل شيء ، متساوون في الولادة ، ويجب ان يتساووا في الحياة ، لانهم
بالتالي سيتساوون في الموت ، وسيتساوون في الوقوف امام الديان الاعظم .

« ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قوار مكين الى قدر معلوم
فقدروا فنعم القادرون » .

ثم يقول في موضع آخر :
« فليَنظُر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين
الصلب والترائب » .

ثم يقول في موضع ثالث :
« ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ، ثم جعلناه في قوار مكين ، ثم خلقنا
النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغه ، فخلقنا المضغه عظاما ، فكسونا العظام
لحمًا ، ثم انشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله احسن الخالقين » .

جاء الاسلام ، لا ليوحد بين العرب ويصوغ منهم امة فحسب ، بل انما جاء
ليحمل الامة العربية رسالة الحرية والعدالة والمساواة الى الامم الاخرى ،
« وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون
الرسول عليكم شهيدا » .

جاء الاسلام ليضرب العنصرية في القومية العربية ، كي يحافظ على الصفات
الانسانية في العرب والامة العربية فاذا بمحمد يخاطب « اباذر » قائلاً :
« يا اباذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم انك لست بافضل من احمو فيها ولا اسود
الا ان تفضله بعمل » .

جاء الاسلام ليسحق الطمع والاثرة في النفس البشرية ، فاذا به يقول :
« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » .
جاء الاسلام ليعلم ان الغاية الحقيقية في الحياة للانسان لا تتمثل في السعي
الدؤوب والانهماك المزري ، والتهالك البشع على المادة بل انما تتمثل في العطاء ،
فاذا به يقول :

« واما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، واما من بخل
واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره لليسرى » .

وبهذا انتقل الاسلام بالعرب من الجو القبلي الخائق البشع ، الى جو انساني
رحب بديع مشرق ، وهكذا تكونت القومية العربية على هدي الاسلام

ومارست وجودها وفق ارشادانه لا كقوة تسخر لفرض سيطرة طبقة على المجتمع بل كقوة تتوخى وباخلاص تعميم الخير والمنافع في المجتمع ، وذلك عن طريق خلق انسان خير كريم ، او بالاحرى ايقاظ جميع النوازع الخيرة الكريمة في النفس البشرية ، وسيطرة هذه النوازع على الانسان جسداً وروحاً .

بما ورد يتضح ان نظرة القومية العربية الاولى ، هذه القومية التي ايقظها البطل القومي الاول والرسول الانساني الاعظم ، كانت ترى في الدولة جهازاً مهامه الاساسية تتركز على تحقيق امور ثلاثة

١ - التحرر الوجداني المطلق .

٢ - المساواة الانسانية الكاملة .

٣ - الشعور المرهف بالمسؤولية لدى الحاكمين .

١ - التحرر الوجداني والاستعمار .

ان الحرية الحقيقية لاتولد في معدة الانسان ، بل انما تولد في ضميره ووجدانه ، فالانسان المستعبد ضميراً ووجداناً لا يمكن ان يكون حراً ، والتحرر الوجداني ، في الفرد لا يبدأ ابداً في تحور الانسان من ظلم اخيه الانسان ، بل انما يبدأ بتحرر الانسان من النوازع الشريرة داخل نفسه ، وذلك كي يعي مسؤولياته كإنسان يعيش في مجتمع قومي ويعمل على دمج قوميته في الانسانية ، وهذا العمل لا يمكن ان يتحقق ما لم يحور الانسان ذاته من جميع النوازع الفودية والعوامل الشخصية ، هذه العوامل الممثلة بالانانية والاثرة والطمع . وعندما يحور الانسان نفسه من ظلم نفسه ، يرتفع الى المستوى الانساني الحقيقي ، ويضمن بواسطة وعيه لمسؤولياته الانسانية الحرية للآخرين .

وهنا يكمن التعارض بين نظرة القومية العربية كما حددها بطلنا القومي الاوحد (صلعم) وبين نظرات القوميات الاوروبية الاخرى .

لقد قامت القوميات الاوروبية وهي تستهدف في كل انتفاضاتها تحرير طبقة من ظلم طبقة اخرى ، او تحرير الفرد من القيود الاجتماعية ، او اقامة توازن

بين ما تسميه الفاشستية بالقوى الاجتماعية التي تتشكل منها الدولة ، وبهذا بدأت القوميات الأوروبية من حيث يجب ان تنتهي ، وبذلك لم تتمكن الحركات القومية الأوروبية من خلق الفرد الاصيل في حويته ، وسبب هذا يعود الى ان القوميات الأوروبية بدأت صراعها في سبيل التحرر الوجداني وهي لا تقصد ابدا تحرير الفرد في الامة من نوازع الشريعة ، بل انما كانت تقصد تحرير الطبقة البرجوازية في الامة من القيود السياسية والاجتماعية التي كانت تغل نشاطات البرجوازية الهادفة الى استغلال غيرها من طبقات الامة ومن ثم استعمار واستئثار الامم الاخرى وموارد البلدان الاخرى . وهذا مما يتنافى والوجدان الانساني للقومية ، اذ ان هذا الوجدان يحتم على كل حركة قومية ان تبدأ عملها وتنتهي بالتحرر الوجداني للفرد ، ومن ثم مساعدة الافراد الآخرين في الامم الاخرى على التحرر الوجداني . ولو ان الحركات القومية الأوروبية سارت في كفاحها وفق هذه القاعدة التي ذكرتها آنفاً لكانت قد وفرت على الانسانية جمعا مأمي الاستعمار ومحازيه ، ولكان موكب الانسانية قد وصل بالشعوب والامم الى مراحل تتعدى المراحل التي وصلها في وقتنا الحاضر باشواط واشواط .

قد يقول البعض ان حركات القوميات الأوروبية قد دمرت مبدأ الحق الالهي ، هذا المبدأ الذي كان يستند اليه النظام الملكي في عهود الاقطاع وفي العهود الاولى للرأسمالية ، وقد يذهب آخر فيقول ان الكثيرين من الملوك والاباطرة والسلطين قد دالوا وزالوا وان « مبدأ الحق الالهي » أصبح مثار سخرية وموضوع تفككة ، غير أننا اذا تعمقنا في الواقع الذي انتهت اليه أوروبا في التاريخ الحديث لوجدنا أن « مبدأ الحق الالهي » لا يزال المبدأ الذي تعمل به وبوجهه جميع دول العالم من شرقية وغربية .

ففي الشرق - الاتحاد السوفياتي وغيره من البلدان الشيوعية - تتمتع اللجنة المركزية للحزب بما كانت يتمتع به السلطين والاباطرة والملوك من سلطات ، ويمارس الحزب الشيوعي سلطانه وفق هذا المبدأ ، مبدأ الحق الالهي .

وفي الغرب تتمتع الطبقات الرأسمالية بما كان يتمتع به ملوك الاقطاع وأباطرة من حقوق وسلطات ، وما النظام الاستعماري الذي تمارسه الدول الغربية ، في كل اشكاله من انتداب ووصاية ، سوى عمل مستمد من المبدأ ذاته ، « مبدأ الحق الالهي » هذا المبدأ الذي يترك للقوة أن تفسر الحق .

اما القومية العربية الاولى ، فانها عمدت أولاً وأخيراً - كما قلت آنفاً - الى محاولة الوصول الى الحق المطلق ، المطلق بكل ما للكلمة الاطلاق من معنى ومفهوم ، هذا الحق الذي تنبع قوته من كون صاحبه محققاً لامن حيث كونه قوياً . ولذلك وضعت القومية العربية القوة في خدمة الحق ، واعتبرت القوة وسيلة لاحقاق الحق ، لاعاملاً في تفسيره وتوجيهه . وبهذا ارتفعت القومية العربية في عهد محمد بالامة العربية الى اسمى ذرى الانسانية ، اذ جعلت السلطة في خدمة الحق ، وجعلت الدولة بالذات وفي جميع أجهزتها وسيلة من وسائل احقاقه . « ألا ان صاحب الحق قوي عندي حتى آخذ الحق له ، والقوي لضعيف عندي حتى آخذ الحق منه »

والحق كما قررته القومية العربية الاولى هو حق الانسان في حياة سعيدة تاجها الكرامة البشرية ، فالسعادة فرع من شجرة ضخمة هي الكرامة ، ومن الكرامة تتفرع جميع الاهداف الانسانية السامية . والسعادة كما حددت مفاهيمها القومية العربية الاولى لا تنحصر في حصول الانسان على أحسن ما يرتاح اليه الذوق من لباس ، او أطيب ما تشتهي النفس من طعام بل انما تتعدى هذه الامور الى التوافق بين وسائل الحصول على الماديات وطرقها ، وبين التلقي الوجداني الحي لها . فمثلاً يمكن للانسان ان يحصل على ما يريد ويتمنى من متاع ، ويمكنه ان يصل بطعمه الى احقر درجات الشراهة ، وقد يخالفه الحظ فيحقق كل ما يصبو اليه متبعاً بذلك كل وسيلة غير ناظر الى مشروعية او لامشروعية تلك الوسيلة او الوسائل التي اتبعها خلال سلوكه طريقه الى أهدافه ، غير ان ذاك الانسان لا يمكن ان يحصل على السعادة او يتمتع بها ، وسبب ذلك انما يعود أولاً واخيراً الى كون

ذاك الانسان لم يستطع أن يؤمن التوافق بين وسائل الحصول على الماديات وطرقها ، وبين التلقي الوجداني الحي لها .

وهذا التوافق لا يمكن ان يتحقق ما لم يكن الانسان قد حرر نفسه من الطمع الشره ، هذا الطمع الذي يمثل ابشع صور غريزة حفظ البقاء واحقرها . وهناك كبير فرق بين ان تتمتع بشيء حصلت عليه ، وبين ان تسعد بالشيء الذي حصلت عليه ، فعندما تتمتع بما حصلت تكون غاصباً مغصوب الوجدان ، وعندما تسعد بما حصلت عليه تكون مكتسباً (أقول مكتسباً لا كاسباً) محرر الوجدان .

لقد تمتعت القوميات الاوروبية بما حققته من توسع واستعمار ، غير ان الطبقات الموجهة لتلك القوميات لم تستطع أن تسعد بما حصلت عليه من البلاد المغصوبة ، فكان أن دفعت تلك الطبقات الاثمان الفادحة والخسائر المروعة داخل بلادها وخارجها ، وكان ان عاش المجتمع الاوروي في حالة حرب دائمة ، وحالة صراع شديد ، ولم يكن السلام والاستقرار في المجتمعات الاوروبية سوى هدنة موقوتة لحرب طبقية وصراع استعماري مستمرين لا يعرفان ليناً أو هوادة . أما القومية العربية الاولى ، فبعد أن هدمت امبراطوريتين ضخمتين ، هما الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية الشرقية ، ورثت عن تلك الامبراطوريتين تركة ضخمة ، ضخمة في ثرائها ، مروعة في مظالمها . غير ان القومية العربية الاولى ساعدت بما حصلت عليه ، اذ أنها تلقت هذه التركة بوجدان حي وضمير فعال ، فضربت المفاصد ورفعت المظالم وساوت بين الذين اعتنقوا الاسلام من ابناء الشعوب المغلوبة وبين العرب .

ورفض عمر بن الخطاب أن يبقى النظام الاقطاعي قائماً وذلك حينما طلب منه نفر من قريش أن يملكهم الاراضي الزراعية الواسعة بدلاً من سادة الاقطاع السابقين الذين فروا امام الجيوش العربية تاركين الارض وفلاحها غنيمة باردة للعرب والمسلمين . واكتفى عمر بن الخطاب بان وضع ضريبة الخراج على الفلاحين من غير المسلمين

والعشر على المسلمين منهم . وكانت ضريبة الخراج تسقط عن الذمي حاملاً
يعتق الاسلام .

وحدث في عهد عمر بن عبد العزيز (الخليفة الاموي) ان كتب عامله على
مصر اليه يقول :

« ان اهل الذمة قد اسرعوا الى الاسلام ، وكسروا الجزية ، حتى استلفت
من الخارث بن ثابت عشرين الف دينار لاتم بها عطاء اهل الديوان . وفي نهاية
كتابه طلب العامل على مصر الى عمر بن عبد العزيز أن يأمر بتوقيف الذميين عن
انتحال الاسلام .

فأجابه عمر :

« لقد وليتك مصر ، وانا عارف بضعفك ، وقد امرت رسولي ان يضربك
على رأسك عشرين سوطاً فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك . فان الله انما
بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جانياً » . ان هذه القصة الآتفة الذكر لتشير بوضوح
الى ان الاسلام في روجه كان يحارب الاستعمار ويأنف أن يرى له وجوداً ، كما
وانها لتدل دلالة بينة على ان الهدف الاساسي للقومية العربية الاولى كان
يتركز على نشر الاسلام كدين ونظام .

وان الموجه الحقيقي للقومية العربية الاولى كانت الرغبة الصادقة والايان الوطيد
بسمو الرسالة الانسانية التي حملها الاسلام للعرب ، لذلك جاءت جميع الفتوحات
العربية في عهدي أبي بكر وعمر بن الخطاب منزهة عن كل مافي الاستعمار من
ظلم وحيف وجور ، وما في الاستثمار من استغلال وطمع وأنانية . وخير دليل
على ما ذكرت ، ذاك الكتاب الذي وجهه عثمان بن عفان ، حال توليه الخلافة ،
وقبل انخرافه عن روح الاسلام في الادارة والحكم ، والذي جاء فيه مايلي :
« أما بعد فان الله أمر الأئمة ان يكونوا رعاة ، ولم يتقدم اليهم أن
يكونوا جباة . وان صدر هذه الامة قد خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة .
وليوشكن أثمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة . فاذا عادوا كذلك

انقطع الحياء والامانة والوفاء . ألا إن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم . فتعطوهم ما لهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم . ثم العدو الذي تقاتلون فاستفتحوا عليهم بالوفاء . »

ان في كتاب الخليفة عثمان الرد المفحم والحجة القاطعة والبرهان الساطع على كل متخوص قد يدعي ان القومية العربية الاولى في معناها الحقيقي توخت يوماً استعماراً او استثماراً ، او انها انحرفت قيد أنملة عن رسالتها السامية التي حملها اياها الاسلام والزمها ايمانها بنشرها بين الشعوب والامم ، وهذا مما ينفي عن الدولة الاسلامية الاولى صفات الامبراطورية في مفهومها العالمي ، ويضفي على تلك الدولة كل صفات الدولة الاتحادية للشعوب الاسلامية .

ومثل هذا الامر كان من المستحيل تحقيقه ، ما لم يكن العرب قد تحرروا وجدانياً كقومية وامة ، والتحرور الوجداني الاصيل كما قلت سابقاً لا يضفي عليك الصفات الحقيقية للرجل الحر ، بل انما يحول بينك وبين استعباد او استعمار اخيك الانسان مهما كان جنسه او عنصره . وهذا التحرر الوجداني هو وحده الذي جنب العرب من ان ينتظموا في قومية وامة فدولة بغية استعباد الشعوب الاخرى واستعمار الاقطار المفتوحة .

وهذا ما حققته الآية المنزلة في القرآن الكريم والقائلة :
« وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

التحرر الوجداني والفرد :

١ - الحق الالهي

« ماهي واجبات المسيحيين نحو الامراء الذين يحكمونهم ؟ وماهي على

وجه أخص واجباتنا نحو امبراطورنا نابليون الاول ؟

« س : لماذا فرضت علينا كل هذه الواجبات ؟

ج : لان الله يخلق الممالك ويوزعها كما يشاء ، اغدق على امبراطورنا خصالا ومزايا كثيرة ، ونصبه سلطانا علينا ، وجعله وكيلا لقدرته وصورة له على الارض ، ولهذا السبب كان تقديم الاحترام الى امبراطورنا بمثابة تقديم الاحترام الى الله نفسه .

س : هذه الواجبات هل تربطنا نحو ورثته الشرعيين ايضا ؟

ج : نعم لاشك في ذلك ، لاننا نقرأ في الكتاب المقدس بان الله فاطر السموات والارض يعطي السلطان بفضل مشيئته ورحمته ليس الى شخص الملك فحسب بل الى امرته ايضا .

هذا مقطع من كتاب « كاتشيزم » (كتاب تعليم الدين المسيحي) وزع عام ١٨٠٨ على المدارس والكنائس الكاثوليكية في فرنسا ، وفيما يلي خطبة لعمر بن الخطاب القاها عقب سماعه بنبا فتح القادسية :

« اني والله ما انا بملك فاستعبدكم ، وانما انا عبد الله عرضت علي الامانة ، فان ايتمها ورددتها عليكم واتبعكم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا سعدت ، وان انا حملتها واستتبعتم الى بيتي شفيت ، ففرحت قليلا وحزنت طويلا وبقيت لا اقال ولا ارد فاستعقب »

وهاك مثلاً رائعاً آخر :

« ارسل قيصر رسولا الى عمر بن الخطاب لينظر احواله ويشاهد افعاله

فلما دخل المدينة سأل اهلها وقال :

« أين ملككم ؟ »

فقالوا : ما لنا ملك ، بل لنا أمير خرج الى ظاهر المدينة .

وهذا مثل رابع :

« قال رجل للخليفة عمر بن الخطاب ، اتق الله يا أمير المؤمنين ، فسمعها

رجل . فقال : أتأت على أمير المؤمنين ؟ (أي تجسر وتشنع عليه) ؟

فقال عمر : دعه ! فلن يزالوا بخير ما قالوها لنا .

وهذا مثل خامس :

خطب عمر بن الخطاب يوماً بالمسلمين وقال :

« يا معاشر المسلمين ماذا تقولون لو ملت برأسي كذا ؟ - وميل رأسه -
فقام إليه رجل فسل سيفه وقال أجل كنا نقول بالسيف كذا ، وأشار إلى
قطعه ، فقال عمر إياي تعني بقولك ؟ قال نعم إياك أعني بقولي ، فنهزه عمر
ثلاثاً وهو ينهر عمر ، فقال عمر الحمد لله الذي جعل في رعيتي من إذا
تعوجت قومني . »

وقبل أن استرسل في البحث ، أرى لزماً علي أن القي نظرة عابرة على
فلسفة « جورج فريدريش هيغل » في الدولة ، وذلك لأن فلسفة « هيغل »
تعتبر وجهة النظر الرسمية للقومية الألمانية ، هذه القومية التي عاشت في ظروف
تتفق في الكثير من أوجهها والظروف التي تعيشها قوميتنا في العصر الحالي .
يرى « هيغل » أن الحق لا يمكن أن يستقر في أمة إلا إذا ضمنته أخلاق
رفيعة ، ولا يمكن لهذه الأخلاق أن تتغلغل في نفوس أمة إلا إذا قام عليها
رقيب أو وصي . والدولة هي التي يجب أن تقوم بدور الوصاية أو الرقابة ، فإذا
تحلت عنه فإن الأمة تغدو مسيرة بالضيمير الفردي الذي تتنازعه الأهواء
والشهوات .

ويقرر « هيغل » ، نتيجة لما ورد أعلاه ، أن الدولة ضرورية لكيان
الأمة ، ولا ينبغي أن تكون الخادم الذي يحقق للديمقراطية أن تطرده متى
شاءت ، بل على العكس من ذلك فإن على الدولة ، كما يرى « هيغل » ، أن
تقمص روح الأمة وتحافظ على احترام التقاليد ، ويجب أن تتمتع بالسلطة
التامة والكاملة .

ويريد « هيجل » أن يمثل هذه السلطة شخص حقيقي من لحم ودم ، « على حد تعبيره — الملك — على أن يتمتع بحقوق كاملة : حق سن القوانين وتنفيذها . ويطالب « هيجل » لهذه السلطة بجيش وشرطة وأن لا يكون عليها أن تؤدي حساباً إلا لنفسها والله ، وأن تكون بما ينتقل بالوراثة .

هذه بعض العقائد الأساسية التي تمخضت عنها الثورة الفرنسية ، ولقد كان لهذه العقائد الأثر البالغ الأهمية في تكوين وتوجيه الحركات القومية في أوروبا ، ولا شك أن القاري يرى بوضوح الهوة الساحقة التي تفصل بين مثل هذه العقائد ، والعقائد التي جاء بها الإسلام ومارسها النبي (صلعم) وخليفته أبو بكر وعمر من بعد .

كما وأن القاري يدرك أيضاً أن الثورة الفرنسية لم تستطيع أن تقتلع جذور الإيمان بالحق الإلهي للسلطة من أذهان أصحاب السلطان في أوروبا ، فبينما نحن نرى عمر بن الخطاب يخاطب جمهرة العرب والمسلمين ويقول :

« انني والله ما أنا بملك فاستعبدكم ، وإنما أنا عبد الله عرضت علي الأمانة » نرى نابليون « الأب البار » للثورة الفرنسية يعلم الناس في أذهانها الخرافة القائلة بأن الله جعله - أي نابليون - « صورة له على الأرض ولهذا فان تقديم « احترامنا » للامبراطور هو بمثابة تقديم احترامنا لله . »

وبينما نرى عمر بن الخطاب يشكر الله ويحمده « لانه جعل في رعيته من يقومه بالسيف اذا تعوج » نرى « هيجل » يطالب « بأنه لا يتوجب على السلطة أن تؤدي حساباً إلا أمام نفسها وأمام الله . »

وبينما نرى المسلمين يرفعون الى منصب الخلافة الخليفة عن طريق الانتخاب ، نرى « هيجل » ونابليون يعلمون الشعوب الأوروبية أن الله قد أمر بحصر منصب رئاسة الدولة بورثة الملك أو الامبراطور ، حتى ولو كانت هؤلاء الورثة من السفهاء أو الحمقى أو الجاهلين الفاسدين والمفسدين .

بما تقدم يتضح ان القومية العربية في انتفاضتها الاولى ، ركزت كل عقائدها

وجهودها على تحرير وجدان الفرد تحريراً كاملاً وأشعاره بانسانيته والاخذ بيده الى وعي وجوده كإنسان وعياً كاملاً غير منقوص ، والعمل على ايقاظ روح المسؤولية الانسانية داخله .

لقد ادركت القومية العربية ، عن طريق الاسلام ، ان التحرر الوجداني للفرد امر غير ممكن ، لا بل مستحيل ، وذلك طالما ان الفرد يرى في السلطة القائمة قوة غريبة عن مجتمعه ، قوة جاءت ، او بالاحرى ، ، ارسلت من مكان ناء عن المجتمع لتهيمن عليه ، توجهه حيث تشاء ، وتتحكم بمصائر ابنائه كيفما يحلو لها ويطيب ، وان انتقاد هذه القوة هو انتقاد لله عز وجل ، وان مقاومتها هي مقاومة للخالق فاطر السموات والارض .

لقد جاء الاسلام اول ما جاء ليهدم الاصنام وليقضي على الوثنية العمياء ، ولذلك كان يتوجب على القومية العربية كي تنسجم وما جاء به الاسلام من مبادئ وعقائد ، ان تحارب كل محاولة تقوم بها الدولة وترمي من ورائها الى الارتفاع برئيس الدولة الى مرتبة الآلهة ووضعه بالقوة والارغام فوق كل انتقاد وتحريم كل مقاومة يبديها الشعب تجاهه . لقد ادركت القومية العربية آنذاك ان مثل هذا العمل يؤدي الى عودة الوثنية من جديد ، ويصبح وثن الامة امبراطورا او ملكا او رئيس جمهورية ، لذلك ثارت القومية العربية في انتفاضتها الاولى على مبدأ الحق الالهي ووضعت السلطة في رئيسها وفي كل اجهزتها في متناول انتقاد كل فرد في الامة العربية والامم الاسلامية .

لقد رأت القومية العربية آنذاك ان مبدأ الحق الالهي فاسد ومفسد لأخلاق الحاكمين والمحكومين على حد سواء ، وذلك لانه يستتبت في نفوس المحكومين اعشاب العبودية السامة ، ويجعلهم يستسلمون للاستعباد والمظالم ، كما وانه يستثير في نفوس الحاكمين الغرور والايمان بانهم معصومون عن الخطأ ، وبذلك تصاب احساسات الحكم بمسؤولياتهم بالبلادة والتجبر ، ويصبحون في نظر انفسهم آلهة ترى في الشعب قطيعاً من الاغنام واجبه الاساسي ان يقدم فروض الطاعة

وآيات الولاء ، ومن حق حكامه عليه - اي الشعب - ان يتمتعوا بنتائج عمله وان يستأثروا بمردود مجهوداته ، وان يروا في كل عمل يأتونه هو الصالح وهو المفيد ، ولذلك اوصى ابو بكر عمر بن الخطاب حين استخلفه بما يلي :

« اني مستخلفك من بعدي ، وموصيك بتقوى الله ، ان الله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وانه لا يقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة . فانما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيام باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه الا الباطل ان يكون خفيفاً . ان الله عز وجل ذكر اهل الجنة فذكرهم باحسن اعمالهم ، وتجاوز عن سيئاتهم فاذا ذكرتهم قلت اني اخاف الا اكون من هؤلاء ، وذكر اهل النار فذكرهم باسوأ اعمالهم ولم يذكر حسناتهم ، فاذا ذكرتهم قلت لأرجو الا اكون من هؤلاء ، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ولا يتعنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده الى التهلكة .

فاذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب احب اليك من الموت وهو آتيك وان ضيعت وصيتي فلا يكن غائب ابغض اليك من الموت ولست بمعجز الله .
يا ابن الخطاب انني استخلفك نظراً لما خلفت ورائي وقد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأيت من اثرته انفسنا على نفسه ، واهلنا على اهله ، حتى كنا لننظر نهدي الى اهله من فضول ما يأتينا عنه ، وقد صحبتني فرأيتني انما اتبعت سبيل من كان قبلي ، والله ما نمت فحلمت ولا توهمت فسوهمت ، واني لعلى السبيل مارغت ، واني اول ما احذرك يا عمر نفسك ان لكل نفس شهوة ، فاذا اعطيتها تقادت في غيرها .

واحذر هؤلاء النفر من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين انتفخت اجوافهم وطمحت ابصارهم واحب كل امرئ منهم لنفسه ، وان لهم خيرة عند زلة واحد منهم فايك ان تكونه . واعلم انهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله ولك مستقيمين ما استقامت طريقك هذه وصيتي واقرأ عليك السلام .

في هذه الوصية - وصية أبي بكر - تتضح القواعد الاساسية التي تقوم عليها علاقات المحكومين بالحاكم ، وهذه القواعد جميعها كما يرى القاريء ترمي اولاً واخيراً الى تحقيق الخير المطلق للمحكومين . أما أولى هذه القواعد فتقول بان خوف الامة ، أو بمعنى اكثر دقة ، أن احترام الامة للسلطة انما يتحقق باحترام السلطة لله عز وجل ، والله كما تعرفه القومية العربية هو الخير المطلق ، والمطلق في شموله ، أما القاعدة الثانية فانما تقول بان أخطر ما يصيب الحاكم من انحراف يتمثل في اتباع الحاكم لشهوة نفسه (واني اول ما أحذرك يا عمر نفسك ، ان اكل نفس شهوة فاذا اعطيتها قتادت في غيرها .)

أما القاعدة الثالثة فهي تقول بان الله الذي هو الخير المطلق هو ايضاً الحق المطلق ، فلذا فان كل حاكم لا يسعى الى تحقيق اكبر قدر من الحق المطلق فانما هو حاكم قد ضل سواء السبيل . والحق المطلق كما تراه القومية العربية على اضواء الاسلام هو ذلك الذي يعود أخيراً على القومية العربية في الانسانية بالخير المطلق . أما القاعدة الرابعة فتقول بان على السلطة أن تسعى لتحقيق الجوهر ، جوهر الخير العام ، وان عليها الا تتمسك بالمظهر فتعطي القشور الاهمية البالغة ، او بالاحرى ترمي بالقشور الى الشعب وتستأثر هي باللب (وانه يا عمر لا تقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة) .

أما القاعدة الخامسة فتقول بان على السلطة الا تصبح اداة بيد فئة من الناس او طبقة معينة من المجتمع ، بحيث تستعملها هذه الطبقة او تلك الفئة وسيلة لتحقيق أغراضها ومنافعها الذاتية (واحذر يا عمر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انتفخت اوداجهم وطمحت ابصارهم وأحب كل امرئ لنفسه .)

أما القاعدة السادسة فتقول بان السلطة لا تقصد الا عندما يفسد القائمون عليها فيغلبون مصالحهم الذاتية او الطبقية على مصالح المجتمع والانسانية . كما وان هذه القاعدة تقول ايضاً بان السلطة اذا استطاعت ان تصبح الاداة الشريفة الفعالة

لتحقيق المنافع للجميع فانها تصون نفسها من المفساد والفساد وتضمن لنفسها الديمومة .)

(انهم ياعمروا لانزالوا منك خائفين ماخفت الله ، ولك مستقيمين ما استقامت طريقك .)

وهكذا يتبين لنا بجلاء أن « مبدأ الحق الالهي » يتناهي شكلاً وأصلاً ومفهوم القومية العربية ، فالشعب يخاف السلطة ويحترمها طالما أن السلطة تحترم رغبات رغبات الله في تحقيق الفوائد المعنوية والمادية للجميع ، والشعب يحترم السلطة في حالة تغليب الحكم لمصالح الشعب على شهواتهم ، أما في حالة عمل الحكم بعكس منطق هذه المفاهيم فإن على الشعب آنذاك أن يثور على السلطة وأن يحاربها وأن يدمر جميع مالها من أجهزة وقوى .

والسلطة ، كما ترى القومية العربية ، إذ تعتمد على الله في ممارسة سلطاتها فانما تستمد هذه السلطات من الرغبات الالهية الكامنة في نفس الامة ووجدانها الانساني ، لذلك فإن السلطة تحكم لابعية تحقيق مآرب لاهوتية تنزل من السماء لتصب على الارض ، بل انما تحكم بغية الارتفاع بالمآرب الالهية الكامنة في البشرية على الارض والمشرئية باعناقها الى السماء والمحطمة جيلاً بعد جيل ما يغلبها من قيود وأغلال ورغبة وارادة وعزماً منها على التحليق والوصول الى السماء مادياً ومعنوياً للاندماج في الله ذاته الذي هو الحق المطلق والخير الاسمي . وذلك لان الانسان لا يرفعه الله اليه لان الله قد اودع فيه من القدرة طاقة كافية تمكنه من الارتفاع الى الله في حالة احسان الانسان توجيه هذه الطاقة واستعمالها في وجوها المخصصة لها منذ الازل .

ولهذا السبب فان القومية العربية تعترف بمفهوم واحد ووحيد « لمبدأ الحق الالهي » وهذا المفهوم الواحد والوحيد يقول :

بان للانسان الحق المطلق في حياته كما يريد لها الله الكامن في النفس البشرية لا كما يريد لها ملك أو امبراطور أو رئيس جمهورية وان ممارسة الانسان لهذا الحق ممارسة واعية هو طريقه الاوحد الى الانسان الاعلى

(السوبرمان) . لذلك كله يتوجب على القوميين العرب أن يؤمنوا بأن « مبدأ الحق الالهي » لم يعد المبدأ الذي تدعم به السلطة أحكامها ووجودها بل انما هو وفق مفهوم القومية العربية ، المبدأ الذي يدعم به الشعب أحكامه والاداة التي يوجه بها السلطة القائمة ، وان اية سلطة تشذ عن هذا المبدأ هي سلطة غير جديرة بالاحترام والطاعة . فالاصنام قد حطمها الاسلام والوثنية دسنا عليها بنعالنا منذ قرون طوال . فليس هناك في الامة العربية الآن من فئة راشدة وفئات أخرى غير راشدة ، فالامة العربية في كل فئاتها راشدة في اعماق ضميرها ، تعي وجودها وتريد أن تمارس هذا الوجود بممارسة حرة خيرة ، لذلك بات الواجب الاسامي للسلطات الثورية أن تدفع بهذه الرغبات الحقيقية الى العمل والنشاط ايجاباً .

لذلك ايضاً نرفض نحن القوميين العرب الاصلاء أن نرى في اية سلطة أو قائد أو زعيم أنها أو أنهم فوق النقد والانتقاد ، بل أننا نرى ان النقد والانتقاد هما أمران ضروريان لتكوين الشخصية المطلقة في خيرها للأمة ، وایماننا هذا يدفع بنا الى الايمان ايضاً بأن الامة الحرة هي التي تصنع زعماءها ، وأن الزعماء مهما أوتوا من مواهب واخلص لا يستطيعون أن يضعوا أمة حية ذات شخصية تندمج في الحق المطلق الذي هو الله .

ب — التحرر الوجداني والسلطة :

قلنا فيما تقدم ان الواجب الاسامي للدولة القومية ذات الجوهر الانساني يتمثل بتنشيط وتشجيع كل عمل من شأنه أن يساعد على التحرر الوجداني للفرد ، وذلك لان الفرد المتحرر هو الاساس الذي يرتكز اليه وعليه المجتمع المتحرر ومن ثم الدولة المتحررة .

والتحرر الوجداني للدولة الممثلة بسلطاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية يرتكز بدوره على دعائم اربع هي :

- ١ - الشعور المرهف بالمسؤولية .
- ٢ - التواضع .
- ٣ - العدالة في وجوها الثلاثة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .
- ٤ - نقد الذات .

١ - الشعور المرهف بالمسؤولية :

ان الفرد المتحرر حينما تلزمه القوانين بالقيام بجميع مايتوجب عليه من مسؤوليات تجاه المجتمع والدولة فانما ينفذ هذه المسؤوليات لايامانه العميق بان في تنفيذها تدعيا لحقوقه وتأكيدا لواجبات الدولة تجاه رعايته وحمايته وتدعيم كيانيه المعنوي المعنوي والمادي ، وبهذا يدرك الفرد المتحرر أنه عندما يعمل للمجتمع او الدولة فانما هو في واقع الحال يعمل لنفسه ، كما ويعرف أنه عندما يعطي يأخذ ، وعندما يستجيب للقانون فانما يستجيب لنداء ضميره ولصوت عقله الواعي ، لذلك تسقط صفة الالزام في القانون لدى الفرد المتحرر ، تتحول علاقاته بالدولة من حيث هي علاقات طابعها الالزام والخضوع الى حيث هي علاقات طابعها التعاون ، تعاون الفرد والدولة على تنفيذ القانون المغتوص فيه أن يحقق كل مصالح الفرد في المجتمع ، ويضع كل مايمتلك الفرد من نشاطات ومواهب في خدمة المجتمع والدولة . آنذاك ، تصبح الدولة في نظر الفرد الشجرة التي هو أحد أعضائها ، فيؤمن الفرد عندئذ بانه لا يستطيع أن يسقل عنها أو يبتز نفسه من جذعها أو فروعها ، وان بقاءه ، كبقاء الغصن ، مرهون ببقاء الشجرة وحدة كاملة في كل جذورها وجذعها وفروعها وغصونها .

وهذا الايمان الفعال لدى الفرد المتحرر ، يجب ان يقابله شعور مرهف بالمسؤولية لدى السلطة ، وذلك كي تتمكن السلطة من استيعاب وتوجيه النشاطات البناءة المتدفقة من الايمان الفعال للفرد المتحرر ، لهذا السبب يتوجب على السلطة المنبثقة عن ارادة الفرد في الحياة ، أن تتمتع بوعي كامل لواجباتها ، وعي ينسبها

أن لها حقوقاً ، وعي ينكر حقوقها وينفيها شكلاً وموضوعاً .
وذلك لانه في واقع الحال ليست للسلطة العاقلة ذات الجوهر والطابع
الشعبيين من حقوق ، بل أن عليها واجبات وواجبات فقط ، وذلك لان
حقوق الاشخاص القائمين على السلطة ، تضمنها صفتهم كافراد في المجتمع ، وليس
صفتهم كملوك او رؤساء جمهوريات او وزراء أو موظفين في الدولة . أما
السلطة التي تدعي لنفسها حقوقاً وامتيازات ، أو تسعى لاقامة حقوق وامتيازات
لها ، فهي سلطة غير شعبية ، وواجب الشعب أن يشور عليها ويدمرها في
كل اجهزتها ، وذلك لانها لاتعيش من أجل صالح الشعب ، بل انما تعيش
من أجل تحقيق مصالح فئة او طبقة معينة من الشعب على حساب مصالح
الفئات او الطبقات الاخرى للشعب .

ولقد وعت القومية العربية في انتفاضها الاولى هذه الحقيقة ، ونحن بمسيس
الحاجة اليوم كي تعي القومية العربية في انتفاضها الثانية هذه الحقيقة ايضاً وعيا
كاملاً مخلصاً .

وقد عبر عن هذه الحقيقة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بمثل رائع في بساطته
حينما قال الربيع بن زياد الحارثي .

« انما مثلنا مثل قوم سافروا فدفعوا نفقتهم الى رجل منهم فقالوا له انفق
علينا فهل له أن يستأثر عليهم بشيء ؟ »

ان الشعور المرهف بالمسؤولية لدى السلطة ، كما قلت آنفاً أحد سبل السلطة
الى التحرر الوجداني ، وهو ايضا الوسيلة الوحيدة للسلطة الى ارساء وتركيز
الدعائم الثلاث الاخرى للتحرر الوجداني ، وأعني بهذه الدعائم التواضع والعدالة
ونقد الذات .

كما وان الاحساس المرهف بالمسؤولية هو الذي يمد السلطة بكل اسباب
وجودها ، اذ أنه يفرض على السلطة العمل الدؤوب ، العمل ليلاً نهاراً ، ويحيب
بذلك القائمين على السلطة الكسل والخمول « والروتين » الاداري ويحفظ عليها

بالتالي فعاليتها وحيويتها ، وبهذا تصون السلطة نفسها من الانحلال والاصحلال ، ويحافظ لها على طابعها وجوهرها الشعبيين ، اذ أن تبدل احساس السلطة بمسؤولياتها العامة يتيح للقوى النهمة الشرهة في الدولة الفرصة لتتنحرف بالسلطة من حيث هي سلطة شعبية الى حيث هي سلطة طبقية او سلطة فئة من فئات المجتمع أو سلطة جهاز من اجهزتها .

وهذا التحول ينزل بالسلطة من مركز المراقب والمنظم والموجه الى مركز المراقب والمستغل والمستعبد ، وعندئذ « لاتبحكم السلطة باسم الشعب ومن أجل تحقيق مصالح الشعب ، بل انما نحكم باسم القائمين عليها ومن أجل تحقيق مصالح الذين يمارسونها مباشرة او غير مباشرة . وهنا تزول الفروق بين الاستعمار الاجنبي وبين الاستعباد الداخلي ، فيشعر الشعب بانـه ليس هناك من معنى حقيقي للاستقلال والحرية ولا وجود واقعي لوجوده من حيث هو شعب حر مستقل ويرى الشعب ان كل ما طرأ على اوضاعه العامة من تبدل يتمثل في تحول الشعب من حيث هو شعب تستعبده سلطة اجنبية الى صيورته شعبا تستعبده فئة من ابناءه . عندئذ تحتل ميازين العدالة ويصاب الوجدان الانساني بالتبدل ، وتطغي الاثرة والطمع والشراسة على كل نازع انساني ، ويقوم المجتمع على مناقضات هائلة وتغدو المنفعة الآتية الهدف الاساسي للفرد في كل نشاطاته وتصبح مهام السلطة مركزة على تحقيق المنافع لفئة معينة تمثلها وتمارس وجودها من أجلها وبذلك تتحول الدولة كما قلت آنفة الى دولة طبقية .

فيحل بذلك التناقض بين مصالح الطبقات محل التعاون بين نشاطات الافراد والبيئات ، وهنا تصبح الفلسفة المادية هي الطريق الوحيد .

الى تفسير اسباب وجود الدولة وتركيبها الاجتماعي . عندئذ يعيش المجتمع في الدولة في حالة صراع مستملا وحرب دائمة ، وذلك لان الشعور بالمسؤولية لدى السلطة قد تحجر ، وقد ادى هذا التحجر الى غياب الروح عن عملها كمنظم للفعاليات المادية وموجه لها . وغياب الروح الناشيء من تحجر الاحساس بالمسؤولية

لدى السلطة يفرض على المجتمع آنذاك ان يسير في الطريق الوعر الشاق من طرق التطور أي تطوره من الاقطاع الى البرجوازية فالرأسمالية الامبريالية فالاشتراكية فالشيوعية ومن ثم العودة الى الهدف الاسامي الذي قامت من اجل تحقيقه القومية العربية أي اقامة التوازن بين الانسان كحسب والانسان كروح .

ان أخطر ما قد يصيب القومية العربية من كوارث هو عدم ادراك السلطة لمسؤولياتها ادراكا كاملا مخلصاً وهذا الادراك يتمثل في وعي السلطة ، للرسالة السامية التي حملها الاسلام الى القومية العربية ، وهذه الرسالة ترفض طغيان المادة على الروح وترفض بالتالي للشعوب العربية ان تنهج في تطورها النهج المادي الذي نهجته اوروبا والذي الحق باوروبا مختلف النكبات والكوارث فطغيان المادة على الروح يؤدي بالتالي الى قيام الدولة الشيوعية وسيادة الشيوعية كفلسفة ونظام ، وهذا الامر ما تكافحه القومية العربية وتجاهده لانه يقلب المفهوم الاسامي للقومية العربية اذ أنه يخضع الروح للمادة ، بينما ترى القومية العربية ان المادة هي التي يجب ان تخضع للروح في كل مراحل التطور الاجتماعي .

لقد علمنا تاريخنا المشرق ، وخاصة تاريخ الحقبة التي عاشها ابو بكر وعمر بن الخطاب كخليفتين للعرب والمسلمين ، أنه باستطاعة السلطة اذا وعت رسالتها وعيا كاملا وادركت مسؤولياتها ادراكا تاما ان تقيم دولة شعبية ، تمثل الشعب حق تمثيل في كل افراده وفي كل بيئاته ، وان تجنب السلطة اقامة دولة طبقية تقوم على المتعارضات في تركيبها الاجتماعي .

انتي لأقف الآن من هوشاً مذهولاً يملأ الاعجاب قلبي وانا أقرأ وصية ابي بكر الى عمر بن الخطاب :

« واحذر هؤلاء النفر من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي انتفخت اجوافهم وطمحت ابصارهم واحب كل امرئ لنفسه . »

وترداد دهشتي ويزداد ذهولي حينما انتقل الى التفكير والتأمل في الكلمات التالية للخليفة الاعظم عمر بن الخطاب :

« ألا اني قد سننت الاسلام سن البصير ، يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنياً ثم رباعياً ثم سدسياً ثم بازلاً ، ألا فهل ينتظر بالبازل الا نقصان ، ألا فان الاسلام قد يذل ، ألا وان قريشاً يريدون ان يتخذوا مال الله مضويات (مصائد) دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب هي فلا ، اني قائم دون شعب الحرة ، آخذ بحلقيم قريش وحجز ان تيهي فتوا في النار . »
وقال الطبري :

« لم يميت عمر رضي الله عنه حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم وقال :

« ان اخوف ما اخاف على هذه انتشاركم في البلاد . »
ويقول الطبري ايضاً في موضع آخر من تاريخه .
« كان الرجل ليستاذنه في الغزو وهو بمن حبس بالمدينة من المهاجرين فيقول عمر :

« قد كان غزوك مع رسول الله ما يبلغك ، وخير لك من الغزو اليوم الا ترى الدنيا ولا ترك . »

من الامثلة المتقدمة يتبين لنا بوضوح انه باستطاعة السلطة في حالة احساسها بمسئولياتها احساساً مرهفاً ان تحول دون قيام طبقة من الطبقات بحكم المجتمع وتوجيه نشاطات الطبقات الاخرى الوجهة التي تؤمن استئثار الطبقة الحاكمة بالمنافع المجتمعية . فعقب ان تولى عمر بن الخطاب الخلافة وتابع بنجاح فتح البلدان التي كانت تؤلف الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ارادت الطبقة التجارية من العرب ، هذه الطبقة المثلة بقريش ان تستعمر وتستثمر العرب والبلدان المفتوحة ، وان تستغل الثورة التي اضرمتها الاسلام في الجزيرة العربية والتي ايقظت القومية العربية - قريش - ان تستغل هذه الثورة لحسابها والاستئثار بمنافعها وحرمان الطبقات الاخرى من العرب والمسلمين ، اقول المسلمين ، غير الوعي الكامل لرسالة الاسلام ، هذه الرسالة التي تنادي بالمساواة التامة بين

الافراد من مسلمين وعرب ، وحسن السلطة المرفه بمسؤولياتها عن تحقيق هذه الرسالة ، اوجب على عمر بن الخطاب يأخذ على حد تعبيره « بجلاقيم قریش وحجزها ان يتهافتوا في النار » وبهذا يكون عمر بن الخطاب قد جنب القومية العربية في انتفاضها الاولى من انشاء دولة طبقية ، وبالتالي صان القومية العربية من ان تصبح قومية عنصرية فاستعمارية ، ودفع بالقومية العربية الى ممارسة نشاطاتها في مجالات الانسانية الوجيهة ، وبهذا جعل من القومية العربية النواة او المركز الذي تلتقي فيه الاممية الاسلامية .

وهذه النتيجة التي اوصل عمر بن الخطاب القومية العربية اليها - اي جعلها النواة لامية اسلام لم يكن لعمر ان يصل بنا اليها لولا ايمانه العميق بان هناك مبادئ وقوانين كونية نستطيع اذا سدنا وفق احكامها وارشاداتها في كل نشاطاتنا من فردية وجماعية ان يصل بالانسان الى مرتبة الكمال الانسان المجتمع والانسان في الدولة .

كما وان اتباعنا لاحكام هذه المبادئ والقوانين الكونية يوفر على القومية العربية المرور في مراحل التطور الاجتماعي التي مرت بها القوميات الاوربية الاخرى ، وبذلك تختصر الزمن وتنجنب الصدام والنزاع الاجتماعيين ، ونذكر كل مجهوداتنا على تحقيق الصالح العام للامة في كل بيئاتها ، واخيراً نبني مجتمعنا لاعلى اساس طبقي بل انما نبنيه على اساس شعبي موحد معدوم الطبقات ومن المؤسف ان القومية العربية قد انخرفت عن رسالتها عقب وفاة عمر ، والمؤرخ الصادق يستطيع ان يدد لسبب انحرافها الى عدم وعي الخليفة الثالث عثمان بن عفان لمسؤولياته كقومي عربي اتخذ له من الاسلام دنيا ونظاماً ، وكذلك يستطيع ان اقول لموانا المسلم السني ، بضمير مرتاح ووجدان مطمئن ان انحلال اتحاد الشعوب الاسلامية بدأ بعثمان بن عفان ، وسبب ذلك انه ما كاد عمر بن الخطاب يوسد لحده حتى تحولت الدولة الاسلامية الموحدة من حيث هي دولة شعبية الى صيرورتها دولة طبقية تعيش وتمارس سلطاتها بغية

تحقيق مصالح الطبقة التجارية التي يتألف من قريش .

أما سيورة الدولة الإسلامية الموحدة دولة طبقية فانما تبدأ بسماع عثمان للعرب بنقل فيهم (أملاكهم الزراعية) من البلدان المفتوحة الى مواطنهم الأصلية وعلى هذه الاجراء يعلق الدكتور طه حسين في الصفحة ١٠٤ و ١٠٥ من الجزء الاول من كتابه « الفتنة الكبرى » بما يلي :

« وليس من الغريب أن يفرح الناس بذلك ويتهجوا له ، فارض الحجاز احب الى اهل الحجاز من ارض العراق ، وارض اليمن احب الى اهل اليمن من ارض الشام ومصر ، هي منهم قريب ، فهم يستطيعون ان يقوموا عليها في غير مشقة ولا كلفة والا احتياج الى السفر القصير او الطويل ولا الى الهجرة من ارض الآباء والاجداد .

وقد كتب عثمان بذلك في الافاق ، ففتح على الناس باباً عظيماً كان له ابعاد الأثر في حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية « والفعلة جميعاً . » ويستطرد الدكتور طه حسين فيقول :

« ولنضرب لذلك بعض الامثال : فغريق من كبار الصحابة كانوا يملكون كثيراً من المال السائل والجامد في الحجاز فما اسرع ما انفقوا مالههم هذا سائله وجامدة في شراء الارض في الاقاليم (المفتوحة) لانهم كانوا يعلمون أن ارض الاقاليم اخصب تربة واكثر ثرة وايسر استغلالاً من ارض الحجاز . فطحة بن عبد الله كان قد جد واجتهد ودأب حتى اشترى عامة السهم خيبر من الذين شهدوا فتحها مع النبي او من ورثتهم . فلما فتح عثمان هذا الباب باع طلحة كل ما كان يملك من اسهم خيبر لاهل الحجاز بمن شهد فتح العراق بما كانوا يملكون هناك . ثم كان له مال آخر كثير فاشترى به من بعض اهل الحجاز أرضهم في العراق وفعل الناس فعلة .

ويستوغل طه حسين في تعليقه فيقول :

« ونشأ عن ذلك اولاً أن ظهرت الملكيات الضخمة في العراق وغيره من

الاقاليم . فالذين استطاعوا ان ينتفعوا بهذا الاقتراح وانما هم اصحاب الاموال الضخمة الذين كانوا يستطيعون ان يشتروا من اصحاب الملكيات الصغيرة ما يملكون ، فاشترى طلحة واشترى الزبير واشترى مروان بن الحكم ، وكثر النشاط المالي في ذلك العام من بيع وشراء واقتراض واستبدال ومضاربة . ثم لم يقتصر ذلك على أهل الحجاز والعراق وانما شمل بلاد العرب كلها من جهة والاقاليم المفتوحة من جهة اخرى . وجدت الاقطاعات الكبيرة الضخمة والضيايع الواسعة العريضة من جهة وقام فيها العاملون من الرقيق والموالي والاحرار من جهة اخرى ، فظهرت في الاسلام طبقة جديدة من الناس هي طبقة البلوتقراطية التي تمتاز الى ارسنقراطيتها التي تاتيها من المولد بكثرة المال وضخامة الثراء وكثرة الاتباع .

ويستوسل الدكتور طه حسين فيقول :

« ونشأ عن هذا بعد ذلك أن جلبت الحضارة جلباً الى الحجاز وغيره من بلاد العرب ، فكان الترف وكانت الفنون التي تنشأ عن الترف والتبطل ، فكان الغناء والايقاع والرقص والشعر الذي لا يصور جداً ولا نشاطاً ، وانما يصور بطالة وفراغاً وتهاكماً من اجل ذلك على القوة او عكوفاً من اجل ذلك على النفس وتعمقاً لما ينتابها من الهم . والى جانب هذه الطبقة الارسنقراطية الفارغة عاش الرقيق الذين كانوا يملكون سادتهم ويدبرون حياتهم . وما يكون في هذه الحياة من النشاط الباطل وما يكون فيها من العواطف والاهواء . ثم الى جانب السادة الارقاء والارقاء السادة ، عاشت طبقة اخرى من العرب البادين المحرومين لم تملك قط ارضاً في الحجاز لتبيعها بارض في العراق ، ولم تملك قط ارضاً في العراق لتشتري بها ارضاً في الحجاز . »

وقد يكون من المفيد او بالأحرى من الطريف ان نقل عقب وصف الدكتور طه حسين للحال التي آلت اليها الدولة الاسلامية الموحدة عقب مقتل عمر وصف الاستاذ احمد الصاوي محمد للحال التي آلت اليها فرنسا عقب اعدام روبسبير

وثلث حكومة «الديركتوار» لازمة السلطة في فرنسا ، وذلك للتدليل على تحول الدولة الاسلامية الموحدة من كونها دولة شعبية الى صيورتها تماماً كالدولة الفرنسية عقب اعدام روبسيير اي دولة طبقة البراجوازية .
يقول الاستاذ احمد الصاوي محمد في كتابه « فوشيه » وفي الصفحتين ٩٤ و ٩٥ مايلي :

« واخيراً ، واخيراً جداً وبعد ليل طويل طويل ، وطويل جداً ، قضاء « فوشيه » في ظلمات الفاقة المثلجة ، بدأ يستنشق نسيم الصباح ... ففي البلاد ملك جديد . سلطة جديدة ولدت ، وقد صمم تصميماً قاطعاً على ان يكون في خدمتها . وهذه السلطة الجديدة ، هذا الملك الجديد ، هو المال . فلم يكدر روبسيير وانصاره يغيبون في بطن الارض حتى بعث المال من مرقده وتربع على عرشه ، وامسك بصولجانه محوطاً بحاشية مكونة من ألوف الاتباع والمحظيات والخدم والحشم . فصرنا نرى في الشوارع المركبات المذهبة الفاخرة ، ذات الخيول المطهمة الاصلية وفي داخلها تجلس نساء فاتنات سائقات كأنهن الهات الاغريق »
ويستمر الاستاذ الصاوي فيقول :

وفي غاب بولونيا ينتزه الشبان الوجهاء على خيولهم ، وقد التصقت ازياء الركوب باجسادهم وتنوعت الوانا بيضاء وسمرراء وحمرراء ، وفي ايديهم المزيينة بالخواتم سياط انيقة ذات قبضات ذهبية لايترددون في ان يضربوا بها «الارهابيين» القداماء . وقد راجت حركة البيع والشراء في محال العطور ، وعند الجوهريه والصاغة . وفتحت فجأة خمسمائة او ستمائة او الف صالة للرقص ومقهى ، ونشطت حركات شراء البيوت ، وبناء « الفيلات » وازدهمت المسارح والملاهي ، وراح الناس يضاربون ويраهنون ويشترئون ويبيعون ، ويقامرون بالوف الفرنكات الذهبية في « الباليه رويال » وراء سجوفه المصنوعة من الدمقس والحرير . لقد عاد المال سيداً وقحاً جريئاً ، وصار من جديد سلطاناً .

ويستطرد الاستاذ الصاوي في وصفه فيقول في الصفحة ٩٦ من كتابه الآنف

الذكر مايلي :

« اما في الوقت الحاضر فالغني هو وحده الوجيه المحترم ، وكما يحدث دائماً في فترات الفوضى صار هذا الوقت صالحا لكسب المال ، وتنقلت الثروة من يد الى يد ، وبيعت الملكيات العقارية ، ليكسب اصحابها من بيعها ، وصودرت ثروات المحكوم عليهم ، وتتابع المغنم من مصادرتها ، وتضخم الاموال يوما عن يوم ، وهز التضخم البلاد كما لو كان حمى مستعرة ، وتمخض عن مكاسب جديدة ، كان يمكن الكسب من كل شيء اذا ما وقي المرء يدان خفيفتان جريئتان واوتي ايضا علاقات واتصالات بالحكومة . »

تلك هي الحال التي آلت اليها الدولة الاسلامية الموحدة في عهد عثمان بن عفان ، وهذه هي الحال التي آلت اليها فرنسا عقب اعدام روبسيير وقيام حكومة الديركتوار .

لقد استأثرت الطبقة البرجوازية في فرنسا بمكاسب الثورة الفرنسية ، كما استأثرت من قبلها قريش وفي عهد خلافة عثمان بن عفان بمكاسب الثورة الاولى للقومية العربية ، وبذلك يكون عثمان بن عفان قد انحرف بالقومية العربية عن اهدافها الحقيقية كما انحرفت حكومة الديركتوار عن اهداف الثورة الفرنسية ، هذه الثورة التي نادى الاسلام بالحرية والاخاء والمساواة .

اما السبب في نجاح ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب في السير بالقومية العربية نحو اهدافها الحقيقية ، فيرجع اولا واخيرا الى كون الخليفين العظيمين سارا وفق ايدلوجيه واضحة ووعيا للمسؤوليات الانسانية التي تفرضها عليها هذه الايدولوجية ، بينما يعود السبب في فشل روبسيير ورفاقه في تحقيق اهداف الثورة الفرنسية ، الى ان روبسيير ورفاقه كانت تنقصهم مثل هذه الايدولوجية الواضحة الكاملة وهذا مادفع بروبيسيير الى مجالات الخوف والقلق والحيرة ودفع به بالتالي الى الاغراق في التقتيل والارهاب ، لأن الضباب الذي اكتنف الطريق امام النوازع الانسانية في نفس روبسيير جعله يقيم الحدود بالشبهات ، اما

الشمس التي اضاءت الطريق امام النوازع الانسانية السامية في نفسي ابي بكر
الصديق وعمر بن الخطاب فجعلتها يعطلان الحدود بالشبهات ، وبذلك تمكنا طيلة
حكمها من السير وفق منطوق العدالة المطلقة .

قلت ان الدولة الاسلامية الموحدة عقب وفاة عمر تحولت الى دولة الطبقة
التجارية الاقطاعية ، وقلت ان خلافة عثمان بن عفان هي بداية هذا الانحراف
الخطير عن رسالة القومية العربية الممثلة بالاسلام ، وعندما تتحول الدولة الى
دولة طبقية تتحول بالضرورة الى دولة عنصرية ، اذ ان الطبقة التي تحكم تستخدم
الامة التي انبثقت عنها (الطبقة الحاكمة) اداة لتنفيذ مآربها وتحقيق مصالحها على
حساب طبقات امته والامم الاخرى ، ولهذا عمد الامويون منذ عهد عثمان
حتى سقوطهم الى الاعتماد على العناصر العربية لاستغلال واستعمار العناصر الاسلامية
الاخرى في الدولة الاسلامية الموحدة ، ولو ان الامويين توقفوا عند هذا الحد
من الانحراف لأمكن للنفس العربية الاصلية في حياها للخير ان تصحح مثل هذا
الانحراف الخطير وان تعيد القومية العربية الى مجالات نشاطاتها الطبيعية التي
حددها الاسلام ، حيث جعل من القومية العربية النواة للأمة الاسلامية ،
غير ان روح الدولة الطبقية كان يجعل من المستحيل على الامويين ان يتوقفوا
عند هذا الحد ، حد سيادة العنصر العربي على بقية العناصر الاسلامية في الدولة
الاسلامية الموحدة ، اذ ان الصراع الذي نشأ عن سلطة الطبقة البرجوازية
الاقطاعية في التركيب الاجتماعي للدولة الاسلامية الموحدة امتد بالضرورة الى
العناصر العربية في الدولة الاموية ، فعادت القبيلة وعاد التفاخر بالانساب وعاد
التناحر بين القبائل والعشائر وعادت كل رذيلة سحقها الاسلام ودمرها محمد في
النفس العربية .

وهذا مما يسر للشعوب الاسلامية الاخرى غير العربية أن تتكفل
فتسند العباسيين وتطوح بالامويين وتنشيء الدولة العباسية ، هذه الدولة التي
اعتمدت الشعوبية كنواة ، وهذا الاعتماد يتنافى شكلاً وموضوعاً والرسالة

الحقيقية للاسلام الذي أراد من العرب ان يكونوا النواة للاممية الاولى في التاريخ وذلك لصفاء النفس العربية وميلها الغريزي الى الخير واستجابتها المخلصة لنداء الحق والضمير ، ولذلك فان الدولة العباسية لم يكن شعورها بالمسؤولية نحو رسالة القومية العربية اعمق من شعور الامويين بمسؤولياتهم الانسانية ، بل انما كان شعوراً طبقياً فيه الكثير من الانحلال وفيه البشع من الفساد والمدمر من الافساد ، لهذا توارت العناصر العربية المخلصة عن مسرح الوجود السياسي طيلة عهود العباسيين وعاد معظمهم الى البداوة ، ومن تحضر منهم تطرق اليه الفساد والانحلال كما تطرق الى غيره . وقفز الشعوبيون الى مراتب السلطان وهم متنكرون للاسلام حاقدون على العرب راغبون فقط بمتاع الدنيا ، لا يرون في الدولة وفي سلطانها سوى الاداة التي تؤمن لهم لذائد العيش وأطاييه ، ولا غرو في ذلك ، فتملك الشعوب الاسلامية التي عاشت في الدولة الاسلامية الموحدة ذات الطابع العربي وجدت في الدولة الطبقية التي انتهت اليها الدولة الاسلامية الشعبية على أيدي الامويين والعباسيين من بعدهم الفرصة كل الفرصة في عودة طبقة معينة منهم الى حياة الاسراف والبذخ والترف والفسق والفجور وكل ما في اللذائد الحسية من حقارة وخسة ونذالة . وتسلمت الطبقة النهمة الشرهة من الشعوب الاسلامية غير العربية قصور الخلفاء ودواوينهم ومراكز السلطان على أجساد العلمان والمحظيات والعداري ، وعاشت الدولة العباسية حياة كلها انحلال ، انحلال في الاخلاق والانحلال في العقيدة ، وغدا التفاخر باقتواف كل رذيلة فضيلة اجتماعية . فانطوى الاسلام على نفسه وانتشرت المظالم وخيم الطغيان وسادت المطاعم وتربعت اللذة على عرش السلطة وغدا المال السيد الوحيد ذا الشأن وذا السلطان وشلت الروح العربية في فضائلها الاصلية وحل الكذب محل الصدق والرياء محل الحق ، والنفاق محل الصراحة ، والطمع محل الطموح ، وأخيراً الخير محل الشر ، فأرسل الله عليها المغول ليدمروها تدميراً .

الى هذه النهاية الخيفة المحزنة آلت الثورة الاولى للقومية العربية ، الى هذه النهاية

البشعة دفع عثمان بن عفان القومية العربية ، دفعها حينما قال
« ان عمر كان يمنع أهله وقرباته ابتغاء وجه الله وأنا أعطي أهلي واقربائي ابتغاء
وجه الله . »

لقد كان شعور عمر بمسؤولياته العامة من الاحساس ما كان يشعره بأنه ملزم
بالغير قبل أهله وقبل نفسه ، لقد كان عمر يريد في كل عمل يأتيه خير الاسلام وخير
المسلمين ، دون التمييز بين قريب وبعيد وبين عربي واجنبي لقد كان عمر يبصر
الله في الشعب وكان عثمان يبصر الله في اقربائه ، لقد صاح عمر باقربائه
عندما قالوا له :

« انت خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلو جعلت نفسك حيث
جعلك هؤلاء القوم . »
صاح بهم :

« بخ ! بخ بني عدي أردتم الأكل على ظهري !? وأن أهب حسناتي
لكم ، لا والله حتى تأتيكم الدعوة عليكم الدفر (أي ولو تكتبوا
آخر الناس) »

واسمع ما قاله عثمان عندما أعطى أهله مجوهرات وجواهر كانت في بيت المال :

« لتأخذن حاجتنا من هذا الفياء وان رغمت أنوف قوم . »

لقد كان عمر يشعر بأن مسؤولياته شاملة ، وبأنه مسئول عن كل أمر
في الدولة عن حيوانها وانسانها عن عربها واجنبيها عن المسلم وعن الذمي عن كل فرد
عن كل كائن ، لقد كان كما قالت عنه أم أبان بنت عتبة بن ربيعة :

« ان دخل ، دخل بيأس ، وان خرج ، خرج بيأس ، قد أذهله أمر

آخوته عن أمر دنياه ، كانه ينظر الى ربه بعينيه . »

الى هذا الحد بلغ شعور عمر بمسؤولياته ، لقد كان ينظر الى ربه بعينيه ،

لقد كان يرى الله في شعبه وفي المسلمين وفي الانسانية وحتى في الحيوان

« لقد مر يوماً برجل حمل جملة ، لا يطيق فخفقه بالدرة وهو يقول . »

« حملت حملك مالا يطيق ! »

تقد كان عمر يردد أبداً :

« فوالذي بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة ، لو أن غناقا (عنزا) ذهبت لشاطيء الفرات لآخذ بها عمر يوم القيامة ، او لو تركت عنز جرباء الى جانب ساقية لم تدهن لحشيت أن أسأل عنها يوم القيامة . »

ان سلوك عمر المنسجم في جزئياته وكيانيته وروح الاسلام يسر للقومية العربية بناء دولة شعبية فأمية بكل مالمه الشعبية والامية من اتساع وشمول ، وجعل للعرب رسالة انسانية يعيشون من أجل اعلاء كلمتها ورفع شأنها وأنهم مسؤولون مسؤولية كاملة شاملة عن تحقيق هذه الرسالة .

لقد قسوت على الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، ولكن منطق الحقائق قاس لا يعرف عطفاً ولا يعرف شفقة ولا يتعامل بالرحمة ، وذلك لان الحقيقة البشعة حينما يعرضها التاريخ على صفحاته ، لا تستطيع ان تبور الضرورة في وجودها التاريخي بالظروف او الحوادث او تطورات الاحداث ، وذلك لان نتائجها المدمرة للحضارات والأمم والدول تهدم مبرراتها وتجردها من كل صفة خيرة في الانسان وتردها الى الحيوانية السكامة في النفس البشرية هذه الحيوانية التي مازال الانسان منذ فجر التاريخ يصارع ويكافح للتخلص من رواسيها وشباكها .

انني لا أنكر ولا يمكن ان انكر ما كان لعثمان بن عفان من سابق فضل في الاسلام غير أن المراحل الحالية والمقبلة التي تمر بها القومية العربية الى ممارسة وجودها كقوة انسانية تجعلني اقول كما قال ابو بكر الصديق في وصيته الى الخليفة الاعظم عمر بن الخطاب :

« ان الله عز وجل ذكر أهل الجنة فذكرهم باحسن اعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فاذا ذكرتهم قلت اني أخاف ألا اكون من هؤلاء . وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ اعمالهم ولم يذكر حسناتهم ، فاذا ذكرتهم قلت لأرجو ألا اكون من هؤلاء »

لذلك كله يتوجب على الشباب الثوريين والقادة الثوريين للقومية العربية أن يكافحوا ويجهدوا في سبيل اقامة الدولة العربية الموحدة ، دولة شعبية لاستند الى مبدأ التركيب الطبقي للمجتمع . لقد تمكن عمر بن الخطاب في تجرده واخلاصه من اقامة الدولة الشعبية ذات المجتمع الشعبي والجوهر والطابع الشعبيين دون اللجوء الى الاشتراكية او الشيوعية او المذاهب الاوروبية الاخرى بل وجد في الاسلام روحاً ومادة لاقامة مثل هذه الدولة ، وانحراف الدولة الاسلامية الموحدة عن رسالتها الانسانية ليس سببه ضعف الاسلام أو عدم تكامله أو انعدام وجود القدرة فيه على التكامل كنظام ودين ، بل انما يعود انحرافها السابق عن سبيل الانسانية الى سيطرة طبقة برجوازية اقطاعية على أجهزة الدولة وتشغيل هذه الاجهزة لخدمة أغراض الطبقة المسيطرة على المجتمع والدولة ، لقد استطاعت تلك الطبقة ان تحقق اغراضها لأن المسؤولين في الدولة الاسلامية قد ضعف او بالاحرى تلاشي شعورهم بالمسئولية عن صالح الامة العربية وصالح الامم الاسلامية وهذا مايفسرنا قول ابي بكر الصديق في وصيته لعمر :

« وان لهم خيرة عند زلة واحد منهم ، فإياك ان تكونه ! واعلم انهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله ، ولك مستقيمين ما استقامت طريقك . »
ان الدولة لا تفسد ولا تنحل الا عندما تفسد السلطة ويدب فيها الانحلال فالفرد في جوهره خير صالح ، لذلك فان الامة والامم في جوهرها خيرة صالحة ولهذا فان السلطة والسلطة وحدها هي التي تفسد وتنحل ومن ثم تنشر الفساد والانحلال في اركان المجتمع واسسه ، والسلطة لا تفسد الا في حالة واحدة ، وهذه الحالة هي التي تحول السلطة من حيث هي سلطة شعبية الى حيث هي سلطة فئة او طبقة على الشعب . عندئذ وفي حالة هذا التحول المدمر في السلطة ، يصبح الطمع والاثرة والانانية الدستور الذي ينظم علاقات المواطنين بالدولة ، وبهذا تعدو السلطة فاسدة مفسدة فتتعامل والنوازع الشريرة في النفس

البشرية بدلا من كبت مثل هذه النوازع وتدميرها ، وحصر تعامل السلطة والنوازع الخيرة في نفس الانسان .

لقد تمكن ابو بكر وعمر بن الخطاب من ارساء قواعد انسانية لدولة شعبية ومن ايجاد نظام اقتصادي واجتماعي وسياسي الائمة الاسلامية الاولى ، ونجاح هذين الخليفتين العظيمين يعود الى تعامل الخليفتين والنوازع الخيرة في النفس الانسانية للفرد ، غير ان العمر لم يهل هذين المصلحين الكبارين فاختطفهما الموت قبل ان تضرب الاخلاقية العربية بجذورها عميقاً في التربة ، ولذلك لم يتمكن المصلحان الكباران من تربية جيل يسهر على هذه الاخلاقية السامية ويحافظ عليها من الانحراف فالانتكاس ، لذلك جاءت الرجعة سريعاً ، وجاءت على يد عثمان بن عفان ، جاءت قبل اكتمال جيل عربي ذي اخلاقية اسلامية ، فلم يستطع ابو ذر الغفاري ولم يستطع علي بن ابي طالب ، ولم يستطع محمد بن ابي بكر وغيرهم من الثائرين الاولين من الوقوف امام طغيان الرجعة ، فكان ان سحقهم الرجعية في طريقها الى اقامة الدولة الطبقية .

انني اسجل هذه الحقائق وعيناي مغرورتان بالدموع ، يتساءل ضميري ومنطقي في اعماق اغوارها عما كان قد آل اليه التاريخ الانساني ، التاريخ الانساني في كل حوادث شعوبه واحداث امه لو ان عثمان بن عفان ومن جاء من بعده من ملوك اقول ملوك لا خلفاء لم ينحرفوا عن الدستور الاسلامي وعن الاسلام كنظام ودين .

انهم لاشك لو بقوا سائرين على الطريق التي سار عليها ابو بكر وعمر بن الخطاب لكان العالم اليوم يعيش في دولة عالمية واحدة موحدة النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وكانت الانسانية قد بلغت منذ زمن بعيد الكواكب الاخرى ووصلت الى معرفة معظم أسرار الكون .

لذلك كله يتوجب علينا كقوميين عرب نمر في مرحلة جمع أشنات شعوبنا في دولة واحدة موحدة بغية الاندماج في الدولة العالمية الواحدة

الموحدة ان نكون حذرين متيقظين لكل عمل من شأنه ان ينحرف بالسلطة من حيث هي سلطة شعبية الى صيرورتها سلطة طبقية . ان أخطر عقبة تقف في طريقنا الى الدولة العالمية الموحدة تتمثل بالقومية العمياء ، هذه القومية التي تتحكم فيها العنصرية والاستعمار ووسيلتنا الى تخطي هذه العقبة الخطورة هي الاسلام والاسلام فقط .

٢ و ٤ — التواضع ، نقد الذات

التواضع الحقيقي الاصيل هو الدليل الاوحد على ان السلطة لا توجد ولا تحكم تطبيقاً لما يعرف ويسمى « بمبدأ الحق الالهي . » والتواضع الحقيقي الاصيل هو السياج الذي يقي السلطة من الانزلاق الى ادغال الافتتان بالقوة والتواضع الحقيقي الاصيل هو الحيط الذي يشد السلطة الى فطرة الخير في النفس البشرية ، فيجعلها تؤمن بانها معرضة في كل عمل من اعمالها للخطأ قبل المديح والثناء . والتواضع الحقيقي الاصيل هو الذي يغذي السلطة بلبان الانسانية ويضفي عليها الصفات الانسانية من عدل ورحمة وكرم ورحابة صدر . لذلك فان السلطة التي تمبذ الاتضاع فانها بعملها هذا لا ترتفع الى مرتبة الالهة بل انما تنزل من حيث لا ندري الى احقر مراتب الحيوانية ، فتضع العقل الانساني والذكاء البشري في خدمة الغريزة واللذائذ الحسية ، فتصبح نتيجة لانحطاطها المروع هذا سلطة حيوانية ينظمها عقل منحرف ويوجهها ذكاء بشري شوي .

نادى يوماً عمر بن الخطاب الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس صعد ابن الخطاب المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال :
« ايها الناس لقد رأيتني وأنا ارعى على خالات لي من بني مخزوم ، فكنت استعذب لهن الماء ، فيقبض لي القبضة من التمر والزبيب . »
ثم نزل .

فقال عبد الرحمن بن عوف :

ما أردت الى هذا يا أمير المؤمنين ؟

فقال عمر بن الخطاب :

ويحك يا ابن عوف خلوت بنفسي فقلت لي :

« أنت أمير المؤمنين وليس بينك وبين الله أحد فمن ذا افضل منك ؟ »

ثم استطرد عمر بن الخطاب يقول .

« فاردت بهذه الخطبة أن أعرفها قدرها . »

ولنسمع الى ما يقوله القرآن في سورة آل عمران :

« قل : يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله

ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله . »

ذاك عمر بن الخطاب ، وهذا ما يقوله القرآن الكريم ، غير أننا كقومين

عرب لمسنا في سلطات الاستعمار وفي اجهزته وما زلنا نلمس في بعض السلطات

التي مازالت قائمة في البلدان العربية ، ان الهدف الاسامي لتلك السلطات في

بعض فئاتها هو تحقيق ربوبيتها على الارض .

ومن المؤسف ان أجهزة الادارات العامة في معظم ان لم يكن في كل البلدان

العربية ، لاتزال حتى يومنا هذا في جميع موظفيها ، تنبذ مبدأ التواضع وترفض

ان تطبقه في نفسها على نفسها ، وسبب ذلك ان أجهزة الادارة في بعض البلدان

العربية مازالت حتى هذه الساعة لاتريد تحقيق الخير العام للأمة العربية ، بل انما

تريد تحقيق ربوبية السلطة على الارض والمجتمع . ونحن نرى في حياتنا اليومية

الكثيرين من الموظفين الذي يستعملون سلطاتهم ، التي أمدتهم بها الشعب ليمارس

سلطاته عن طريقهم ، كتأكيد لسلطتهم الشخصية ، ولهذا فان المبدأ الذي يسيطر

على أجهزة الادارة في العالم العربي هو المبدأ الشخصي ، لذلك فان الطابع الرئيسي

لاجهاز الادارات العامة في معظم البلدان العربية ان لم يكن في كلها هو طابع

شخصي وليس بطابع عام وسبب هذه الحقيقة كون الموظفين في البلاد العربية

لا يرون في السلطات التي منحتها أيام الامة العربية ، سلطات تؤكد وجود
الامة العربية في الدولة ، بل أن هؤلاء الموظفين يرون في سلطاتهم وسائل لتأكيد
وجودهم الشخصي في الأمة العربية ، وهم بهذا كثيراً ما يستعبدون روح القانون
ليجعلوه قادراً على استعباد الناس . وبذلك يصبح الموظف في نظر نفسه الها
معصوم عن كل خطأ ، فتجمد حيويته ، ويخمد حماسه ، وتقل مجهوداته ،
ويقف سعيه لافي سبيل تطوير المجتمع والدولة فحسب بل سعيه في سبيل تطوير
وتثقيف نفسه ايضاً ، وبهذا يصاب المجتمع بخسارة مزدوجة ، الاولى تنفيذ
سلطات الامة في الدولة على الوجه الذي تريده الامة ، والثانية استشراف الفساد
العقلي والوجداني في فئة هي النخبة من ابناءها .

وعلى كل حال فاني سأعود الى بحث موضوع اجهزة الادارة العامة في

فصل يلي .

قلت ان نبد السلطة للتواضع ، يجعل القائمين عليها يشعرون بانهم معصومون
عن الخطأ ، ومثل هذه القناعة اذا تسربت الى اذهان المسؤولين فانها تشكل
خطراً شديداً على وجدان الشعب وضمير الامة ، وبالتالي تقعد الامة عن ممارسة
سلطانها الحقيقية ، فالامة لايشل وجدانها الا ادعاء السلطة المعصومية والعصمة ،
والامة لايجدر ضميرها الا حين ممارسة السلطة اعمالها على اساس المعصومية والعصمة
وبهذا تتنازل الامة عن حقها المطلق في تقرير ماهو صواب وما هو خطأ
وتستسلم الى عبودية بشعة مسمومة تحولها الى فئة جردها الله من كل عقل
ووجدان وضمير .

ومثل هذه الامة لاتصبح ، ولا تستطيع ان تصبح عاملاً في بناء الحضارة
الانسانية ، بل انما تسمى نتيجة لادعاء السلطات في الدولة ، عالة ومعطلة لموكب
الحضارة الانسانية المنطلق الى الامام .

ان السلطة التي تدعي العصمة والمعصومية ، والتي تحرم كل انتقاد لها ، هي
السلطة الديكتاتورية ، والديكتاتورية كما علمتنا الاحداث والحوادث التاريخية

يقوم نظامها على مزيج عجيب من الحيوانية والحماسة . ومثل هذه السلطة تلغي
ابسط حقوق الانسان ، حق الانسان في ان يفكر ، وحقه في ان يعرض على
المجتمع والدولة آراءه وافكاره ، وبهذا تنزل السلطة نتيجة لرفضها العمل بمبدأ
التواضع بالانسان من حيث كونه مخلوقا يمتاز عن غيره من مخلوقات بالعقل
والفكر والوجدان والضمير ، الى حيث هو آلة صماء وحيوان مشلول الارادة
ومجرد من غريزته في كل وجوهها ، الخيرة منها والشريرة .

ان التواضع والاتضاع هما الدواء الشافي للسلطة من وباء الغرور والاستعلاء
وهما ايضا الشمس التي تمكن السلطة من رؤية الحقائق الانسانية ، في كل
مجالاتها ، الاقتصادية منها والاجتماعية والسياسية ، وهما اليدان اللتان تنهيان العقل
الواعي للسلطة وترشدانها الى دراسة هذه الحقائق وضرورة التعامل معها .

لقد علمنا التاريخ ان الغرور والاستعلاء والكبر هي الجرائم الفتاكة التي
تنزل بعيني السلطة فتعميها ، وتجعل من السلطة قوة عمياء تضرب الفضيلة كما
تضرب الرذيلة ، تهدم الصالح كما تهدم الطالح ، ترى ان كل واجباتها تتلخص
في حقها ان تشرع القوانين ، وترى ان حقوق الامة تتلخص في اطاعة هذه
القوانين ، أصالة كانت أم خرقاء .

ان مثل هذه السلطة لا يمكن لها ان تعكس ضمير الامة ووجدانها ، وهي
بالتالي لا يمكن لها ان تساعد الامة على الصيرورة كأمة متكاملة الوعي ، تعي
حقوقها وتعي مسؤولياتها العامة . ومثل هذه السلطة الشيطانية قد تستطيع ان
تنشيء دولة ، ولكن مثل هذه الدولة التي تنشئها تكون مفتقرة الى اول
مقومات الدولة وهو الامة . اما النظام الذي نراه في مثل هذه الدولة
الممسوخة فهو نظام فوضى الغرائز الحقيرة لانظام العقل المبدع والوجدان الحي .

وتتدرج مثل هذه السلطة التي اعماها الغرور والاستعلاء والكبر من منحدر
قدر الى منحدر اشد قذارة منه وابشع ، فتلغي الاعتبارات الضميرية حين
مناقشة كل خطوة من خطواتها ، وتنسف الاتحاد الضميري للأمة ، هذا الاتحاد

الذي يوجه ارادة الامة ويخطط لها سبل سيرها رغبة وعملاً ، وتقتل دون مازحة
او شفقة كل من العناصر الخيرة في الامة وتصنع من الامة اداة تدمير جهنمية
يلهو بها طفل وقح ماجن ويلعب بها اخرق احمق مجنون .

لقد أبصر فلاديمير ايلتش لينين مؤسس دولة الاتحاد السوفياتي خطر مثل هذا
الانحراف الذي يصيب السلطة ، حينما يبتليها الله بالطيش والغرور ، فارسل في
اواخر أيام حياته رسالة الى ستالين يقول فيها :

« انكم اذا تعقبتم كل الاذكياء الذين ليس هم بليفي العريكة فانكم بذلك
تهدمون الحزب بلا شك . »

لقد كان لينين يعتبر الحزب هو الامة او بالاحرى روحها ، ولقد ادرك
بنظرته الثاقبة ان تعقب الاذكياء ، هؤلاء الذين يفرض عليهم التواضع والانتضاع
مناقشة الحقائق والتعامل معها بغية الوصول الى الكمال ، ان تعقب مثل هؤلاء
يؤدي الى هدم الأمة .

ان التواضع هو سبيل السلطة للوصول الى مراتب الكمال أما الغرور
والكبر والاستعلاء في السلطة فهذه الزوائل هي التي تسد طريق الامة الى الكمال ، والسلطة
المغرورة المتكبرة المتعالية هي عدو الشعب الاصيل عدوه في وجوده حاضراً
ووجوده مستقبلاً ، أنها عدوه في كل أجياله ، وان السلطة التي لاتناقش نفسها
أمام الشعب جهاراً نهاراً لا يحق لها أبداً من أن تناقش الناس ، ومناقشة
الناس لها يجب أن تكون في تدميرها لا في ترويض غرورها كما قد يذهب البعض .

لقد جعلنا أدواف هتلر وستالين وموسوليني ونابليون وغيرهم من الذين
ابتليت البشرية بجماعتهم وغرورهم ، لقد جعلنا كل هؤلاء نرى بأم أعيننا الى أي
إداة بشعة تتحول السلطة حينما تنبذ الانتضاع والتواضع .

لقد نبذ هتلر الناس وابتنى له قصرأ على رأس قمة شاهقة من جبال بافاريا
ليستلهم الوحي وليتعبد بين جوانبه لذاته ولنفسه ، لقد جهل هتلر أن الوحي
يستلهم من ارادة تقبل الوحي في النفس من الشعب ، الشعب في شيوخه ،

الشعب في شبابه ، الشعب في أطفاله .

لقد كان خليفتنا الاعظم عمر بن الخطاب يستوقف الاطفال ليسألهم آراءهم في الكثير من المشكلات التي كانت تعترض حياته اليومية كإنسان وخليفة .
ان القوميين العرب الاصلاء ثورة وانسانية ، يرون أن من واجب السلطة أن تأخذ بكل صالح يعرض عليها وتعمل به ووفقه ، وهذا الامر مستحيل التحقيق طالما أن السلطة تسجن عقولها في بروج عاجية يسورها الغرور ويغلق نوافذها الاستعلاء والكبر .

ان السلطة ليست عقل الدولة ، انها المركز الذي تلتقي فيه عقول الافراد في الامة لتشكيل عقل الدولة ، والمركز لا يمكن ان يحتوي عقلاً اذا كان غرور وكبرياء القائمين على السلطة يسدون مجاري تدفق أفكار الافراد والبيئات اليه .

ان طريقنا الى المعرفة هو ايماننا كما قال أحد فلاسفة اليونان باننا لانعرف شيئاً ، ومثل هذه الانكارية الإيجابية البناءة هي التي تستفز النوازع الخيرة في نفس الانسان وتستثير عقله وتدفع به في مجالات التقدم عقلاً ووجداناً وضميراً ، وطريقنا الى تحقيق هذه الغاية هو التواضع والاتضاع التفاعل بينة وأمة ، شعباً وشعوباً وانسانية . أما السلطة التي تأبى سلوك طريق الاتضاع والتواضع فان انكاريتها انكارية سلبية شديدة وهي تعتقد بان طريقها الى المعرفة هو أنها تعرف كل شيء وتدرى بكل أمر وانها قد وصلت الى الاطلاع وادراك الحقائق النهائية في الكون . ومثل هذه هذه السلطة العمياء التي تدعي بان طريقها الى المعرفة هو أنها تعرف كل شيء ، فبادعائها السخيف لاتنسف طريقها الى المعرفة فحسب بل انما تدمر طريق الامة الى معرفة ذاتها اولاً ومعرفة الانسانية ثانياً ومعرفة الكون ثالثاً . وبهذا تنتكر هذه السلطة الشيطانية للحق ولجميع القيم الموضوعية والقوانين الاساسية التي تنظم الكون وتتحكم في سيره ومجراه .

أما عقلية مثل هذه السلطة ، فهي عقلية مسوخة ، مشلولة عاجزة عن

أن تعكس عقلية انسان ذي ضمير حي وذى حسن وجداني موهف . وذلك لان عقليتها تكون تماماً عقلية الساخر الماخن ، عقلية الفاجر الداعر ، عقلية ترى في الحق منار سخوية وفي الحقيقة موضوع مجنون ، وبهذا تهدر السلطة وتدوس على كرامة الانسان وتزدرى بكيان الامة لابوصفها أمة فحسب ، بل بوصفها امة تسعى وراء الحق وتشقى في سبيل الحقيقة ، وتجهد نفسها على طريق المعرفة . ان طريق السلطة الرئيسي الى التواضع ، هو كطريق الفرد تماماً . وهذا الطريق يتمثل بالايمان العميق بالله ، فالانسان عندما ينكر وجود الله يؤله نفسه وفي حالة تأليهه لنفسه يفرض على عقله الجمود ويلحق بوجدانه الشلل ، فيتوقف حيث وصل ليعود الى حيث بدأ .

ان علينا كعرب نعيش في عصر طابعه المادية ، المادية خلقاً ، المادية مجتمعاً المادية لاهوتا (اذا جاز لنا استعمال مثل هذا الوصف - لاهوتا) أن نتحسس بهدي الله وايماننا المطلق بوجوده وذلك في كل عمل نأثية وفي كل أمر نقوم به . علينا أن نؤمن ، وذلك اذا اردنا الخير لنا وللانسانية جمعاء ، بان هناك قوانين كونية ودستور يسير وفقه هذا الكون الذي نعيش فيه والذي وضع الله فيه الانسان ليعرفه وليتعرف عليه ، ليروضه ويكفييه وفق مشيئة الفطرة الحسنة في النفس البشرية ، هذه المشيئة التي هي مشيئة الله نفسه .

ان ايماننا بالله ، وايماننا بان هناك كائنا اعظم ، وان الانسان مهما سما ومهما ارتفع فان امامه مسافة شاسعة وبوناً هائلاً للاندماج في الله والذوبان في ذاته القدسية . مثل هذا الايمان اذا اعتمدناه في كل خطوة من خطواتنا فاننا لن نعثر ولن نسقط عياء وتعباً على جنبات الطريق .

لقد خلق الله هذا الكون ، ليضعه في خدمة الانسان ، وواجبنا الاسامي ليس في تحدي الله في انكاره ، بل انما في استعمال الطاقة التي اودعها الله في نفوسنا لقبول تحدي امرار الكون لنا .

ان الايمان بالله ليست كما يقول جان بول سارتر قضية ارادية لا قضية عقلية .

انه على العكس من ذلك تماماً ، انه قضية عقلية بكل ما للعقلية من صفة ومفهوم .
انه القضية او المعضلة التي من أجل حلها يتطور الانسان عقلاً وفكراً ، ضميراً
ووجدانا . اننا نؤمن بالانسان ، ونؤمن به تاجاً للمخلوقات ، مع ان الانسان
لا يزال حتى هذه الساعة مجهولاً في كثير من مناحي تركيباته العضوية والحسية .
وجهلنا بالمجهولات في الانسان لا يفرض علينا بالضرورة انكارنا للانسان . ان معرفتنا
فقط بالشيء هي التي تخرج بالشيء الى الوجود الحسي وتفتح عين الانسان على
وجوده . اذن فالمعرفة هي التي تخلق الايمان بوجود ذاك الشيء والجهل هو الذي
ينفي وجود ذاك الشيء قبل معرفتنا له ، ولكن وجود ذاك الشيء حقيقة وواقعاً
قائم قبل معرفتنا به ، والشيء كان موجوداً وقائماً ومتملكاً لكل اسباب الوجود
وصفاته طيلة جهلنا وجهل الاجيال من قبلنا به ، لذلك فالمعرفة ليست بالضرورة
الشرط الاساسي لايماننا بوجود الشيء او بعدم وجوده ، ونحن اذا كنا حقاً
ايجابيين بنائين ، يجب الانسلط ونركز كل ما نملك من جهد ووسيلة على نكران
شيء تقصر معرفتنا دونه ، بل يتوجب علينا ان نركز طاقاتنا وحيويتنا على
انماء طاقات المعرفة فينا كي تصل الى الكمال في الادراك فتصل الى المعضلة -
معضلة معرفه الله ، لتحلها نقياً أم ايجاباً . والوصول الى مثل هذه المرحلة ، مرحلة
معرفة الله ، لا يمكن أن يتم خلال جيل او جيلين ، فنحن لانعرف الا هذا الكواكب
الذي نعيش عليه ونعرف معرفة سطحية بقية الكواكب ذات النظام الشمسي التي
تتبعه أرضنا ، والشمس ليست سوى نجم واحد من ملايين النجوم التي تجري
بما يعرف بالمجرة . ونحن حتى هذه الساعة نجهل كل شيء عن المجرة في شمسها
وكواكبها وفي ما فيها من أنظمة شمسية أخرى غير نظامنا الشمسي هذا ، وهناك
في الكون الالاف ان لم يكن الملايين كالمجرة ضخامة شمس وانظمة شمسية
وكواكب . وكلها كما قال القرآن في فلك يسبحون .

اذن فالمعضلة - معضلة معرفة الله - ليست قضية ارادية بل انما هي في الواقع
قضية معرفة وجهالة ، والجهل بالشيء لا ينفي وجوده ، فالرغبة في معرفة شيء

غير موجود حسيّاً في نظر الانسان قد تكون البرهان على وجود ذاك الشيء .
لقد بدأ الاتحاد يسلك سبيل العلم على يد داروين وذلك حينما ساق داروين
نظريته المعروفة والتي تقول بان جميع الاحياء متفرعة من نوع واحد فقط ،
مرت عليه تطورات تدريجية متواصلة ثم تفرعت عنه الاشكال المتعددة المتباينة
ولم يكن التفريق كما يقول داروين بين هذه الاشكال واضحاً في بادئ الامر بل
على العكس من ذلك فانها اكتسبت هذه الفروق بعد تطور تدريجي متعاقب
جيلاً وبعد جيل .

وينتهي داروين بنظريته هذه الى الاستنتاج القائل :

« ان تفسير الحياة بوجود خالق له ارادة في الخلق يكون بمثابة ادخال
عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت . »

ولاشك ان هذه التطورات التدريجية في الحياة واتخاذها - أي الحياة - الاشكال
والهياكل المختلفة التي نشاهدها اليوم قد عمل فيها قانون اسامي من قوانين ميكانيك
الطبيعة وأعني به قانون الجاذبية ، هذا القانون الذي اكتشفه العالم الانجليزي نيوتن .
والآن لنسمع مايقوله اينشتاين عن هذا القانون ، قانون الجاذبية . يقول اينشتاين
مايلي :

« ان قوانين نيوتن في الجاذبية لاتصلح للتطبيق الا على سطح الكرة
الارضية ، وهي لاتصلح أبداً للتطبيق في الكون الكبير . »

اذن نحن لانستطيع ، كما يقول اكبر علامة عرفه عصرنا وهو اينشتاين ، أن
نتخذ ، حتى من قوانين الطبيعة على ظهر هذا الكوكب ، قانوناً او قوانين نتعامل
وفقها والكون الكبير كما يسميه اينشتاين ، وذلك لكون الكون الكبير يحتوي على
كواكب وانظمة شمسية اخرى لها قوانينها الخاصة بها والمختلفة عن القوانين المتحركة
بمجرى كوكبنا وبالحياة عليه .

لذلك كان استنتاجنا لعدم وجود الله من القوانين التي نعرفها في حياتنا على
ظهر هذا الكوكب هو ظلم للحقيقة والحق ، اذ ان الله لا ينحصر فعله في كوكبنا

بل انما تشمل أفعاله الكون الكبير .

فاذا سلمنا بما يقوله داروين بان الحياة قد تطورت من الخلية البسيطة حتى اتخذت اشكالها الحالية ، وان الله لا يد له في خلق الانسان ووجوده فان قولنا هذا يصلح فقط على ظهر الكرة الارضية غير أنه لا يصلح كحقيقة في الكون الكبير .

لن أبسط الناس يرى أن هناك نظاماً عاماً يشد الكون في ملايين انظمته الشمسية وبلايين كواكبه بعضها الى بعض ، كما يرى في بقائه حياً وبقاء ارضه وبقاء الحياة عليها برهاناً على وجود دستور عام ينظم مجرى الكون ومسراه ويربط بين شمسنا وكواكبها وبين الشمس والكواكب الاخرى . وهذا الدستور الذي جعل الكون يعيش حتى اليوم في انسجام ووفاق دائم لا يمكن ان يكون كما تدعي الفلسفة المادية نتاجاً للصدفة .

فلو افترضنا كما قال أحدهم ان انفجاراً ضخماً وقع في أحد المكتبات الضخمة فتطايرت الكتب وتناثرت صفحاتها ، فان تطايرها ومن ثم تجمع الصفحات بعضها الى بعض لا يمكن ان يشكل قاموساً مرتباً على النسق الذي يرتبه الانسان . لذلك كله كان لا بد من وجود واضع للدستور الكوني .

اذن علينا كقوميين عوب ندين بالانسانية ان نؤمن بان مبدأ الايمان بالله مبدأ هام وجوهري كقوة للنظام وكقوة تحفظ هذا النظام في مجتمعا وفي هذا الكوكب وفي الكون ، وان هذه القوة عامل أساسي في دفع الانسان في مجالات التقدم الكوني ، كما انها القوة التي تشعر الانسان بمسؤولياته الجسام امام قوة ضخمة لامتناهية ، قوة يصارع الانسان من اجل تنفيذ ارادتها الممثلة لافي الصالح الانساني العام فحسب ، بل انما في الصالح الكوني العام ، قوة تلزم الانسان بأن ينسق خطاه كي ينسجم خط سيره وارادتها بغيره التقدم اللامتناهي ، هذا التقدم الذي بدأ ببداية الحياة ولا ينتهي الا بنهايتها .

يقول اللاهوتي الفرنسي المشهور « سان سيران » « ان من شأن النعمة - الله - ان توفق بين الاضداد . » واذا نحن تمنعنا مليا بسيرة الخليفة الاعظم عمر بن الخطاب

لوجدنا ان ايمانه المخلص العميق بالله لم يمكنه فقط من التوفيق بين الازداد بل
انما يمكنه من نفي هذه الازداد وبناء مجتمع في دولة لوجود الازداد فيها
ولاوجود للمتناقضات ، دولة لاتعرف الطبقة ولاتعامل بها ، بل تعرف أمراً
واحداً ووحيداً هو الصالح العام الممثل بالخير العام .

يقول الفيلسوف الالماني « شلايرنجر » « الانسانية بلا دين وحشية » والحق ان
ما جاء في قول « شلايرنجر » هو الواقع ، فالانسان اذا لم يؤمن ايماناً صادقاً بانه
اذا أفلت من عقاب القانون على الارض ، فإنه لاشك ملاق عقابه أمام الديان
الاعظم ، فعندئذ تبقى الرواسب الحيوانية في اعماق نفسه مستعدة ابدًا لتطفو
من جديد ولتحجب قوى الخير في النفس البشرية عن العيان والفعل . ان السلطة ،
عندما تنكر الله ، لاتقوي بذلك احساساتها بمسؤولياتها العامة أمام الشعب ، بل
انما تقوي احساساتها بمسؤولياتها تجاه القائمين عليها ، لان الرباط الذي يشد السلطة
الى الشعب هو رباط وجداني مجرد ، والوجدان لا يستيقظ في الانسان الا اذا
أمن بان هناك قوة تفوق السلطان والسلطات في ضخامة جيشها وشرطتها وان
هذه القوة باستطاعتها في كل لحظة ان تسحق كل هذه الاجهزة ساعة انحراف
خطاها عن خطى الخير العام .

انا اعرف ان هناك محاولات كثيرة ترمي الى احلال الشعب محل الله ،
وتريد ان تحل مسؤوليات السلطة امام الشعب محل مسؤولياتها امام الله ،
غير ان التاريخ في كل حوادثه قد علمنا ان كل سلطة تنهج هذا السبيل تنتهي
ابداً ودوماً الى احلال مسؤولياتها امام القائمين عليها محل مسؤولياتها امام
الله والشعب (هتلر ، ستالين ، موسوليني ، النخ) فالسلطة التي لاتؤمن
بالله لا يمكن ان تؤمن بالشعب ، اذ انها تركز ايمانها على نفسها لتتعبد لنفسها
في محراب الغرور .

ان السلطة لاتمثل القوة المادية للأمة فحسب ، بل انما تمثل القوة الروحية ايضاً .
وعندما تنازل السلطة ، او ترفض القيام بالعمل كقوة روحية ، عندئذ يدب

في المجتمع الضعف وتصاب الدولة بالانحلال . والتواضع ، كما يقول الكردينال دي بيرون ، هو الاساس الذي تركز عليه الحياة الروحية .
كما ويقول اللاهوتي الفرنسي « سان سيوران » عن التواضع الحق :
« انه من المستحيل ان نكون اتقياء حقاً ، ما لم نكون متواضعين حقاً ، ما لم نعرف حالة الشقاء التي ظلت في النفس بعد الخطيئة ، (سقوط آدم) وما لم نعلم حاجتها الى تعمة تعنيها في كل لحظة كي لاتقع في الخطيئة من جديد . »
ان الايمان بالله ليس أمراً نابغاً من العقل فحسب ، انه كما يقول الفيلسوف والرياضي الفرنسي باسكال أمر ينبع من القلب ايضاً . انني كما أرى بان رغبتنا الغامضة في الايمان بكائن اعظم ، كائن له هذه القدرة اللامتناهية في طاقاتها التنظيمية للكون في كل شمس وفلاكه وكواكبه ، هذه الرغبة الغامضة لهي في نظري دليل مابعده من دليل على وجود الله . فلقد تلاشت منذ فجر الانسانية الكثير من الرغبات الانسانية واضمحلت من الخرافات والاساطير ما كان منها عقيدة وما كان منها نظاماً ، غير ان رغبة الانسان في الايمان بخالق مازالت ترافقه حتى هذا العصر الذي يحاول ابناؤه ان يخضعوا كل شيء فيه للعقل والعلم والتجربة .

ان الانسان عندما يرى ان فيه ومن اجله تبدأ الحوادث وتنتهي ، وأنه مسؤول لذلك فقط أمام نفسه المجردة لا أمام قوة أزلية أبدية أوجدت في نفسه لتفعل فيها يعيش ويحيا ، عندئذ يركز الانسان كل مجهوداته على نفسه ويتنامى واجباته امام الاجيال المقبلة وامام الكون ، آنذاك يصاب الانسان « بالانانية » ويصبح كالحیوان تماماً الذي لا يفتش عن طعامه الا حينما يجوع .
انني قبل ان اختتم بحثي في تواضع السلطة والانسان وضرورة الايمان بالله اجد من المفيد جداً أن اضمن الحوار المشهور « لباسكال » صفحات كتابي ، هذا الحوار الذي يدور بين مؤمن وملحد . وسأشير للمؤمن بحرف (م) وللملحد بحرف (ح)

م : « الله موجود أو غير موجود » على ماذا تراهن .

ح : اني لا أريد المراهنة .

م : ولم ذلك ؟

ح : لان في المراهنة مجازفة .

م : وبما تجازف ؟

ح : بحريتي وارادتي .

م : نعم يجب عليك وضعهما في الميزان ، بل القذف بهما في معترك الحياة .

انت حر وتستطيع ان تنكر وجود الله ، وتضرب بحقائق الدين عرض

الحائط اذا اردت ، كما وتستطيع ان تقر وجود الله وتقبل حقائق

الدين اذا شئت . ولكنك لاتستطيع تجنب الاختيار بين واحد من الامرين .

ح : ولم وجب الاختيار ؟

م : لانك في سفر والرحلة قصيرة والموت قريب ، وربما كان عاجلاً مفاجئاً .

وان أرجأت الاختيار لحظة او دقيقة ربما فوتت عليك الفرص .

ح : هذا صحيح ولكن كيف أختار ، ولانور يهديني في الاختيار .

م : لاعجب ألايدلك العقل على شيء ، فالمسألة ليست مسألة معرفة وبرهان

بل مسألة مكسب او خسارة ، مكسب هائل ، أو خسارة عظي ،

مسألة حياة او موت . ففي اي الناحيتين مصلحتك ومنفعتك ؟ « الله

موجود أو غير موجود . » لنضع الفرض الاول « الله موجود » لو قبلت

هذا الفرض ، واعترف بوجود الله ، واتبعت وصايا الدين كسبت

الحياة الابدية والسعادة اللامتناهية . أما اذا انكرت وجود الله وعصيت

أوامر الدين فقد خسرت كل شيء واورقت نفسك في العذاب الابدي

لنضع الفرض الثاني : « الله غير موجود » اقول سواء قبلت الفرض

او رفضته ، ما كسبت ولا خسرت شيئاً - وعلى ذلك فان راهنت على ان

الله موجود كسبت كل شيء في الفرض الاول ولم تخسر شيئاً في

الفرض الثاني .

ح : هذا صحيح وجميل ويحق لي ان أختار هذ الفرض ، ولكنني لوفعلت ذلك ضحيت بلذاتي وسعادي في الدنيا .

م : لاتنس انك مرهن ، وكل مرهن يضحي بشيء لنوال شيء أعظم .

ح : نعم . ولكنني أجازف بكسب مؤكد في سبيل كسب غير مؤكد .

م : انك تجازف بكسب محدود في سبيل كسب لا محدود .

ح : ولكن الكسب المحدود مرغوب لي . انه كل شيء عندي . أما الكسب اللامحدود فهو لاشيء .

م : ربما قررت ذلك لانك فقدت بعض حريتك . واصبحت عاجزاً عن التطلع الى شيء اسمى من ذلك الكسب المحدود .

ح : نعم اني غارق في اللذات وحريتي ضائعة في الشهوات .

م : والرهان طريق يحرك منها - اذن رهان وترقب نتيجة الرهان .

ح : انك محق وكلامك يعجبني ، ويملاً قلبي حماسة وقوة .

م : اذا كان ذلك صحيحاً ، وكان كلامي يبعث الحماسة في نفسك فاعلم اني ركعت قبله وسأركع بعده للموجود اللامتناهي ، متوسلاً اليه متضرعاً أن يضمك الى احضان الدين ، كما ضمني اليه من قبل . - والدليل على انك لن تخسر شيئاً ، ان الدين جعلك صبوراً أميناً صادقاً محباً مخلصاً . نعم انك تفقد اللذات الموبوءة ولكنك تكسب أخرى محلها ، اعظم منها .

ان في هذا الحوار البديع درساً نافعاً لنا نحن معشر القوميين العرب . ان الدين كما أرى هو سياج كل مجتمع صالح . انه السياج الذي لا يستطيع أي عايب ان يتخطاه ، أكان ذاك العايب فردا او جماعة او السلطة في الدولة . لقد عاش الانسان منذ الفجر المجتمعي الاول وهو يفتش عن الانظمة والقوانين التي تحمي وجوده وتصور كرامته وتدعم فيه انسانيته ، فلم يجد حتى يومنا هذا من نظام يشمل العقيدة والحياة وفيه بأمانه ويحققها كالدين

ان جميع المبادئ الصالحة تدعو الى الخير ، وخير الانسان أصبح الآن

الهدف النهائي لكل عمل يريد له صاحبه أن يتسم بالصلاح وأن يوصف بالاصلاح .
وجميع الاديان السماوية في جوهرها تتوجه بالانسان نحو صلاح نفسه وصلاح
مجتمعه . ان الانسان العدمي الذي يؤمن بان الحياة تنتهي عند القبر لا يمكن
ان يصبح انسانا حضاريا ، انه انسان يستعيز عن عقله بغيريته ويستبدل وجدانه
بالنشوة والانتشاء الحسين .

لقد علمنا التاريخ ان الأمم والشعوب التي بنت الحضارات كانت أمماً مسيرة
بعقيدة وایمان مطلق بتلك العقيدة ، ولقد تخطى ايمانها بنتائج اعمالها جيلها وعصرها
الى الاجيال والعصور المتعاقبة . ان الايمان هو المولد لكل حياة منتجة ، ويجب
الا يكون للايمان حدود او نهاية ، فایمان الانسان اذا لم يتعد مجتمعه او دولته
او قوميته الى الانسانية جمعاء ينتهي بالانسان الى صيورته انسانا عدوانيا يرى
الكون ينتهي عند حدود بلده . لذلك كان الايمان بالله ، الايمان بمنظم للكون ،
هو طريقنا الوحيد لارساء دولة يتدفق مجتمعا بالخير والعدل والكرامة .

لقد اعتمدت القومية العربية اول ما اعتمدت التواضع أساساً لها ، والاسلام
يذكر العرب بضرورة التواضع خمس مرات كل يوم وذلك حينما يقف المؤذن
ليدعو المسلمين والعرب الى اداء واجباتهم الدينية . ان الاذان يبدأ بكلمتي « الله
اكبر ! » انه يذكر الفرد ويذكر السلطة ويذكر الانسانية جمعاء بانها مهما
بلغت من العلم ومهما بلغ العقل من التقدم ومهما بلغت من القوة فان هناك
قوة اكبر منها وأضعف فאלله اكبر .

قلت في بداية بحثي ان الايمان بالله يقود الفرد والسلطة الى التواضع ، كما
وان التواضع يؤدي بالفرد والسلطة الى الايمان بانه وانها غير معصومة عن الخطأ ،
ومثل هذا الايمان ، الايمان بعدم المعصومية ، يجعل الفرد كما يجعل السلطة
ترجع عقب كل نشاط الى مناقشة اعمالها والتأمل العميق بما اتته والامعان
في كل أمر قامت او تنتوي القيام به ، وذلك بغية اكتشاف اخطائها واكتشاف
انجع الوسائل لتلافي الاخطاء مستقبلا ، وهذا هو ما يعرف بنقد الذات .

ان مبدأ النقد الذاتي هو من أصعب المبادئ تطبيقاً من قبل السلطة . فالغرور وما يلبده من عناد وكبرياء وطيش وحماقة ، كل هذه الرذائل التي تشكل الرغبات الانسانية المنحرفة في تأكيد الوجود وفرضه ، تسد امام السلطة الطريق لمراجعة اعمالها ومناقشة ذاتها .

انه من السهل جداً على الانسان ان ينقد غيره ، اما ان ينقد ذاته ويواجه ذاته بمسؤولياته وأخطائه فهذا العمل يقتضي الضمير الانساني جهوداً شاقة مضمّنة للتغلب على ما يسمى بالاعتبارات الاجتماعية من فرض مهابة وتأكيد وجود . ان هناك ميلاً شريراً في الانسان كما في السلطة لتأليه نفسه ولتأليه نفسها ، لذلك فان السلطة المنحرفة ترى في مبدأ النقد الذاتي العقبة الرئيسية في طريقها الى تجسيد الوهيتها على الارض ، كما وترى ان التعامل بهذا المبدأ خطراً على وجودها وهي بهذا لا تحرم على ذاتها نقد ذاتها فحسب ، بل انما تحرم على الغير نقدها ايضاً ، لذلك تندفع السلطة في طريقها اندفاعاً طابعه الرعونة والطيش فتسير نتيجة لاندفاعها بالمجتمع والدولة الى قدر فاجع محتوم . بينما ان السلطة الشعبية جوهرراً وطابعاً ترى في تطبيق مبدأ النقد الذاتي وسيلة هامة من وسائل بقائها ومقوماً جوهرياً من مقومات وجودها ، وهي بذلك تضع الارادة في خدمة الفكر ولا تضع الفكر في خدمة ارادتها ، لذلك فان سير السلطة في المجتمع يكون منسجماً والارادة العامة للامة في الحياة ويكون منظماً لهذه الارادة وموجهاً لها نحو تحقيق الصالح العام ، لهذا تكون جميع اعمالها نابعة من فكر نير وضمير حي ، لا من رغبات غامضة او نزوات خرقاء .

ان مبدأ النقد الذاتي هو دليل ما بعده دليل على ان العقل والضمير العامين لا يزالان نشيطين فعالين في الدولة ، وعلى ان السلطة ما زالت عند غرضها الاسامي الممثل بالسعي الدؤوب للوصول بالمجتمع والدولة الى ذرى رفيعة من التكامل والكمال .

ان تطبيق مبدأ النقد الذاتي والعمل بموجبه من قبل السلطة يدل على أن السلطة

تتمتع بالإضافة الى الفعل والحكمة بالشجاعة الادبية . والسلطة التي تتمتع
بمثل هذه الفضيلة (الشجاعة الادبية) سلطة لها جميع مقومات الزعامة وصفات
القيادة المهمة . فالشجاعة الادبية للسلطة تحمل السلطة أبداً ودوماً على مجابهة
الشعب بالحقائق واطلاع الامة على واقع الامور ومجراها دون ماخداع او تخدير
او تضليل ، وذلك لان شجاعتها الادبية التي استطاعت ان تضع ذاتها مجردة عارية
أمام عقلها وضميرها تدفع بها الى وضع الشعب في ذاته امام ذاته بكل ما في
واقع ذاته من مياء وحسن .

ومثل هذه السلطة لا يمكن أن تتعامل الا مع الحقائق ، وهي لا يمكن أن
توجه الشعب الا الى التعامل والحقائق ، وهي لهذا توجه رغائب الشعب الى
حقيقة الحقائق لا الاوهام وبذلك تصون في الشعب الكثير من الطاقات وتحافظ
على قوى الامة من أن تهدر جرياً وراء الاحلام وتعلقاً باذيال الاوهام . وذلك
لان من يفرض الحقيقة في نفسه وعلى نفسه يفرضها في الغير وعلى الغير ، كما وان
من يستطيع ان يقهر الشر في نفسه لمستطيع ان يقهر الشر في الغير .
اننا في المرحلة الحالية من مراحل تبلورنا القومي والانساني بمسيس الحاجة الى
الشجاعة الادبية . فالشعوب العربية قد عاشت طيلة قرون وهي مفلولة بقيود
الاستعمار والاستعباد الاجتماعي ، والنفس العربية طيلة تلك القرون كانت تنو
بشوق ولهفة الى هذه الساعات المشرقة التي نعيشها اليوم ، وقد تولدت في النفس
العربية نتيجة لذاك الشوق وهذه اللفه ورغائب تتعدى الطموح الى الطمع ، ورغائب
تجعل من جماهير الامة العربية غير قادرة على التمييز بين الممكن والمستحيل ، وهذه
الرغائب اذا لم تكبحها سلطة تتمتع بالشجاعة الادبية فان هذه الرغائب
الشعبية الجارحة تهدد المجتمع والدولة بالفوضى والانحلال والحرب . ان طريق
السلطة الى كبح مثل هذه الرغائب الضارة يبدأ بكبح السلطة لرغائبها الخاصة ،
هذه الرغائب التي ان لم تهذب وتشدب فانها ستتحرف بالسلطة من حيث هي
سلطة قامت لتحرير الشعب ، الى حيث هي سلطة تقوم من أجل استعباد الشعب
واخضاعه .

ان عمل السلطة بمبدأ النقد الذاتي لا يدل فقط على ان هناك سلطة تعمي واجباتها، بل انما يدل ايضاً على ان هناك أمة تعرف ماعليها من واجبات ومالها من حقوق ، وتعرف ان جميع ما في المجتمع من مؤسسات وهيئات فهو خاضع لمراقبة الأمة وخاضع لتوجيهاتها وخاضع للإلغاء والتبديل والتثبيت ، وبالتالي خاضع للمكافأة والعقاب ، ومثل هذه الامة ذات السلطة الواعية أمة تضرب جذور بقائها في تربة الحياة وترداد فعاليتها الحيوية وتحقق رسالتها الحضارية .

٣ — العدالة :

ان العدالة لا تتحقق في حال ضمان الدولة للأفراد المساواة أمام القانون ، ولا تتحقق ايضاً في حال حصول الأفراد على حق الانتخاب ، بل انما تتحقق في حال حصول الانسان على الحق في حياة كريمة سعيدة يكفلها نظام عام يحمي الانسان من الاستغلال والاستعباد المادي والمعنوي ، لذلك فان العدالة مركب يتألف من ثلاثة عناصر هي العدل الاقتصادي والعدل الاجتماعي والعدل السياسي ، ومن اتحاد هذه العناصر الثلاثة تنشأ العدالة الحقيقية الاصلية .

والعدالة فلسفتان اولاهما الفلسفة المادية والتي تقول بانه يكفي للدولة ان تضمن عدم استغلال الانسان لأخيه الانسان اقتصادياً حتى تتحقق العدالة وتسود في المجتمع . وهذه الفلسفة هي التي تنظم خطوات الشيوعية وتحدد لها مناهج سيرها . أما الثانية فانما تقول بان العدالة تتحقق في حال ضمان الدولة للأفراد المساواة أمام القانون ، وفي حال حصول الأفراد على حق الانتخاب ، وفي حال اتاحة الحرية للأفراد في المجتمع ، حرية النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وتعمل بهذه الفلسفة دول اوربا الغربية والحركات الاشتراكية في تلك الدول هذه الحركات التي تؤمن بان الطريق الى تحقق العدالة طريق تطوري لا طريق ثوري كما تريده الفلسفة المادية الممثلة بالماركسية كنظام عام .

لذلك ترى الفلسفة الغربية ان بقاء الملكية الخاصة وبقاء الحرية الفردية في توجيه واستثمار الفعاليات الاقتصادية أمران لا يتنافيان والعدالة ، بينما ترى الفلسفة المادية

في بقاء الملكية الخاصة وفي الحرية الفردية السببين الاساسيين في انتفاء العدالة وعدم امكان تحقيقها في المجتمع ، وذلك لان ضمان النظام العام وحمايته للحرية الفردية في حقل النشاطات الاقتصادية يؤدي بالتالي الى استثمار الانسان لأخيه الانسان ، او بالاحرى يقود الى استغلال ملاك وسائل الانتاج للعمال والمستهلكين على حد سواء .

بما ورد يتبين ان كلا النظامين من رأسمالي فاشتراكي غربي ، واشتراكي مادي ، يقولان بان هناك استحالة في التوفيق بين الانسان كجسد وروح وباستحالة اقامة توازن بين المطالب المعنوية للانسان ومطالبه المادية ، لذلك تأخذ الرأسمالية والاستراكيات الغربية على عاتقها تأمين المطالب المعنوية للانسان وتهمل البحث الجذري عن تأمين مطالبه المادية ، بينما تقول الفلسفة المادية باستحالة وجود مطالب معنوية للانسان ، اذ أن مطالبه المادية هي التي تشكل مطالبه المعنوية وان انتفاء تحقق المطالب المادية للانسان يؤدي الى الاستحالة في تحقق مطالبه المعنوية ، وذلك لان مطالب الانسان المعنوية هي الصورة المنعكسة في المجتمع لمطالبه المادية وسبب هذا الأمر كون الانسان مادة ومادة فقط .

هذا عرض موجز لفلسفتي العدالة في العالمين الرأسمالي والشيوعي ، فما هي فلسفتنا كقوميين عرب ، وما هو موقفنا من هاتين الفلسفتين ؟

قلت فيما تقدم ان الواضع الاول لفلسفة القومية العربية هو بطلنا القومي الرسول الاعظم محمد ، وانني لمؤمن بان الفلسفة التي جاء بها الاسلام لاتزال هي الفلسفة الصحيحة للعدالة في كل مفاهيمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وذلك لان هذه الفلسفة نظرت الى الانسان ككائن يتألف من مادة وروح وهي لهذا السبب توخت في كل خطواتها اقامة توازن بين المطالب المادية للانسان ومطالبه الروحية ، ومن يتأمل في القرآن وفي الاحاديث يجد ان الاسلام حاول مخلصاً ان يمنع طغيان المطالب المادية للانسان على مطالبه الروحية والعكس بالعكس فهو (أي الاسلام) يحارب الزهد ويحارب الرهينة ويحارب التنسك بالقوة ذاتها التي يحارب بها الطمع والاثرة والاستغلال .

لقد قام الاسلام عقب انتشار اليهودية والمسيحية . ورأى الاسلام ان اليهودية تمثل الفكرة المادية وتلتقي بالمادية الرومانية ، وهي ترى ان اليهود هم شعب الله المختار ولهذا السبب فلمهم الحق وحدهم بالحياة دون بقية الشعوب الاخرى ، وان الامم الاخرى انما هي أمم خلقها الله لتكون في خدمة الشعب اليهودي ، وبهذا تلتقي اليهودية بالمادية الرومانية ، هذه المادية التي تسمى كل شعب غير الشعب الروماني بالبرابرة .

والديانة اليهودية ديانة مغلقة ، أي أنه لا يمكن ان يصبح الانسان يهودياً الا عن طريق الولادة فقط .

اما المسيحية فانما تمثل ردة الفعل للمادية اليهودية والمادية الرومانية ، وهي لهذا تحارب التفرقة العنصرية ، التمييز العنصري وتساوي بين جميع المسيحيين دون النظر الى اللون او العنصر ، غير ان المسيحية تحمل جميع المطالب المادية للانسان وتجعل من الانسان كتلة روحية لا تأكل او تشرب او تتناسل ، لذلك نسمع المسيح يقول في انجيل متى الاصحاح الثالث عشر والعدد ٤٥ و ٤٦ :

« ايضاً يشبه ملكوت السموات انساناً تاجراً يطلب لآلئاً حسنة فلما وجد أولؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع كل ما كان له واشتراها . »

كما ويقول المسيح في الاصحاح الثامن من انجيل مرقس وفي الاعداد : ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ و ٣٧ :

« من اراد ان يأتي ورائي فليترك نفسه ويحمل صليبه ويتبعني . فان من اراد ان يخلص نفسه يهلكها . ومن يهلك نفسه من اجلي ومن اجل الانجيل فهو يخلصها . لانه ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم وخسر نفسه . او ماذا يعطي الانسان فداء عن نفسه . »

كما ويقول المسيح في انجيل مرقس ايضاً وفي الاصحاح العاشر منه وفي الاعداد : ١٧ - ٢٢ :

« وفيما هو (المسيح) خارج الى الطريق ركض واحد وجثا له ، وسأله :
ايها المعلم الصالح ، ماذا اعمل لأرث الحياة الابدية ؟ فقال له يسوع : لماذا تدعوني
صالحاً ، ليس احد صالحاً الا واحد وهو الله . انت تعرف الوصايا : لا تزني !
لا تقتل ! لا تسرق ! لا تشهد بالزور ! لا تسلب ! اكرم اباك وامك !
فأجاب وقال له : يا معلم ، هذه كلها حفظتها منذ حدثتي . فنظر اليه يسوع
واجبه وقال له يعوزك شيء واحد : اذهب بع كل مالك واعطه الفقراء
فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني حاملاً الصليب .

بما ورد يتضح ان الاسلام كنظام ودين جاء ليوفق بين اليهودية والمسيحية ،
ولهذا نرى الاسلام في المراحل الاولى ليقظة القومية العربية يولي الانسان روحاً
وجسداً قدرين متساويين من الاهتمام والعناية . لقد رأى الاسلام في التحرر
المادي للانسان شرطاً اساسياً من شروط تحرره المعنوي ، تحرره فكراً وتحرره
وجداناً ، غير انه لم يعتبر التحرر المادي للانسان الهدف النهائي والمولد الحقيقي
للعدالة ، بل انما رأى في اتحاد الانسان جسداً وروحاً وفي تفاعل الجسد والروح
تفاعلاً واعياً هو الوسيلة الى اقامة العدالة في المجتمع .

قد يقول البعض ان الاسلام أتاح في اباحته حق الملكية وفي دعوته البشرية
الى الايمان مبدأ التدرج الطبقي في المجتمع ، حق استغلال الانسان للانسان . غير ان
مثل هذا القول ، وان كان صحيحاً في ظاهره ، لكنه خاطيء في جوهره ،
فالاسلام هو ثورة على المظالم ، المظالم السياسية والاجتماعية ، وروح الاسلام
يحارب الاستبداد والاستغلال والطبقية ، اما التدرج الطبقي الذي يخاله ذو
النظرة السطحية كامناً في الاسلام ، فانما هذا التدرج يتوخى تقرير التفاوت
في المواهب بين الافراد ، ولهذا فالاسلام لا يرى في هذا التفاوت في المواهب
المبرر الذي يخول الدولة في اقامة تفاوت في مستويات معيشة الطبقات في المجتمع .
ونحن كعرب قوميين نستطيع ان ننطلق حين اقامة نظامنا العام للدولة من
نقطة اساسية تعتبر بمثابة الروح الحقيقية للاسلام ، واعني بهذه النقطة نقطة اقامة

التوازن بين مطالب الانسان المادية ومطالبه المعنوية . ونستطيع في حالة تعمقنا في دراسة القرآن والاحاديث والتاريخ الاسلامي ان نستمد المقومات الاساسية لهذا النظام الذي نريده عادلاً كريماً .

ولا بد لي ان اشير هنا الى حقيقة مؤلمة وهي ان المسلمين منذ وفاة العالمين الكبارين جمال الدين الافغاني ومحمد عبده لم يقيم بينهم من نخبة مثقفة تدرس الاسلام على اضواء العلم في العصر الحديث . اما الحركات السياسية ذات الطابع الاسلامي كجمعية الاخوان المسلمين والشبان المسلمين فان ضحالة ثقافة القائمين على امر هاتين الجمعيتين حالت دون قيام فئة واعية بين اعضاء الحركات الاسلامية تعتمد روح الاسلام الحية في تخطيط نظام اجتماعي متكامل .

انني لاناكر المجهودات المشكورة التي قدمها سيد قطب ، غير ان اجتهادات السيد سيد قطب كانت تتسم بالطابع النظري اكثر من اتسامها بالطابع العملي .

١ — العمل الاقتصادي :

قلنا ان الانسان جسد وروح ، جسد يبقي الروح فاعلة في المجتمع ، وروح يوجه الجسد في ميادين النشاط العام لتدعيم أسس المجتمع وتوطيد بنيانه ، بغية تجسيد الحرية الحقيقية في الدولة والمجتمع .

ان خلق الفرد الحر ضميراً والحر عقلاً والحر وجوداً ، غير قابل التحقيق في حالة اقترافنا الخطأ الفظيع الذي اقترفته الرأسمالية في المجتمعات الاوروبية ، هذا الخطأ الممثل بوضع الانسان في خدمة رأس المال وفي خدمة طبقة معينة تملك رأس المال . ان الرأسمالية عندما تأخذ بهذه العقيدة وتعمل بها فانما تقلب مفاهيم حقائق الوجود الانساني اذ ترى في الانسان وفي استغلاله واستثماره بغية تنمية رأس المال . السبب الرئيسي لوجود الانسان أعمالاً كان أم فلاحاً . لذلك ترى الرأسمالية في تنمية رأس المال ، لافي توفير حياة سعيدة للفرد ، الهدف النهائي لكل نشاط اجتماعي .

ان الرأسمالية تمثل وبحق «الأنا» المذعورة «الأنا القلقة» «الأنا» الخائفة من غدها ، انها «الأنا» المعلقة لفئة من الناس يملكون وسائل الانتاج ويديرونها وهم فاقدو الايمان بأبسط صفات الانسان ، صفته الاجتماعية ، هذه الصفة التي تلزمه اجتماعيا بالتعاون والتكافل والتعاقد وغيره من ابناء قومه وابناء الانسانية وذلك بوصفه فردا يعيش في مجتمع قومي وفي مجتمع انساني ، ويرى ان اسباب وجوده مرتبطة باسباب وجود غيره ، وان حفظ بقائه مرتبط بتدعيم بقاء الغير .

اذن فالرأسمالية تمثل «الأنا» المنحرفة ، «الأنا» التي تضرب اول الصفات الاجتماعية في الانسان ، واعني بهذه الصفة التعاون الذي يشكل القانون الطبيعي لكل مجتمع صالح ، ولهذا فان النظام الرأسمالي يهدم المجتمع لانه يهدم اول مقومات الانسان بوصفه كائناً اجتماعياً تفرض عليه طبيعته الاجتماع ، لذلك كانت الرأسمالية مجردة من أبسط الصفات الانسانية ، وهي لهذا تتنافى والانسانية في كل قواعدها وعقائدها وتقاليدها ، لانها تنفي الصفة الاجتماعية للانسان وتنكر عليه انه كائن اجتماعي وبذلك تجرده من أبسط حقوقه الانسانية ، حقه في ان يتعاون وغيره على تأمين اسباب بقائه وتدعيم معاني الكرامة الانسانية في نفسه ونفس الغير .

ان الرأسمالية هي الطريق الى الدولة الطبقية ، ونحن كقوميين عرب نحاول في هذه المرحلة ان نجسد نظاما يضمن لنا العدالة والحرية ، يتوجب علينا كما قلنا في موضع آخر من هذا الكتاب ان ننظر الى ملاك وسائل الانتاج نظرة المراقب الخذر .

اننا نؤمن برأس المال ، ونؤمن به كعنصر جوهري في كل فعل اقتصادي ، غير اننا نؤمن ايضاً بان العمل هو ينبوع الوحيد لرأس المال ، وهو الذي يضاعف رأس المال ويزيد فعالياته ، كما وانه ، اي العمل ، هو الذي يفسح لرأس المال الطريق الى التكاثر والتناسل .

لذلك فان أبسط بداهات العدالة تفرض علينا ان نوجه رأس المال نحو تحقيق

صالح صاحب العمل لاصحاب رأس المال ، كما وعلينا ان نحارب كل محاولة ترمي الى فرض سلطان الرأسماليين على الدولة .

اننا في هذه المرحلة من مراحل تطورنا الاقتصادي والاجتماعي مستعدون أن نضع جميع مافي الدولة من أجهزة وامكانيات في خدمة رأس المال وذلك بعد تجريد رأس المال من الصفات الشخصية . كما وأننا نرى ان حق رأس المال في هذه المرحلة وفي مراحل أخرى تليها ، أقول ، ان من حق رأس المال أن يستأثر بالجزء الاوفر من الارباح ان لم يكن بكل الارباح ، وعلى العمال العرب ان يعرفوا ان ليس أمامهم في هذه المرحلة وفي مراحل أخرى سوى البذل عملاً والتضحية جهوداً في سبيل انماء رأس المال لا انماء ثراء الرأسماليين .

ان رأس المال العامل في العالم العربي لا يزال في كل مؤسساته ضعيفاً وذا فعاليت محدودة ولهذا السبب لانستطيع في هذه المرحلة أن نسمح للعمال بالمطالبة بالعدل الاجتماعي وبالمطالبة باعادة موارد رأس المال أجوراً لهم ، اننا في حالة سماحنا للعمال بالاستيلاء على ارباح رأس المال ، نتنكر لابطس قواعد الانماء الاقتصادي .

ان رأس المال في العالم العربي اليوم هو شبيه بغرسه في أيامها الاولى وعلى العمال في العالم العربي أن يتذرعوا بالصبر وأن يتعهدوا هذه الغرسه بالعناية والعمل حتى تنمو وتصبح شجرة تتألف بالثمار الناضجة التي هي من حق العمال والفئات الأخرى من المجتمع .

لذلك يتوجب على العمال في العالم العربي ، في هذه المرحلة وفي مراحل أخرى تليها ، ألا يتساءلون أبداً عما كسبوه بل عما انتجوه ، فالمعركة الحالية التي نخوضها اليوم هي معركة انتاج لامعركة توزيع ، انها معركة عمل ، وقد يبلغ هذا العمل موتبة السخرة . على هذه الحقيقة يتوجب على العمال العرب تعويد أنفسهم .

كما وان على العمال العرب أن يؤمنوا ايماناً عميقاً بان الثوريين العرب في البلدان

والأ
بالبن
علا
وش
البر
في
اش
ها
فا
تم
ه
لي
ول
أن
ما
مجه
الكا

العربية المتحررة ، لن يسمحوا ابداً لملاك وسائل الانتاج بسرقة مجهوداتهم
واتعابهم ، بل انهم سيوظفون هذه الاتعاب والمجهودات في رأس المال وذلك
بغية توفير امكانيات ومقومات العدل الاجتماعي .

كما وانه يتوجب على العمال العرب في هذه المرحلة وفي مراحل أخرى
تليها أن ينسوا ان ليس لهم من حق سوى حق العمل وحق العمل وحده ، وان
الدولة ملزمة بتأمين هذا الحق لهم . عند حق العمل تنتهي في المرحلة الحالية
وفي مراحل مقبلة كل حقوق العمال . فلقبول هذه الحقيقة يجب ان يعد
العمال أنفسهم ، فنحن نمر في فترات بناء ، وفي فترات البناء يركز الجميع
جهودهم على انجاز البناء ، لاعلى الصراع على اقتسام بناء لم يقم بعد .

لذلك فالقوميون العرب يأخذون على انفسهم حماية العمال من كل حركة
سياسية تهدف الى خداع العمال والتزير بهم عن طريق اقناعهم بانه في رفع هيئة
معينة او حزب معين الى الحكم الحل الفوري لمشاكلهم . كما يأخذ القوميون العرب
على عاتقهم حماية العمال من الاستغلال ويضمنون للعمال نتائج مجهوداتهم من أن تستغل
لحساب فئة او طبقة معينة من المجتمع ، كما ويتعهدون أن تستهدف قوانين
العمل في المرحلة الحالية ومراحل أخرى تعقبها لتنظيم علاقات العمال بآرباب
العمل على أساس التعاون الصادق المخلص والمستهدف اناء رأس المال لا اناء
أرباح الرأسماليين ، فنحن كما قلت في موضع آخر من كتابي هذا نمر بمرحلة
الرأسمالية ، واعني بالرأسمالية ، رأسمالية الدولة ، لا الرأسمالية الفردية .

ان مثلنا في هذه المرحلة وفي مراحل مقبلة كمثل عائلة لها من الدخل الشهري
مبلغ يوازي مئة ليرة سورية ، ولدى رب العائلة مبلغ متوفر من المال يعادل
خمسة آلاف ليرة سورية ، أن الحكمة تفرض عندئذ على رب العائلة أن يوظف
هذا المبلغ من المال في مشروع ينمي ويزيد في الدخل الشهري لعائلته ، لا أن
يستمتع الى صياح ابنائه وزعيقهم وصخبهم وضجيجهم فينفق عليهم من رأس
المال المتوفر لديه .

ان توفر امكانات العدل الاجتماعي لا يتحقق نتيجة للنظريات الفلسفية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بل انما تتوفر هذه الامكانات في مجتمع يؤمن ابناؤه بالبذل والتضحية . فالنظريات السياسية من اشتراكية وشيوعية ليست « بمصباح علاء الدين » يكفي للمرء أن يفكره حتى يحضر العفريت فيحقق له رغائبه ويجسد له أمانيه ، أن الطريق الى العدل الاجتماعي طريق ينيره مصباح زيتيه العرق وشعاعه الانفاس اللاهثة واناؤه الاجساد المكدودة .

لقد جاءت الشيوعية الى الاتحاد السوفياتي فسحقت الاقطاع ودمرت الطبقة البرجوازية ونسفت جميع الاسس والهيئات والاجهزة الاقتصادية التي كانت قائمة في العهد القيصري ، واخيراً وصلت في اجراءاتها الى الغاء الملكية الخاصة في كل اشكالها ، غير أن القائمين على النظام الشيوعي لم يروا ان مهمتهم قد انتهت عند هذا الحد ، بل إنهم على العكس من ذلك تماماً ، لقد رأوا ان مهمتهم الاساسية قد بدأت وان عملهم السابق الممثل بهدم مؤسسات النظام القيصري هو بمثابة عمل تمهيدي لعملهم الاساسي المستهدف تحقيق قيام المجتمع الشيوعي ، لهذا السبب توجهت السلطات الشيوعية في الاتحاد السوفياتي بالعمال نحو انهاء رأس المال ولم تسمح للعمال ابداً بالمطالبة بتحويل الارباح الى اجور ، بل انما أعادت الارباح الى رأس المال ضاربة بذلك عرض الحائط بأبسط قواعد الاخلاقية الماركسية ، هذه الاخلاقية التي تقول بان الارباح هي حق مكتسب للعمال ، فهل أخطأ لينين وهل تنكر ستالين لمبادئ ماركس وعقائده انجازاً؟ انهما لم يتنكرا ماركس ولم يشذا عن انجاز غير انهما وجداً ان هناك قوانين حديدية تفرض على المرء أن ينكر ويتنكر لقواعد العدل والعدالة مدة من الزمن بغية تجسيد العدالة مادة وروحاً . لهذا عمدت السلطات السوفياتية الى مصادرة العمال واستغلال مجهوداتهم والعمل بنظام قاس من السخرة بغية انهاء الاقتصاد السوفياتي وزيادة امكانات تطبيق العدل الاجتماعي .

وكلنا يذكر الخلاف الشديد بين خروشوف وبين مالنكوف ، هذا الخلاف

الذي طوح بالنكوف من ارفع منصب في الاتحاد السوفياتي ، منصب رئيس الوزراء ، الى منصب مدير لمؤسسة كهربائية . لقد كان الخلاف بين القطبين الشيوعيين يدور حول افضلية رأس المال في الارباح و افضلية العمل والعمال . لقد رأى مالنكوف أنه قد آن الاوان في الاتحاد السوفياتي كي يوجه الاقتصاد السوفياتي نحو انتاج البضائع المستهلكة بغية تأمين مستوى ارفع من المعيشة للعامل والفلاح ، غير ان خروشوف رأى أن انقسام العالم الى معسكرين واحتمال نشوب حرب بين الاتحاد السوفياتي والمعسكر الغربي يفرض على الاتحاد السوفياتي اهمال معظم الاحتياجات اليومية للفرد السوفياتي لاستعمال الارباح في تطوير الصناعة الثقيلة .

بهذه الروح ، روح اعادة الارباح الى رأس المال ، قفز الاتحاد السوفياتي الى مرتبة الدولة العظمى وتحولت البلدان السوفياتية من حيث هي بلدان زراعية الى صيرورتها بلدان زراعية صناعية .

لقد مضى على الاتحاد السوفياتي ماينوف على خمسين عاما وهو ينهج هذا النهج ويسلك فلاحوه وعماله هذا السبيل ، ولذلك فعلى العمال العرب اذا أرادوا حقاً ان يدفعوا بالدولة العربية الاتحادية الى مراتب الدول العظمى ان يعتمدوا البذل والتضحية في كل عمل يأتونه وفي كل أمر يقومون به وان يضعوا نصب اعينهم هدفاً واحداً ووحيداً يتمثل بزيادة قوى رأس المال العامل في العالم العربي . هذا فيما يتعلق بالعمال ، أما فيما يتعلق بآرباب العمل وملاك وسائل الانتاج فاني اريد ان اقول لهم بانه من الخطأ لابل من الغباء ان يرى هؤلاء في الثورة القومية التي تخوض غمارها اليوم جماهير الأمة العربية خطراً على مشروعاتهم ومؤسساتهم الاقتصادية . فنحن معشر القوميين العرب نؤمن بان ثورتنا تجد في التنظيم الرأسمالي عقب خروج المجتمع من النظام الاقطاعي الكثير من الصفات التي تنطبق تماماً على قانون التوافق الضروري بين علاقات الانتاج . ان الهدف الاساسي لثورة القومية العربية هو كما قلت آنفاً يتركز على انشاء

رأس المال القومي والارتفاع بالقوى المنتجة في المجتمع الى درجة الكمال ، وذلك كي تتمكن من تحقيق العدالة الاجتماعية في التوزيع وفي كل تنوعات وأنواع التوزيع ، هذه الانواع التي تحددها احتياجات الفرد المادية والفكرية والذوقية ، لذا فان أي نشاط اقتصادي مهما كان لونه ، ومهما كان النظام الذي يسير وفقه في مختلف دورات فعالياته ، فانه في حالة انسجامه والهدف الاساسي لثورة القومية العربية ، هذا الهدف الممثل باغاء رأس المال ، فعندئذ يتصف مثل هذا النشاط بكل الصفات الثورية ويتحلى بكل مزاياها . لذلك يستطيع ملاك وسائل الانتاج الاطمئنان على مشروعاتهم اذا حافظوا على الصفات الاجتماعية لهذه المشروعات ، واذا استطاعوا ادارتها لحساب المجتمع لا لحسابهم الخاص .

اننا لن نلجأ الى التأميم الا في حالات الضرورة القصوى ، وذلك رغبة منا في خلق وتجسيد المبادرة وروح المغامرة في الفرد العربي ، وتطوير الناحية الاقتصادية في الاخلاقية العربية ، وجعلها اكثر اندفاعاً واكثر جرأة واشد فعالية في الميدان الاقتصادي ، فالنفس العربية لاتزال حتى الآن منكشمة ، وخوفها من الحسائر يفوت عليها الكثير من الارباح ، وهذا العامل ، عامل الخوف ، يلزم الدولة بتشجيع النفس العربية على الانطلاق في الميدان الاقتصادي وتحريرها من اغلال الخوف ، والطريق الى تحقيق هذا الغاية هو ضمان الدولة للملكية الخاصة طالما ان مفهوم هذه الملكية يحفظ للمؤسسات والمشروعات صفاتها الاجتماعية .

ان عملنا وفق هذا المبدأ ، مبدءاً تنشيط المجهودات الفردية يعود أرباباً واخيراً الى العبر التي شاهدناها في التجربة السوفياتية في الاتحاد السوفياتي . لقد ادت المركزية المغلقة لادارة الاقتصاد السوفياتي الى اهدار الكثير من المجهودات ولقد ادرك خروشوف اخيراً الاضرار الناجمة عن مثل هذه المركزية المطلقة في الادارة لذلك عمد الى وضع منهاج جديد يقوم على اساس اللامركزية الواسعة في الادارة للاقتصاد السوفياتي ، وهذا المشروع في حالة تنفيذه سيجعل من

الكثير من المؤسسات الاقتصادية السوفياتية مؤسسات ذات صفات خاصة تجعلها تلتقي في كيانها كمؤسسة عامة تملكها الدولة بالمؤسسة الخاصة المملوكة من قبل الافراد

اننا لن نحارب مبدأ حق التملك ، وذلك لايماننا بان هذا المبدأ ينمو ويعيش في مجتمع محروم من نظام متكامل ، نظام يكفل المرء من المهد الى اللحد . اننا نؤمن بان حب التملك نشأ في النفس البشرية نتيجة لقيام أنظمة اجتماعية فاسدة اعتمدت اخوف ، خوف الانسان من غده الرباط الذي يشد اليمينات بعضها الى بعض والطبقات الواحدة الى الاخرى والمجتمع الى الحكومة . لذلك نرى ان حب التملك والملكية الخاصة يزولان تلقائياً حالما نستطيع ان نجسد في الوطن العربي نظاماً يوحى الى الانسان الثقة والاطمئنان الى غده ، ويحل التعاون محل الخوف كرابط للفرد بالجماعة والجماعة بالمجتمع والمجتمع بالحكومة .

اننا في هذه المرحلة ، مرحلة التأسيس ، مرحلة ارساء قواعد مجتمع جديد ، يتوجب علينا ان نتعظ بالعبر التي شاهدناها في تطور المجتمعات الاوروبية ، لذلك يتوجب علينا ان ندرس بروية وامعان وتأمل الخطوات والاحداث التي مرت بالامم الاوروبية في تطورها الاجتماعي والسياسي ، فدراستنا لظروف تلك الامم ومقابلة تلك الظروف بظروفنا ومن ثم استنتاج انجع الوسائل والاساليب التي تجنبنا الانتكاسات والهزات التي وقعت في المجتمعات الاوروبية اثناء تطورها التاريخي ، كل هذه الامور مع مراجعتنا لماضيها الحضاري هو سبيلنا الى تخطيط النظام الجديد وفرض هذا النظام على المجتمع العربي في الدولة الاتحادية العربية الشاملة .

تحدثت فيما تقدم عن العمل والعمال ورأس المال ، والاقتصاد العربي كما لا شك يدرك القاريء الكريم يستند في بنيانه الى الزراعة ، وذلك لان الزراعة لا تزال في كل البلدان العربية هي المورد الاساسي والهام للدخل الفردي وللدخل القومي .

ان في البلاد العربية امكانات زراعية ضخمة باستثناء الاقليم المصري ، غير ان الشعوب العربية لاتزال تستغل هذه الامكانات على صورة بدائية وبوسائل بدائية ، كما ان توزيع السكان في العالم العربي لايزال حتى اليوم توزيعاً بدائياً غارقاً في البدائية . فـ سكان العالم العربي يجتمعون اليوم ويعيشون كما اجتمعوا وعاشوا منذ قرون طويلة أي حول الانهر ومنابع المياه وقد نشأ عن هذه الحقيقة توزيع سيء للسكان ، فبينما نحن نرى انتاج سهول الجزيرة في الاقليم السوري يشكل ماينوف على الخمسين بالمئة من الدخل القومي في سورية ، نرى ان ستة اشخاص يعيشون على الكيلو متر المربع الواحد ، بينما يعيش ٧٧ شخصاً على الكيلو متر المربع الواحد في محافظة اللاذقية ذات الدخل المتدني المحدود . وقس على ذلك في بقية الاقاليم العربية باستثناء مصر .

وهذا الواقع المؤلم أدى الى انعدام التوازن بين قطاعات كل اقليم من الاقاليم العربية ومن ثم انعدام التوازن بين الاقاليم نفسها .

لذلك يتوجب على الدولة العربية الاتحادية ان تبادر الى اعادة توزيع السكان توزيعاً يتفق والمقومات الاقتصادية في كل قطاع من كل اقليم ومن ثم بغية توزيع السكان بين الاقاليم وفقاً لمقوماتها الاقتصادية .

فمصر مثلاً لاتستطيع ان تحل مشكلة السكان الا عن طريق تهجير نصف سكانها الى سورية والعراق والاردن والسعودية .

واقامة التوازن بين القطاعات اولا وبين الاقاليم ثانياً يفرض علينا ان نعيد النظر في الملكيات الزراعية في كل البلاد العربية . ففي سورية مثلاً هناك عدد من كبار الملاك تتجاوز مساحة الارض التي يملكها الواحد منهم نصف المليون دونم بعل واربعين « سقى » ومثل هذه الملكية غير عادلة اذ ان لها انعكاسات اجتماعية سامة وضارة وذلك لانها تنمي الشعور بالتبعية والاخضاع في الفلاح العربي المأجور لهذا يتوجب علينا تفتيت مثل هذه الملكيات الواسعة وتوزيع بعضها على الفلاحين .

انني اعرف ان الزراعة في سورية وخاصة زراعة الارض البعل في الجزيرة
تستوجب العمل بوسائل الزراعة الواسعة ، أي تستوجب الرساميل الضخمة في
تمويلها بغية اجتناء الارباح ، غير ان هذه الحقيقة لا تحول أبداً دون انشاء المزارع
ذات الملكية الجماعية ، حيث يمتلك أهل كل قرية قطعة كبيرة من الارض وحيث
تكون ملكية هذه الارض مشاعة بينهم يقومون باستغلالها واستثمارها لحسابهم
جميعاً ، ولنا في المستعمرات اليهودية ذات الملكية الجماعية في فلسطين المحتلة خير
قدوة وخير مثال .

اما في العراق فان مخالف الاقطاع وانياب النظام الاقطاعي تعمل في جسد
الشعب العربي في هذا الاقليم العربي الحبيب نهشاً وتمزيقاً . لقد ادى استقرار العشائر
العربية وتوطنهم في العراق الى قيام شيوخ هذه العشائر ورؤسائها بتملك الاراضي
الزراعية الواسعة وحرمان افراد عشائرهم من تملك الارض ، ولهذا السبب تعيش
العشائر العربية في الاقليم العراقي عبيداً للأرض يستغل الشيخ الذي هو مالك
الارض اتعاب عشيرته وجهودها ، ويعيش الفلاح العراقي اليوم عيشة كلها بؤس
ومرض وجهالة . وحباً في المحافظة على ملكياتهم الواسعة اقدم شيوخ القبائل
ورؤسائها على تدعيم الروح القبلية الضيقة وعلى استعمال هذه الروح في تدعيم
سلطانهم السياسي ، كما وان كبار الملاك في العراق ورغبة منهم في الحفاظ على
ملكياتهم الواسعة يرتعون اليوم في احضان الاستعمار ليذلم ويدل شعبهم بغية
الابقاء على اذلال كبار الملاك للشعب العراقي واستئثار جماهيره .

لهذا يتوجب على الثوريين العرب في الاقليم العراقي ان يهيئوا للثورة اسبابها
في العراق ، اقول الثورة لا الانقلاب ، فالعراق كمصر تماماً بحاجة الى ثورة ،
وثورة بكل ما للثورة من مفهوم ومعنى للتمهيد لاقامة نظام شعبي جوهراً وطابعاً ،
نظام يضرب الروح القبلية ويعيد للعشائر العربية نفسها وروحها الحقيقيين ،
هذه النفس التي تأبى الاستعباد وترفض العبودية .

لقد ادرك القائلون على الامر في العراق ان الريف العراقي لا يمكن ان يبقى

على حاله هذه ، لذلك تقوم اليوم السلطات العراقية بمشاريع ضخمة يشرف عليها ما يعرف بمجلس الانماء الاقتصادي بغية احياء الاراضي الموات وتوسيع الرقعة المنزرعة من الاقليم العراقي ، غير انه من المؤسف ان معظم الاراضي التي تم احيائها وضع كبار الملاك ايديهم عليها وتابعوا استغلال جماهير الفلاحين العرب في الاقليم العراقي .

ان هدف القومية العربية هو كما قلت آنفاً خلق الفرد العربي المتحرر عقلاً والمتحرر ضميراً والمتحرر وجداناً ، ومع ايماني العميق بان هذا الهدف لا يتنافى ابداً ومبدأ حق التملك ، غير انه من المحزن ان اقرر هنا ان النظام الاقتصادي العراقي القائم اليوم ، ورفض كبار الملاك في العراق الاعتراف بالوعي الثوري الذي يحتاج الامة العربية ، سيفرض على الثوريين العرب الايمان العميق بانه لامندوحة من قيام ثورة كاملة شاملة في هذا الاقليم العربي لاقتلاع النظام القائم حالياً في العراق وتدميره ونسف كل مشتقاته ، لان الجمود والبلادة والبلاهة والحيانة التي تسيطر على منطق سلطات العراق قد امارتهم عقلاً ووجداناً ، وجعلت منهم عقبة كؤوداً في طريق القومية العربية الى خلق الفرد العربي المتحرر عقلاً وضميراً .

فلا طريق للقوميين العرب في الاقليم العراقي الا الثورة ، الثورة الكاسحة المدمرة لنظام رجعي جائر ، نظام يستعبد الروح العربية ويعطل فعاليتها ويحارب كل اتجاهاتها الانسانية ، وفق هذا المبدأ يتوجب على القوميين العرب ان يعملوا في العراق ومن اجل تحقيق هذه الغاية على القوميين العرب في العراق ان يحاربوا ويستشهدوا . ان النصر آت لا ريب فيه والويل لمن تاتي عن طريقه العثرات فليعمل القوميون العرب في الاقليم العراقي وليحاربوا المظالم بشجاعة واقدام فنحن معشر أخوانهم في سورية ومصر ننتظر نتائج اعمالهم لترحب بهم في الدولة العربية المتحدة أحباباً لنا واشقاء .

انني اذ اتوسع في بحث حالة الفلاح في العراق واحوال الاقليم العراقي ، فانما اقوم بهذا العمل لقناعتي بانه اذا تمكنت الجماهير العربية من استغلال طاقات العراق الضخمة وتوجيه امكاناته في وضعها في خدمة الامة العربية فاننا سنحل عندئذ الكثير من مشاكلنا الاقتصادية والاجتماعية وسنرتفع بالدخل القومي وبالمستوى المعاشي للفرد العربي . ان في دخول العراق ، كبلد متحرر ، الدولة العربية الاتحادية الشاملة الطريق الى تحقيق غاياتنا القومية واكتساب اسباب المنفعة اقتصاديا وسياسيا .

وقبل ان انهي بحث موضوع العدل الاقتصادي يفرض علي واجبي كعربي وواجبي كإنسان ان انطرق الى بحث موضوع التشتت الاقتصادي الخجل الذي يسود اليوم العالم العربي .

لقد تعدد الاستعمار ان يشتت امكاناتنا الاقتصادية ، وتعهد الاستعمار ايضاً ان يخطط الحدود بين الاقاليم العربية ، وان يوجه الاقتصادات العربية في كل اقليم من هذه الاقاليم وجهة تبقي على التشتت الاقتصادي بين الاقاليم العربية ، وتمنع عنها كل اسباب المنعة والقوة . ومن المؤسف لا بل من الخجل ان السلطات التي قامت بعد جلاء الجيوش الاستعمارية عن البلاد العربية أبقت على هذا التشتت وسارت في كل خطواتها وفق المنهاج الذي رسمه الاستعمار لابقاء العرب امة موزعة الكلمة ضعيفة مستضعفة الشأن .

انني في كتابي هذا اريد ان اتوجه الى السلطات ذات الانظمة المتباينة سياسة واقتصاداً واجتماعاً في كل اقليم عربي ، لاقول لها ان الوحدة العربية آتية لا ريب فيها ، وان قيام الدولة العربية المتحدة الشاملة الممتدة من الاطلسي الى الخليج العربي قدر محتوم وان التاريخ يندفع في كل خطوة من خطواته الى الامام ، لذلك فعلى الحكام العرب في جميع اقطارهم ان يتقوا الله في شعوبهم وفي الامة العربية ، وطريقهم الى تقوى الله تكون في انتفاء اسباب التشتت الاقتصادي وفي قيام اقتصاد عربي منسجم متكامل وفي ايجاد سوق عربية

مشتركة وموحدة . ان الحكام العرب اذا اقدموا على العمل بهذه النصيحة
المخلصة فانهم لن يعرضوا نفوذهم للضعف او التلاشي والانحلال . فدول اوربا
الغربية لها اقتصاد موحد وسوق مشتركة موحدة ، ومع هذا ، بقيت كل دولة
من هذه الدول محتفظة بسيادتها ومحافضة على استقلالها ولم تتأثر انظمتها السياسية
بهذا العمل المشترك .

ان الحكام العرب في كل الاقاليم العربية اذا اهتموا وعملوا بهذه النصيحة
فانهم سيوفرون مستقبلا على جماهير الامة العربية كثيراً من الجهد والمشقة لرفع
المستوى المعاشي للفرد العربي ولاشاعة العدالة في المجتمع .

وعلى الحكام العرب ان يؤمنوا ويقتنعوا بان بقاء التشتت الاقتصادي على
حاله اليوم لا يفيد ، ولن يشكل عقبة تمنع القومية العربية من الوصول بالامة
العربية الى الدولة العربية الاتحادية الشاملة . فالقومية العربية هي اليوم نداء
الضمير ونداء العقل الواعي والوجدان الحي في الامة العربية . وان الامة حينما
يصبح مثل هذا النداء ويدوي في آذانها فعندئذ تتخطى الامة جميع الحواجز
الى اهدافها غير عابئة بما يلحق الافراد من خسائر اقتصادية او سياسية . والامة
حينما تستجيب الى مثل هذا النداء فانها تستجيب الى صوت الله الكامن في نفسها .

اننا سنحقق الدولة العربية الاتحادية الشاملة ، فالزمن الذي كانت فيه
الامة تعيش وتحيا وتكوس وجودها من اجل نظام جائر مستبد مستعبد قد
انتهى وولى ، وأصبحت اليوم الانظمة هي التي تعيش من أجل خير الامة
وتوجد من اجل صالحها ، بهذا الايمان نسير ومن اجل هذه العقيدة نحيا .

٢ - ٣ - العدل الاجتماعي والعدل السياسي :

ان العدل الاقتصادي يوفر للانسان اسباب العيش ، غير انه لا يوفر له كل
اسباب الحياة ، الحياة كانسان ، والحياة كفرد ، والحياة كمواطن في دولة ترى
في الانسان اشرف المخلوقات وانبلها .

لذلك فان المواطن الحر في الدولة الحرة ليس ذاك الذي تنتهي حقوقه عند تعهد الدولة وكفالتها لامور طعامه ولباسه وسكنه ، بل انما ذاك الذي تتمدى حقوقه الاساسية هذه الاشياء الى مشاركة الفعلية في ادارة الدولة وتوجيه مجتمعا وفرض ارادته على حكامها في تحقيق حياة حرة كريمه وسعيدة .

لقد قدمت البشرية ملايين القرايين والضحايا حتى تمكنت من ان تحفر باحرف من نار على اذهان الحكام من اباطرة وملوك ورؤساء جمهوريات الحقيقة القائلة بان الانظمة تقوم وتوجد ، تتبدل أو تتوطد ، تدعم او تدمر من أجل غرض واحد ووحيد يتمثل في خدمة الانسان ورعاية صالحه ، وان كل نظام لا ينبثق عن الارادة الحرة للانسان هو نظام لا يقوم على امره حاكم بل طاغية ، فلقد انقضى الزمن الذي كان فيه الحاكم يرى في الشعب جزءاً منه ، وأصبحنا نعيش في عصر غدت فيه السلطة جزءاً صغيراً من الشعب .

لقد خاضت الانسانية محيطات من الدم والعرق ، وتسلفت جبلاً شاهقة من مجامع ابنائها وعظامهم حتى ارتفعت بالشعب فوق جلال الاباطرة والملوك والرؤساء ، وجعلت وجود هؤلاء كلهم ووجود الانظمة التي يشرفون على تنفيذها ، مشروطين برضاء الامة وارادتها ، لذلك لم تعد الامم اليوم تأكل الفتات المتساقط من على موائد الحكام ، بل أصبحت الامم تنصدر الموائد وتدعو اليها من ترى فيه صلاحها من ابنائها حاكماً او رئيساً .

لقد دفعت الانسانية بالقافلة تلو القافلة من الانبياء والفلاسفة والعلماء والمفكرين والشعراء الى السيف ، الى الصليب ، الى المشنقة ، الى المقصلة ، الى الرصاص وحتى الى الخازوق ، حتى تمكنت من ان تجعل الحاكم مسؤولاً أمام الشعب ، لا الشعب ، في جماهيره ، مسؤولاً عن تأمين اسباب البذخ والترف والتسلط للحاكم .

عقب هذا الخاض الاليم العسير الطويل العضوض النهاش ، الممزق لاحشاء الانسانية ، ولدت الديمقراطية لتقرر ان رأس المواطن ليس دون رأس الحاكم ،

وان كرامة الحاكم هي فرع من كرامة المواطن وان حق الشعب فوق حق السلطة وان الامة هي مصدر السلطات ، وان الانسان في المجتمع والدولة هو منها الروح والجسد ، وان الامة هي الفكر والارادة ، وان كل سلطة او نظام لا يعكس ارادة الشعب بامانة واخلاص مصيرها ومصيره الى السقوط والزوال . الى هذه النتائج الرائعة ، وإلى هذه الحقائق الانسانية وصلت البشرية بالامم عقب مرير صراع وجهاد قاس وخسائر فادحة وتضحيات بالغة ، وعلى هذه القواعد والاسس اقامت الانسانية اخلاقية السلطة والنظام الاخلاقي للمجتمع والدولة ، لذلك فان اعتبار السلطة ان حقوق الانسان تنتهي كما قلت في بداية بحثي عند كفالة السلطة لامور طعام الانسان ولباسه وسكنه هو كفر بجهاد الانسانية وتنكر بالغ لمثلها وانكار لجهود الشهداء من ابناء البشرية . لذلك أخذ القوميون العرب على انفسهم ان تقوم كل سلطة لاعلى رضاء معدة المواطن واشباعها فحسب ، بل ايضاً على قناعة المواطن ورضائه العميقين فكروا ووجدانا .

لهذا يتوجب على الثوريين العرب الاصلاح في حالة تسلمهم للسلطة أن يدفعوا بالانسان المواطن لا الى ممارسة وجوده المادي أكلاً ولباساً وتناسلاً فقط بل الى ممارسة وجوده الروحي بناء وتدعيماً لاركان المجتمع الحر والدولة الحرة بغية تجسيد الوجود الحر للأمة الحرة .

وهذا الامر لا يتحقق الا اذا استطاعت الدولة الثورية ان تعتمد الديمقراطية والنظام الديمقراطي الدستور الذي ينظم علاقاتها بالمواطن والجماعة والمجتمع ، وان تجعل المبدأ الاخلاقي الذي تسير وفقه رضاء المواطن وقناعته . وسبيل الدولة الثورية الى تحقيق هذه الغاية هو اثناء القدرة في نفس المواطن على التمييز بين ما هو ضار وما هو نافع ، وما هو خير وما هو شر ، وسبيل الدولة الى تحقيق هذا الهدف ايضاً هو المناقشة ومن ثم استثارة حماس المواطن ليمارس قناعته عملاً سياسياً مثلاً بحقه في تقرير شكل السلطة عن طريق الانتخاب العام .

قد يقول قائل ان معظم بلدان العالم ان لم يكن كلها تتخذ من الانتخاب العام أساساً للأنظمة السياسية التي يذبح عنها مانشاهده اليوم من سلطات وحكومة وانظمة ، غير اننا اذا تعمقنا في قوانين الانتخابات المعمول بها في البلدان المتخلفة ديمقراطياً ، ودرسنا الاعمال التمهيدية التي تسبق الانتخابات ، نرى ان الناخب عندما يمارس حقه لا يمارسه حراً عقلاً وضميراً ، بل انما يساق مادياً - أقول مادياً - الى صناديق الاقتراع ، ليقترح لافق ما يريد ، بل وفق مايراد له . وبهذا لانتمي السلطة في الناخب القدرة على التمييز ، بل انما تشل في نفسه هذه القدرة ، وبهذا تستأصل الدولة ، أو بالأحرى تعطل في المواطن الناخب الاعتبار الضميري ، وتسلبه حقه في الحرية كإنسان ، وبذلك تتحول الأمة من حيث هي أمة حرة الى صيورتها أمة مستعبدة ، وبهذا تصبح المهمة الأساسية للدولة كما يقول « مونتيسكيو » أن تصنع انساناً طالحاً لتصنع عبداً صالحاً فيغدو الانسان مخلوقاً يطيع مخلوقاً يريد .

اننا معشر القوميين العرب نمر اليوم والامة العربية في مرحلة جد خطيرة ، مرحلة تكوين أمة ، مرحلة بعث الامة العربية من جديد . ومرحلة التأسيس هي أصعب مراحل البناء اذ انه يترتب على نتائج هذه المرحلة بقاء البناء وازواله ، بقاؤنا كأمة او تفرقنا الى شعوب في أقاليم ، لذلك يتوجب علينا حين وضعنا للأنظمة لعلاقات الدولة بالمواطن ان لانظر الى الهدف القريب فحسب ، بل يجب ان يمتد بصرنا الى الاهداف البعيدة والبعيدة جداً ، هذه الاهداف المتمثلة بأشعار المواطن بكل صفاته القومية والانسانية . ان نظرة المواطن الى الدولة ، او بالأحرى الى السلطة لم تتبدل حتى الآن عما كانت عليه حينما كانت الامة العربية محكومة من الاستعمار والمستعمرين ، لقد كان المواطن يرى في السلطة آنذاك قدراً سيئاً فرض عليه ، قدراً لا يملك فيه رأياً او فعلاً ، قدراً قائماً شاء المواطن هذه الحقيقة أم أباه . لقد كافح المواطن وضحى بالنفس والنفيس حتى بدل هذه الحال الى غيرها ، بدل الاستعمار استقلالاً وبدل العبودية حرية ، غير أن نظرتَه الى

السلطة لم تتبدل على الصورة الجذرية التي تبدلت اليها اوضاعه ، وسبب ذلك يعود أولاً وأخيراً الى كون السلطات في عهود الاستقلال لم تبدل أساليبها وعلاقاتها بالمواطن تبديلاً جذرياً يشعر المواطن بان عهداً يدعم وجوده ، عهداً تستمد السلطة فيه ارادتها من ارادته قد قام ، وان عهد الذل والاذلال والتبعية قد ولى واندر ، وقام مقامه عهد يعتمد كرامته بدلاً من ذله وحرية بدلاً من اذلاله ومشاركته بدلاً من تبعيته . ان السلطة اذا لم تتجه في كل خطوة تحطوها الى اقناع المواطن بهذه القيم فعندئذ لا يمكن ان تتبدل نظرة المواطن الى القائمين على السلطة عن نظرتهم الى المستعمرين ، لهذا كان الواجب الاساسي للثوريين العرب في الاقاليم المتحررة سياسياً واجتماعياً وفي غير المتحررة منها ان يستهدفوا في نشاطاتهم افهام المواطن بان عليه ان ينظر الى الدولة الثورية القائمة والتي يريد لها القيام في الاقاليم الاخرى نظرة الجيش للقائد لان نظرة الطائر للصائد على حد تعبير الزعيم العربي سعد زغلول . ان المواطن لا يمكن له ان يشعر بانه يشارك في ادارة الدولة ، ما لم تؤمن له السلطة الحرية التامة في انتخاب من يريده ممثلاً له . ان الدولة عندما تفرض على المواطن الاشخاص الذين تريد ان يمثلوها ، فانها بعملها هذا تفرض على المواطن القناعة التامة بان من انتخب لايتمه بل انما يمثل السلطة التي فرضته عليه فرضاً ، وهكذا تنهار ثقة المواطن بالسلطة وينهار ايمانه بفائدتها ويجدواها وبكونها سلطته وسلطة غيره من المواطنين .

لذلك يتوجب على الدولة الثورية في حالة وضعها للقوانين التي تنظم الانتخابات العامة ان تراعي حقيقة جوهرية وهي تحقق الحرية الكاملة للمواطن لممارسة قناعاته بممارسة بعيدة عن كل ضغط ومتحررة من كل عامل ارهابي .

ان بعض الامم المتقدمة حينما مرت بالمراحل التي مررنا بها ، افترفت الكثير من الاخطاء الشنيعة بحق المواطن وبحق المجتمع ، ومنشأ هذه الاخطاء ان قادة تلك الامم وزعماءها كانوا ينظرون الى الغاية غير عابئين بالوسائل التي يسلكونها بامتهم الى غاياتهم تلك . وهذا بما كان ينزل بالامم اشد الخسائر وافدح النكبات

حين سعيها الى التحرر والعدالة . لقد كان الهدف الرئيسي لاولئك الزعماء والقادة يتمثل بانشاء دولة قوية مرهوبة الجانب ، لامة قوية عميقة الايمان بالانسانية ومعانيها ، بالانسانية ومبادئها . لقد جرد اولئك الزعماء الامة من مفهوم الفردية ، لقد جردوها من الانسان ، الانسان الذي يبقى متمتعاً بصفات الانسان حتى ولو جرد من صفات المواطن . لقد كان اولئك الزعماء يرون في الامة سلطة وحكومة وجيشاً وكانوا يرون في كل معنى انساني يعترض سبيلهم عقبة كؤوداً يجب ان تنسف وتسحق ، لقد فصل اولئك القادة والزعماء الوسيلة عن الغاية ، وآمنوا بان الغاية الشريفة تبهر الوسيلة القذرة الحقيرة ، لقد كانوا يرون في الكسب لافي الاكتساب غاياتهم ، فكانوا يوقظون أجهزة السلطة حينما يرون أن في دفع هذه الاجهزة لتسحق وتنسف وتدمر تحقق غاياتهم ، لقد كان اولئك الزعماء فاقدى الايمان بان هناك قوانين خالدة هي التي يجب ان تنظم علاقات الفرد او الجماعة او المجتمع بالدولة ، وان هذه القوانين لا تتأثر باي اعتبار لظرف او شخص او مجموعة من الناس ، بل انما تتأثر فقط وفقط بالاعتبار الانساني الذي من أجله اوجدت هذه القوانين والنظم .

اما القومية العربية في انتفاضها الاولى فأمنت بان الغاية الشريفة هي تلك التي تؤدي اليها الوسيلة الشريفة ، وان الاكتساب لا الكسب هو الهدف الحقيقي للدولة ، وان القوانين لا تستيقظ وأجهزة الدولة لا تدور لتسحق وتنسف وتدمر حينما تريد السلطة لها ذلك ، بل ان تلك القوانين والاجهزة تستيقظ حينما تأمر موجبات العدالة بذلك ، لهذا السبب رأينا الخليفة الاعظم عمر بن الخطاب يضرب عرض الحائط بكسب جبلة بن الاهيم وكسب عشيرته البالغة المئة الف عدداً الى الاسلام ويأمر باقامة الحد على الزعيم المهاب جبلة بن الاهيم اقتصاصاً لاعرابي عادي بسيط دون جبلة بن الاهيم بمراحل نفوذا وسطوة وسلطانا . ولهذا ايضا نرى بن الخطاب يقول لابي مريم السلولي قاتل شقيقه (شقيق عمر) : « والله لا أحبك حتى تحب الارض الدم المسفوح .

فيجيبه أبو مريم السلولي غير متضع أو متردد فيقول :

« فتمنعني لذلك حقاً ؟ »

فيجيب الخليفة الاعظم :

« لا ! أبداً »

فيجيب أبو عمر السلولي مبتسماً ضاحكاً غير عايباً بما للخليفة من حول وطول :

« فلا خير ؟ إنما يأسف على الحب النساء »

مثل هذه العدالة نريد للقومية العربية ، عدالة لا تتأثر بالظروف ولا بالعوامل الشخصية ولا بحب القائمين على السلطة او ببعضائهم عدالة يستوي أمامها ذو المنصب الخطير مع ذي المركز الحقير ، عدالة يستوي أمامها جبة بهم الايهم والاعرابي البسيط ، عدالة يستوي أمامها ابن حاكم مصر عمر بن العاص والمصري العادي ، عدالة تقيم الحدود على ابن الخليفة عمر بالذات ، عدالة لا تجعل مصير الانسان في حريته وحياته مربوطاً باهواء القائمين على السلطة ونزواتهم ، عدالة تنطبق على قول المشتوع الفرنسي المشهور « مونتيسكيو » القائل :

في الدولة العادلة حيث رأس أقل مواطن عظيم ، فانه لا ينزع منه شرفه وأمواله الا بعد بحث طويل ، ولا يحرم حياته الا عندما يهاجمه الوطن نفسه ، والوطن لا يهاجمه الا بعد ان يترك له جميع وسائل الدفاع الممكن عنه .

اننا كقوميين عرب نخوض اليوم معارك ثورية ضارية ، معارك تستهدف تحقيق تحررنا وتحقيق وحدتنا ، معارك تستهدف تحرير المواطن العربي من ربة الاستعمار ومن ربة المظالم الاجتماعية ، هذا هو هدفنا ، وهذه هي غاياتنا ، انها جميعاً أهداف شريفة وغايات قدسية سامية ، غير أن منطق الثورة الاوروبية قد انحرف بالكثير من الامم الاوروبية التي كانت تقصد ماتقصده عن هذه الاهداف وتلك الغايات وسبب انحرافه تأثر منطق الثورات الاوروبية بالاخلاقية الميكافيلية ، لذلك فنحن اذا نسجنا في ثورتنا الحالية على منوال الثورات الاوروبية فاتبعنا الاخلاقية الميكافيلية قاعدة لنا في اعمالنا ودستوراً لقادتنا في

نشاطاتهم ، فاننا عندئذ سنقول كما قال بسمارك « ان الوحدة الالمانية لا تحقق بالخطب الرنانة وبالمناقشات البرلمانية بل انما تحقق بالحديد والنار . »
لقد دل الاتحاد الاندماجي الذي تم مؤخراً بين مصر وسورية ، أن سبيلنا يختلف تماماً وفي كل خطوته عن دستور « المستشار الحديدي » بسمارك ، وان الوعي الثوري في البلاد العربية اذا سلكت به الوسائل الشريفة فانه سيقود الامة العربية الى الغايات القدسية الشريفة الممثلة بالتححر والاتحاد .

يقول احد كتاب الغرب ان منطق الثورات هو كعجلات المطاحن يسحق ماير عليه ، ونحن لانريد لثورتنا مثل هذا المنطق ، او بالاحرى أن ثورتنا ليست بحاجة الى مثل هذا المنطق ، لانه منطق قوة عمياء ، منطق قوة مجنونة حمقاء ، منطق قوة تريد أن تحقق غاياتها باي ثمن وباي عمل ، ومثل هذه القوة قد تحقق شيئاً وقد تؤدي الى نتائج ايجابية غير ان ماتحققه يكون بالغ الثمن فادحه .

ان من أهم اسباب الخلاف بين خروشوف وبين ستالين كون ستالين كما يقول خروشوف قد اسرف في دفع ثمن التقدم الذي لا قاء الاتحاد السوفياتي في الحقلين الاقتصادي والدبلوماسي .

لقد كنت اتحدث يوماً مع السيد برقي سنج مستشار السفارة الهندية في دمشق عن الحال التي آلت اليه اوضاع المهرجات في شبه القارة الهندية عقب ان نالت الهند استقلالها ، وقلت له من الغريب ان حكومة البانديت نهرو لم تستصدر قانوناً تصفي بواسطته الاوضاع الشاذة لاولئك المهرجات الذين كانوا من الاستعمار العضد والسند ، ثم سألتها عما اذا كان هناك من ضغط أجنبي حال دون اتخاذ مثل هذا الاجراء العنيف ؟

فأجابني المستر برقي سنج قائلاً بان الحكومة الهندية بزعامة نهرو قد استنتت الكثير من القوانين لتخليص جماهير الشعب الهندي من طغيان المهرجات الاجتماعي والسياسي ، غير انها لم تصل باجراءاتها الى حد العنف وذلك لان البانديت نهرو

قابل بين المكاسب والخسائر التي يمكن ان تنتج عن اتخاذ مثل هذه الاجراءات
العنيفة فوجد ان الخسائر تفوق الارباح فتوقف عند ابقاء السلطان الرمزي لهؤلاء
المهرجات مكتفياً بدفعهم على الطريق الشعبي المرسوم لجمهير الأمة الهندية ،
واردف السيد برتي سنج يقول لي :

« لاتنس أن هؤلاء المهرجات هم ايضاً افراد من الامة الهندية ، وان
الواجب الاساسي للحكومة الواعية حماية ارواح الافراد وحرياتهم طالما ان مثل
هذه الحماية لاينتج عنها أي ضرر للشعب . »

لقد طارت بي خواطري آنذاك وأنا اسمع كلام السيد برتي سنج الى
الثورتن الفرنسية والشيوعية فبدأ أمامي الفارق الواسع بين روحانية الشرق
ومادية الغرب ، فنهرو يخوض اليوم مثلنا غمرات ثورة قومية ، وانها كنه في
هذا الصراع الثوري المرير لم ينسه قط القيمة الحقيقية للانسان ، ولم ينحرف به
الى العقيدة المادية التي تقول بان الانسان الشرير لا يستصلح ، بل يجب ان يدمر
جسداً وروحاً . لقد اكتفى نهرو باستئصال الظروف التي تجعل من الانسان انساناً
شريراً ، ليقينه بانه في استئصال مثل هذه الظروف عودة الانسان الى فطرته
الخيرة وعودة المرء الى سلوك الطريق الطبيعي الذي رسمه الله للانسان منذ فجر
طريق البر والنفع وتحقيق الخير العام .

أرى من واجب الكاتب أن يصارح القاريء بالحقيقة ، وأن يظهر بين سطور
كتابه شخصه وشخصيته وانني لاقولها جهاراً نهرا ودون ما مواربة انني كدت
احد الايام أصبح شيوعياً ماركسياً يؤمن بالديالكتيكية المادية ويسير حسب
مفهومها الفلسفي والاجتماعي . ولقد أمضيت سنوات طويلاً من عمري وأنا منهمك
على مطالعة كل ما كتب في الشيوعية وعنها ، ولا اكتمك ايها القاريء ان هذه
العقيدة استهوتني لتماسكها العلمي وقدرتها على الاقناع المنطقي ، ولا أبالغ اذ
اقول انني قد قرأت ودرست بامعان كل حرف خطه ماركس وسطره انجاز
وكتبه لينين ودونه ستالين عن الشيوعية في الحقلين النظري والعملي . لقد آمنت

آنذاك كما آمن ويؤمن كل شيوعي بان الرغبة هو القيمة الحقيقية في الحياة وان الانسان قبل أن يسأل عن اسباب وجوده فلسفياً يحارب من اجل تأمين اسباب قوته ، وأن المرء هو كائن مادي بكل مالملمة المادية من معنى ومفهوم ، وان التاريخ هو على حد تعبير ماركس هو نشاط الانسان الملاحق غاياته المادية الخاصة .

بهذه العقائد كدت اؤمن والى هذه الفلسفة ، الفلسفة المادية الديالكتيكية كدت انساق حتى كان يوم طوح باديب الشيشكلي كطاغية وديكتاتور . وتدفقت الجماهير الى مشاهدة السجن الذي ابتناه الشيشكلي ليوطد سلطانه وكنت مع من ذهب لمطالعة ذاك الاثر الوحشي الرهيب فوقفت أمام زناناته المشرعة الابواب وتطلعت اليها فاذا بها اقفاص من اسمنت مسلح داخلها مرحاض صم خصيصاً ليكون الى جانب رأس السجين . لقد تفنن مهندسو ذاك السجن الرهيب بينائه ودل من وضع تصميمه وشيده على نفسية عريقة في الاجرام مصابة « بالسادزم » فاذا بالدموع تطفر من عيني واذا بي انطق دون ماوعي : حقاً ان الحرية لاثنى الاف المرات من الرغبة . لقد تصورت آنذاك نظاماً يمكنني من اللباس الفاخر والطعام الشهي ويؤمن لي كل رغبات نفسي واشتهاءاتها غير أنه باستطاعة مثل هذا النظام ان يزج بي في الوقت ذاته داخل تلك الزنانات الرهية ايضاً فاذا بنفسني تنقزز من لباسه الفاخر وطعامه الشهي فعلت عندئذ أن الانسان ليس فقط معدة تجوع فتأكل الاطايب فتشبع وتنسى الظلم والمظالم ، بل انما الانسان روحاً تحتاز الماديات في كل مغرياتها ومشهياتها الى شيء اسمى والى جوهر بعيد قد يكون ناء عن ادراك الانسان ومنطقه غير انه قريب وقريب جداً الى وجدانه وضميره .

لقد آمنت وأنا أقف امام زنانات سجن الشيخ حسن ، بان نظاماً بيتني مثل هذه القبور الرهية لا يمكن أن يمت الى الانسانية بصلة ، ولا يمكن له بالتالي أن يدعي انه يقصد خير الشعب ويريد صالح الامة .

لقد آمنت وأنا أشهد تلك المقبرة بان من تبلغ به رغبته في الانتقام من
خصومه السياسيين هذا الدرك المروع في وحشيته والفاجع في خسته وحقارته ،
ليس بالرجل الذي يمكن ان تكون مقاصده الحقيقية تأمين العدالة للمواطن
وتدعيم الكرامة في الانسان . لقد تفتحت أمام ذهني الحكمة الانسانية الرائعة
التي وردت في كتاب روح الشرائع « المونتسكيو » والقائلة :

« الناس كلهم متساوون في الحكومة العادلة ، وهم ايضاً متساوون في
الحكومة المستبدة ، هم متساوون في الاولى لانهم كل شيء فيها ، وهم متساوون
في الثانية لانهم ليسوا شيئاً فيها . »

لقد اتضح ، لي آنذاك ، وأنا أقف أمام ذاك الاثر الشيطاني الرهيب ،
ما عناه « مونتسكيو » حينما قال :

« قد يكون للامة الحرية منقذ ، ولا يكون للامة المستعبدة غير طاغية

آخر . »

منذ تلك اللحظة ، لحظة وقوفي أمام سجن الشيخ حسن ، تحول وجداني
بعقلي عن الشيوعية كفلسفة ونظام فأخذت افتش عن فلسفة أخرى تملأ الفراغ
الروحي الناشيء عن ذاك التحول ، فلم اجد حتى الآن من فلسفة أو من بها
كنظرة الى الكون وكنظام ودين سوى الاسلام ، الاسلام في روحه لا في
المعاني الجامدة التي طلع بها علينا بعض الفقهاء وبعض الجمعيات والهيئات .

لقد آمنت آنذاك بانه حتى العوامل الاقتصادية لها سعة روحية ، وأن
الروح هي التي تفعل في المادة تكيفها حسباً تشاء وتجعلها تنطبق وتنسق والحاجات
الروحية . وهذا ما وصل ايضاً الى تقريره العالم الأميركي « رينولد موننبوهر »
حيث يقول :

« ليست الرغبات الاقتصادية مجرد التعبير عن دافع الجوع او البقاء في الحياة
الانسانية ، والرغبة في « السلطان والمجد » متحدة بمحذق مع الدافع الاكثر بدائية .
ان رغبة الاسد في الطعام تشبع عندما تحشى معدته . ورغبة الانسان في

الطعام تحد بأسهل من الرغبات الانسانية الاخرى ، ومع ذلك فان دافع الجوع يخضع لتصفيات النهم والتواءاته التي لا حصر لها . أما المسكن والملبس فلهما حدود اكثر قابلية للانبساط والاتساع من حدود المأكل ، فمعطف الانسان ليس أبدا مجرد غطاء لعريه ، بل الشارة الدالة على مهنته ، او التعبير عن دافع في ، او طريقة لاجتذاب الجنس الآخر ، أو دليل على المكانة الاجتماعية ؛ وبين الانسان ليس أبداً مجرد مكان يأوي اليه ، بل انه التعبير عن شخصيته ، ورمز قوته ومكانته ونفوذه .

ويستطرد هذا العالم المشهور فيقول :

« ان المجتمع الحر يتطلب بعض الثقة في قدرة الناس على الوصول الى تعديلات اختيارية محمولة بين مصالحهم المتنافسة ، وعلى الوصول الى بعض الافكار المشتركة عن العدالة التي تسمو على المصالح الجزئية كلها . ان التشاؤم الملح في قدرة الانسان العقلانية على تحقيق العدالة تؤدي الى نظريات سياسية اطلاقية لان هذه النظريات تلهم الاقتناع بان القوة الغالبة وحدها تستطيع أن تكره مختلف القوى الحيوية لدى الجماعة على العمل بتناغم . (Harmony) »

نعم ، علينا كقوميين العرب نريد ان ننشيء دولة حرة تسودها أمة حرة أن نثق بقدرة المواطن على مشاركة السلطات في تأمين قيام العدالة ، وعلينا ان نجعل هذه الثقة متبادلة بين المواطن والدولة ، فالدولة التي تفقد ثقتها بالقدرة العقلانية للمواطن والمواطنين ، يفقد المواطن والمواطنون ثقتهم بقدرتي الدولة العقلانية والوجدانية ، ويرون في مثل تلك الدولة هيئة انما اوجدت لتخضع لا لتقنع ، لتتحكم لا لتحكم .

وهذه الحقيقة تفرض على السلطات ان تتيح جميع الفرص للمواطن ليلمس لمس اليد ان وجوده مؤكد في الدولة ووجود الدولة يتأكد فيه ، فالانسان كما يقول اتباع الفيلسوف زنيون قادر اذا ما وجد الدليل والمرشد على ان يتحقق بالفضيلة . وقدرته هذه نابعة من ايمانه بانه في حالة انخيازه كمواطن عن جادة

الفضيلة فانما هذا الانحياز سيؤدي الى دماره كفرد في امة حرة وكمواطن في دولة حرة . وبهذا يقول العالم جون مدلتون موري في كتابه المعروف باسم « الاسس المناقبية للديمقراطية » وفي الصفحة ١٦٨ منه ما يلي :

« وكما ان المجتمع الديمقراطي يختار حكومته بحرية ، كذلك يجب ان يختار المواطن الديمقراطي بحرية أن يؤدي واجبه في سبيل الخير العام . انه يجعل من ضميره رقيباً على افعاله . انه يطيع القانون ، لا كأمر خارجي ، بل بوصفه التعبير الافضل عن نفسه التي ترغب وتريد ان تعمل اطاعة لقانون يعتبره عقله ضروريا ... ان الديمقراطية تقوم ، لا نظرياً فحسب ، بل عملياً ايضاً وذلك على حقيقة موجب عام يقضي باطاعة القانون المناقبي . امام اذا لم يعترف بهذا الموجب للعمل به فان الديمقراطية لا بد لها ، في وقت الشدة الحقيقية من ان تنهار وتتداعى . واذا كانت صحة القانون وهما فان صحة الديمقراطية وهم كذلك . »

اني اعرف بوصفي قومياً عربياً ، يؤمن بثورة القومية العربية ، اننا نمر في ظروف استثنائية ، ظروف اقتلاع جذور انظمة اجتماعية وسياسية تنتشر في اجوائنا جرائم الاستعباد ، وتسمم مجتمعنا بسموم الذل والعبودية ، غير ان اللجوء الى الاجراءات الاستثنائية في هذه الظروف الاستثنائية يجب ان تتناول الاوضاع قبل الاشخاص والنظم قبل القائمين عليها .

فنحن كقوميين عرب نريد لامتنا حياة كريمة عادلة في دولة اتحادية شاملة . والعقبات التي تقف في طريقنا معروفة منذ قرون وهي متمثلة بالرجعية وانظمة الحكم المتخلفة ، هذه الانظمة الممثلة بالكسروية والقيصرية ، لذلك فان جهادنا يجب ان يتركز على ضرب هذه الانظمة بايقاظ الشعوب العربية وفتح أعين ابنائها على مساوئها ومفاسدها ، ويجب ان نفهم القوميين العرب ان مهمة الهدم تنتهي عند هدم تلك الانظمة او عند اقتلاع المفاسد التي غاصت عميقاً فيها . على هذه الاهداف تجمع كلمة القوميين العرب ، غير انني أخشى ان يختلف

القوميون العرب على الوسائل ، ومثل هذا الخلاف ان حدث لاسمح الله فانه سيضعف قوى ثورة القومية العربية لانه سيؤدي بالتالي الى اختلاف الثوريين العرب على الاهداف والوسائل معاً ، لذلك يتوجب على الثوريين العرب ان يستنوا دستوراً ينظم وسائل عملهم ويوحد مناهجها ، ويجب ان يتوخى مثل هذا الدستور وفي كل مادة من مواده الابتعاد عن العنف وعن الاجراءات العنيفة ضد الارواح ما استطاع الثوريون العرب الى ذلك سبيلاً ، فطريقنا الى اقامة الدولة الاتحادية الشاملة ان تكون ، او بالأحرى لا يجب ان يسمح لها وفي كل الاحوال بان تكون ، كالطريق الذي سلكته المانيا الى وحدتها ، طريق المستشار بسمارك ، طريق الحديد والنار ؛ بل ان طريقنا كانت وستبقى طريق المناقشة والاقناع ، مناقشة الشعوب العربية لا السلطات ، واقناع الجماهير العربية لا الحكومات .

انني أعرف بأن ضمير الثورة ومنطقها يفرضان على الثورة اشتراع القوانين لحماية نفسها من خصومها واعدائها ، غير أن القائمين على الثورة اذا استهدفوا حين اشتراعهم القوانين حماية اشخاصهم لاحماية الثورة فان الثورة عندئذ ستنقلب على ابنائها لتلتهمهم الواحد تلو الآخر . لهذا يتوجب على القادة ان يفسحوا بين صفوفهم مكاناً للقادة الثوريين الجدد ، وأن يغذوا عقب كل فترة من الزمن الثورة بدماء جديدة وافكار جديدة ووجوه جديدة ، لان جمود الثورة في هيئاتها وتنظيماتها ، وضيق صدر قيادتها بالقوى الثورية الناشئة ، سيجعل قادة الثورة الاوائل يرون في القوى الثورية الناشئة قوى منافسة لهم على المناصب والمراكز على الزعامة والقيادة . وهذه النظرة ان سيطرت لاسمح الله على منطق قادة الثورة ، فعندئذ ستتحول الثورة الى ضرب القوى الثورية الناشئة بالقسوة ذاتها وبالعنف ذاته الذي ضربت به قوى الرجعية المنحلة ، ومثل هذا التحول ان طرأ على الثورة لاسمح الله ، فعندئذ تتجرد الثورة من صفاتها الثورية وتموت كثورة ويغدو ماتبقى على اعقابها من نظام نظاماً رجعياً ان حارب فهو

يحارب منسحباً وان ناضل فهو يناضل متراجعاً أمام القوى الثورية الجديدة التي لم تجد من يتبناها او يستعملها من قادة الثورة الاوائل .

هذا منطق تطور الثورة ، وهذه هي الحقيقة التي تنظم وجودها ، فثورة القومية العربية تنتهي حال وصولها الى أهدافها المتمثلة بتحقيق الدولة العربية الاتحادية الشاملة واقامة المجتمع العربي السعيد ، وتحقيق هذه الاهداف قد يستغرق عشر سنوات في حالة بقاء الظروف الدولية على حالها هذه ، لذلك يتوجب علينا ان نحافظ على ثورتنا ملتزمة مشتعلة طيلة هذه الفترة الزمنية على الاقل ، ووسيلتنا للمحافظة على تأجيج ضرام ثورتنا يستلزم القادة الثوريين كما قلت آنفاً تغذية الثورة بقوى ثورية جديدة ، وهذه التغذية يجب ان تشمل الزعامة والقيادة والهيئة العامة للثورة .

ان كل ثوري يفقد مع الزمن وقبل ان تصل الثورة الى اهدافها الكثير من صفاته ومميزاته وحيويته الثورية ، فاذا كان ذاك الثوري زعيماً للثورة او قائداً لها واذا لم يغد ذاك القائد الثوري هيئة قيادته بقوى ثورية جديدة تعوض عليه ما فقدته هو من حيوية ثورية فعندئذ تخمد الثورة قبل وصولها الى اهدافها .

لهذا تفرض العدالة في ابسط بديهياتها على الدولة الثورية ان تفسح جميع المجالات للقوى الثورية الناشئة لممارسة وجودها كقوة فاعلة ومجددة للقوى الثورية الاولى .

ان اكبر نكبة قد تصاب بها ثورتنا الحالية هي ان تلجأ القوى الثورية الاولى الى محاولة خنق القوى الثورية الناشئة ، ففي هذه الحال يلبس الارهاب ثوب القانون وترتدي التدابير البوليسية جلباب العدالة وينتشر القلق في ارجاء المجتمع ويغدو شباب الطليعة هم المضطهدون .

ولا سبيل لنا لتلافي هذه الاخطار الا في اتاحة كل الفرص للقوى الثورية الناشئة كي تنمو وتترعرع وتندمج في القوى الثورية الاولى ولتحقيق هذه

الغاية الجوهرية يتوجب على القادة الثوريين ان يتحلوا بفضائل خمس ، الاولى النزاهة المتجردة تجرداً مطلقاً ، والثانية الاخلاص لاهداف الثورة اخلاصاً متناهياً ، والثالثة تغذية قوى الثورة بالكفاءات الثورية تغذية مستمرة مستديمة ، والرابعة الابتعاد عن المحسوبية في كل اشكالها ، والخامسة اطلاق اكبر قدر من الحريات العامة لتتمكن الثورة من اكتشاف القوى الجديدة والكفاءات الجديدة ولنبتات المجتمع الجديد .

الفصل الثالث

الاتحاد

السياسة الخارجية

١ — ماهي القومية العربية ؟

اولاً : القومية العربية هي نداء انساني منبعث من أعماق أغوار الضمير العربي ، واردة فولاذية واعية نابعة من عقل عربي واع ، واستنفار الهي للشعوب العربية كي توحد قواها وتعيء مجهوداتها المادية والروحية بغية الثورة على الاستعمار وتدمير الانظمة السياسية التي تبقي الانقسام بين الشعوب العربية والتجزئة بين الاقاليم العربية ، وتحول دون تحقق وحدة الوجود القومي للامة العربية ، وتمنع تحقق انسجام وتناغم (Harmony) المصالح المادية ، وتحارب التفاعل الروحي بين الشعوب العربية .

ثانياً : القومية العربية هي ارادة الامة العربية وعزمها وتصميمها على اقامة الدولة العربية الاتحادية الشاملة والممتدة من المحيط الاطلسي حتى الخليج العربي وذلك لضمان تنفيذ الاهداف الاساسية للقومية العربية ، هذه الاهداف المبينة في الفقرة السابقة لهذه .

ثالثاً : القومية العربية هي صرخة المستعبدين من ابناء الامة العربية ، واستغاثة المحرومين من الجماهير العربية ، وثورة الامة العربية في مستعبدتها ومحرومها على الانظمة الاجتماعية الظالمة وعلى قوى الرجعية والانتهازية والفوضوية .

رابعاً : القومية العربية هي ارادة الامة العربية وعزمها على اقامة مجتمع يضمن لابنائها الحرية والكرامة والسعادة وذلك بواسطة نظام اجتماعي ينفي الاثرة

الطبقية وينفي الاقطاع في شكله المادي والاجتماعي ، وينع سيطرة رأس المال على الحكم ، غير أنه يضمن لرأس المال كل ظروف وفرص التكاثر والنمو .

خامساً : القومية العربية هي امتداد للروح العربية الى العالم الاسلامي فالعالم فالكون وذلك لاقامة نظام عالمي يستطيع ان يحقق التوازن بين العوامل المادية والعوامل الروحية ويضمن بقاء مثل هذا التوازن قائماً في التركيب الاممي للحضارة الانسانية .

سادساً : القومية العربية هي صرخة الامة العربية في آذان الامم الاخرى ودعوتها الملحة للشعوب والامم الاخرى لالغاء الاستعمار في كل اشكاله الاحتكارية والانتهازية والاستغلالية وذلك لايجاد الامية الصالحة في نطاق الدولة العالمية الاتحادية ذات النظام المنبثق عن مبدأ التعاون الحر بين الشعوب ومبدأ العدالة في تبادل المنافع .

سابعاً : تزول القومية العربية وتفي حالما تزول الاطماع الانسانية وحالما تدرك الامم والشعوب بان بقاءها ورخاءها مرهونان باحلال التعاون والتبادل المتكافئ للمنافع ، بدلاً من الاستعمار والاستغلال ، دستوراً ينظم علاقات الامم بعضها ببعض وقانوناً يوجه نشاطاتها المادية وفعاليتها الروحية نحو تحقيق هذه الغاية الانسانية السامية .

هذه هي المنابع السبعة التي تنبع منها القومية العربية ، وهذه هي أهدافها الحقيقية في الحقلين القومي والانساني غير انني في هذا الفصل من هذا الكتاب ساقصر في بحثي على موضوع الاتحاد ووسائلنا الى تحقيق قيام الدولة العربية الاتحادية الشاملة .

ب — الاتحاد الاندماحي بين سورية ومصر :

سبقت القومية العربية في وثباتها الثورية المظفرة قلبي ، فلقد بدأت بكتابة هذا الكتاب ولم أكن أتصور ابداً ان ولادة الجمهورية العربية المتحدة ستم

قبل صدور كتابي ووصوله الى أيدي القراء الاكارم ، لذلك يجد القاريء في
فصول كتابي الاولى بان دعوتي الى تنظيم القوى الثورية ، في كل سورية ومصر ،
انما جاءت تحت تأثير الظروف السابقة لقيام الجمهورية العربية المتحدة .
لذلك فاني لارجو الله من صميم فؤادي أن تسبق القومية العربية صدور
كتابي الى تحقيق الدولة العربية الاتحادية الشاملة .

هذه مقدمة لا بد منها ، والآن سأعود الى موضوع الاتحاد الاندماجي بين
سورية ومصر .

هناك فئة كبيرة من المثقفين ومن شباب الطليعة في سورية يرون بان طريقنا
الى اقامة الدولة الاتحادية الشاملة هو الاتحاد الفيدرالي ، ويقول هؤلاء المثقفون
الذين اعتز بصداقتهم واحترام رأيهم وثقافتهم ، ان الاتحاد الفيدرالي هو النظام
الناجح لابقاء الاقاليم العربية مجتمعة الشمل في دولة اتحادية تنظم الشؤون الاقتصادية
والعسكرية والخارجية لمجموعة الاقاليم العربية ، ويستطرد هؤلاء الاصدقاء
المحترمون فيقولون أن روح اللامركزية الواسعة هي التي تسيطر اليوم على مباديء
الحكم واسس الادارات العامة ، ويضربون مثلاً بهذا الاتحاد السويسري الذي
يتألف من ست ولايات يربط بينها نظام اتحاد فيدرالي ومن ثم يسترسل هؤلاء
الاصدقاء المثقفون فيقولون ان الانتخابات البلدية ذاتها هي الدليل على صحة العمل
بروح نظام اللامركزية الواسعة ، هذه الروح التي لا يمكن ان توجد وتضمن
الا من قبل نظام الاتحاد الفيدرالي .

انني اوافق موافقة تامة على كل كلمة قالها او يقولها هؤلاء الاصدقاء
المحترمون ، وانني لمؤمن ايماناً عميقاً بصحة منطقهم وبسداد آرائهم غير أنني ، مع
موافقتي تلك وايماني هذا ، أرى بقناعة عقل وارتياح ضمير واطمئنان وجدان
ان الاتحاد الاندماجي لا الاتحاد الفيدرالي هو ملزم أساسي من ملزمات نجاح
الثورة وضمن تحقق أهدافها وذلك لاننا نحارب اليوم لتحقيق الدولة الاتحادية
العربية الشاملة في ظروف صعبة استثنائية ، صعبة في الداخل وحرجة في الخارج ،

كما وان سورية ومصر هما الاقليمان العربيان اللذان أخذنا على نفسيهما كما قلت في فصل سابق قيادة الشعوب العربية الى تحقيق الدولة الاتحادية العربية الشاملة . لهذا كان نجاح هذه القيادة في تحقيق مهامها يتطلب أول مايتطلبه وحدة الادارة ووحدة المسؤولية ، المسؤولية أمام القوى الثورية التي تسيطر على أجهزة الدولة في الاقليمين السوري والمصري ، ووحدة المسؤولية أمام القوى الثورية في الاقاليم العربية الاخرى ، هذه القوى التي تكافح الاستعمار والانظمة الاجتماعية الظالمة والمتجزئة والانقسام . والوحدة في المسؤولية لاتم بصورة كاملة الا عن طريق الاتحاد الاندماجي الحالي القائم بين الاقليمين السوري والمصري في الوقت الحالي .

لذلك فان مهام الجمهورية العربية المتحدة اليوم لاتستهدف ابداً في المرحلة الحالية - اقول في المرحلة الحالية - انشاء وبناء جهاز مثالي للادارة والحكم ، بل انما تستهدف اولاً واخيراً اضرار الروح الثورية في الاقاليم الاخرى لتأتي هذه الروح على جميع الانظمة ومشتقات تلك الانظمة التي تحول دون تحقق وجود الامة العربية في دولة عربية اتحادية شاملة يربط بين اقاليمها نظام اتحاد فيدرالي ، اقول للتأكيد ثانية يربط بين اقاليمها نظام اتحادي فيدرالي كالنظام الاميركي . وشعوري بضرورة قيام القيادة الموحدة ، والعمل بمبدأ الوحدة في المسؤولية أمام القوى الثورية العربية ، يجعلني هنا أن أنتكر لما جاء في كتابي هذا وخاصة لما جاء في الصفحة ٦٢ و ٦٣ منه والمتعلق بمعارضتي الشديدة لالغاء الاحزاب وانشاء اتحاد قومي في سورية ، لقد كانت معارضتي حينما كتبت ذاك الامر ناشئة عن انني كنت أرى ان قيام الجمهورية العربية المتحدة لايزال عسير المنال بعيد المحال ، وعن شكّي العميق بان هناك قوى سياسية معينة تريد من وراء الغاء الاحزاب واقامة اتحاد قومي فرض ديكتاتوريتها على الشعب العربي في الاقليم السوري لا السير بالشعب العربي في سورية نحو اقدس غاياته الممثلة باقامة الدولة العربية الاتحادية الشاملة ذات النظام الفيدرالي .

اما وقد تحققت اول ايماني الامة العربية في ميلاد الجمهورية العربية المتحدة فان ايماني وقناعتني بضرورة الوحدة في المسؤولية ومركزية القيادة الثورية تجعلني اطلب الغاء الحياة الحزبية وقيام الاتحاد القومي ولمدة لا تتجاوز الدورة التشريعية الاولى لمجلس الامة في الجمهورية العربية المتحدة .

وذلك لانه يتوجب على قادة الثورة ان يعملوا خلال هذه الدورة التشريعية التي لا أعرف كم ستمتد خمس او اربع سنوات ، وعن طريق الاتحاد القومي الى جمع القوى التقدمية الثورية في صفوف هذا الاتحاد ، ومن ثم وقبل نهاية الدورة التشريعية الاولى الى توزيع هذه القوى الى حزبين احدهما يتولى المعارضة والآخر الحكم وذلك تمشياً مع الروح الديمقراطية التي نريد لها ان تبقى الموجه الاول والمرشد الحكيم للقومية العربية .

وانني وعلى صفحات كتابي هذا لأرجو من قادة الثورة ان يعملوا بالنصيحة الآتفة الذكر بغية حماية الثورة من الانتكاسات والرجعة .

لهذا ارى وانصح مخلصاً بان تقوم قيادة ثورة القومية العربية عقب حال انتهاء الدورة التشريعية الاولى لمجلس الامة باقامة الحياة السياسية عن اساس نظام الحزبين ، كما هي الحال اليوم في كل من بريطانيا والولايات المتحدة ، كما واعدوا لأكبر رجائي بان لا يتأخر العمل بنظام الحزبين عن موعد انتهاء الدورة التشريعية الاولى لمجلس الامة .

ان للاتحاد الاندماجي اليوم اعداء في الداخل يفوق خطرهم خطر الاعداء في الخارج بمراحل واشواط ، وذلك لان هناك فئة في كل من الاقليمين السوري والمصري ترى في قيام الجمهورية العربية المتحدة تعارضاً ومصالحها الذاتية ، وهذه الفئة تتمثل بالطبقة البرجوازية المتوسطة منها والصغيرة ، كما وتمثل في سورية في طبقة كبار ملاك الاراضي المنزرعة ، ويضاف الى هؤلاء طبقة تجارية اخرى ترى في انتهاج سياسة اقتصادية منهجية ضرراً بمصالحها الخاصة ، وهذه الفئات منفردة ومجموعة تفرض عليها مصالحها الذاتية ومآربها الدينية وطمعها الشره ونهمها

البشع ان تبذر العقبات في طريق اقامة الاقتصاد العربي المتكامل واقامة السوق العربية المشتركة ، المشتركة حالياً وحالياً فقط بين الجمهورية العربية المتحدة والاقاليم العربية الاخرى .

لذلك يتوجب على القادة الثوريين العرب في الجمهورية العربية المتحدة مراقبة هذه الفئات مراقبة حذرة دقيقة ، وان ترقب نشاطاتها بعين يقظة ساهرة لانه من المؤسف ان هذه الفئات تجهل كل الجهل الاساس الاخلاقي والقواعد المناقمية للقومية العربية ولذلك فهي لاتستطيع ان تفهم بان للحياة من معنى سوى تكديس الاموال في صناديقها ، لهذا يتوجب على الاجهزة الثورية ان تعالج هذه المشكلة الخطيرة بكثير من الروية والامعان والتعقل والحذر فتقنع هذه الفئات بان الطريق الى اثناء مكاسبها وزيادة ارباحها وتأمين رفاهها واساعة الرخاء في جوانب المجتمع واركانه لا يكون ولن يكون في هذا الانكماش الاقليمي بل انما يتحقق في التمدد والامتداد العربيين بواسطة اقامة الدولة العربية الاتحادية الشاملة ذات النظام الاتحادي الفيدرالي .

كما وانه يتوجب على هذه الفئات ان تقنع وتقتنع بان الوحدة القومية الامة لا يمكن ان تتحقق اذا عمد كل شعب في كل اقليم الى مناقشة نفسه في ابنائه ليكتشف مقدار الارباح المادية ، التي يجنيها حين اتحاده وشعب الاقليم الآخر او شعوب الاقاليم الاخرى التي تكون الامة .

ان الشعوب الالمانية والايطالية لو عمدت شعوبها حين ثورتها القومية الى مناقشة نفسها لتكتشف الارباح الاقتصادية والمكاسب المادية التي تتحقق نتيجة لاندماج هذه الاقاليم بعضها ببعض لما قامت الدولة الالمانية الموحدة او الايطالية ، ولما كانت المانيا الغربية اليوم تطالب وبالخاص بالمناطق الالمانية الشرقية ، هذه المناطق التي ستكون عالة على اقتصاد المانيا الغربية مستقبلاً قريباً ومستقبلاً بعيداً وذلك لكون تلك المناطق التي تشكل المانيا الشرقية هي اكثر الاقاليم الالمانية فقراً في مواردها الاقتصادية .

لهذا كله فان الثوريين العرب الذين يشرفهم ان يكونوا مواطنين في الجمهورية العربية المتحدة ، والذين يرون في هذه الجمهورية الحبيبة النواة للدولة العربية الاتحادية الشاملة ذات النظام الاتحادي الفيدرالي لن يسمحوا أبداً للآثرة الطبقية وللإثنية الحسيسة ان تهددا كيان هذه الجمهورية الوليدة .

ومع هذا فاني اقول بان قادة الجمهورية العربية تترتب عليهم اليوم مسؤوليات جسام ، مسؤوليات لا يمكن ان تحملها عواقبهم الا اذا تحلوا - أي القادة - بكل ما يسبغه العقل والضمير والوجدان من مزايا وفضائل على الانسان ، وذلك لان الجمهورية العربية المتحدة هي التجربة المحبوبة الاولى للقومية العربية في سلسلة تجاربها لاقامة الدولة العربية الاتحادية الشاملة ، وعلى نجاح هذه التجربة او فشلها لا سمح الله يترتب نجاح القومية العربية او فشلها في انشاء الدولة العربية المتحدة الشاملة .

ان عيون وعقول الشعوب العربية في الاقاليم الاخرى مركزة اليوم على كل خطوة نخطوها وعلى كل نأمر نأتيه ، في جليله وفي دقيقه في الجمهورية العربية المتحدة فاذا رأت تلك الشعوب في الاقاليم العربية الأخرى أن جميع اعمالنا واقوالنا ونشاطاتنا حكومة وشعباً تستهدف محلصة اقامة المجتمع الحر السعيد في الدولة القومية الحرة السعيدة فعندئذ سندفع بتلك الشعوب دفعاً الى هدم انظمتها وهدم كل حاجز يعترض طريقها الى طريقنا المؤدي الى الاتحاد العربي الشامل . اما في حالة اقرار القادة الثوريين في الجمهورية العربية المتحدة الاخطاء بحق الفرد والجماعة والمجتمع ، وهذه الاخطاء تتمثل في خنق الحرية التي يحدها القانون وتضمنها الاخلاق فعندئذ لن تندثر فقط الجمهورية العربية المتحدة بل انما ستندثر ايضاً أماني الأمة العربية جمعاء في اقامة الدولة العربية الاتحادية الشاملة وبذلك ستعود القضية العربية وقضية القومية العربية الى النقطة الاولى التي انطلقت منها . هذه المذورات لاتشكل أخطاراً ساحقة ماحقة على الجمهورية العربية المتحدة بل انها تشكل أخطاراً مبيدة للقومية العربية وناسفة لأماني الأمة العربية نفساً خيفاً مجرمًا .

لذلك فاني ارى ان نجاح القومية العربية في اقامة دولة عربية اتحادية يتوقف منذ يوم الحادي والعشرين من شهر شباط على سلوكنا جميعاً حكومة وشعباً ، مجتمعاً ودولة ، الطريق الحكيم الحذر الواعي ، هذا الطريق الذي سيفضي حتماً بالمواطن الى تنظيم علاقاته بالدولة على أساس من التعاون والاحترام لاعلى اساس من الخوف والرهبه والارهاب .

وسبيلنا الى الوصول الى هذه الغايات الشريفة أراها متمثلة في القضاء على كل شعور بالاقليمية والقضاء على كل عامل من شأنه أن يجعل المواطن في الجمهورية العربية المتحدة يميز بين السوري والمصري .

ولذلك فاني اقترح الخطوط العريضة التالية :

١ - توزيع المناصب الوزارية ومقاعد مجلس الامة بالنسبة لعدد السكان في كل من الاقليمين .

٢ - حصر وظائف الحلقتين الوسطى والدنيا في أبناء كل اقليم من الاقليمين .

٣ - حصر حق عضوية المجلسين التنفيذي في أبناء كل اقليم من الاقليمين على أن يرأس عربي مصري المجلس التنفيذي في الاقليم السوري ، وعربي سوري المجلس التنفيذي في الاقليم المصري

٤ - حين وضع الموازنة العامة ، يقدر مايجب من أموال من كل من الاقليمين وتحسم نفقات الدفاع والشؤون الخارجية ، وبعدئذ يعطى حق الافضلية لسكان كل اقليم في صرف المتبقي من واردات اقليمهم الى الموازنة العامة على المشاريع الانمائية في اقليمهم .

٧ - يجري حسم نفقات الدفاع والخارجية بالنسبة للواردات المتحققة من كل من الاقليمين .

٨ - لاتسمح الدولة مستقبلاً بقيام أية شركة او مؤسسة اقتصادية عربية ، اذا لم يكن رأس مال تلك الشركة او المؤسسة رأس مال مشترك ، وتحدد الدولة النسبة الدنيا لرأسمال الشركة او المؤسسة المنوي انشاؤها .

٩ - تمنع الدولة الشركات من قبول الموظفين والعمال من غير أهل الاقليم الذي تعمل فيه وتنشط .

١٠ - تحول الدولة في المرحلة الاولى دون هجرة الحرفيين والمهنيين من اقليم الى اقليم

١١ - تشجع الدولة تهجير الفلاحين من الاقليم المصري الى الاقليم السوري ، على ان تقيم الدولة مزارع تعاونية يكون سكانها خليطاً من المصريين والسوريين .

١٢ - يجري صرف القروض الخارجية في الوجهات التي تؤمن قيام اقتصاد صناعي وزراعي متكامل على ان يراعى عامل التهجير مستقبلاً .
واخيراً يجب ان يتوج هذه الامور كلها ابتعاد السلطة ابتعاداً كلياً عن الارهاب في شكله المادي والمعنوي ، ومن ثم على السلطة في الجمهورية العربية المتحدة ان تبتعد عن كل اجراءات العنف في كل خطوة تسلكها في الادارة والحكم .

ج - الطريق الى اقامة الدولة الاتحادية :

لقد اتضح نتيجة للاتحاد الاندماجي الذي تم مؤخر بين سورية ومصر ، هذا الاتحاد الذي ادى الى قيام الجمهورية العربية المتحدة ، انه ليس من طريق امام الامة العربية يقود بالامة الى اقامة الدولة الاتحادية الشاملة ذات النظام الفدرالي سوى الشعوب والشعوب فقط .

لذلك يتوجب على القادة الثوريين في العالم العربي ايقاظ الوعي السياسي والاجتماعي في نفوس الافراد والجماعات . وفي حالة اكتمال الوعي لدى الشعوب العربية فان هذه الشعوب ستفرض على حكامها التخلي عن الانانيات والعنعنات وحتى التخلي عن مناصبهم بغية تلاقي الاقاليم العربية في دولة اتحادية شاملة واندماجها في مثل هذه الدولة .

اننا لانستطيع ان نسلك بالشعوب العربية الى الاتحاد الطريق ذاتها التي

سلكتها بروسيا بقيادة بسمارك حين سعيها لاقامة الدولة الاتحادية الالمانية ، وأعني بهذه الطريق ، طريق الحديد والدم ، وذلك لان الظروف الدولية التي تحيط بجهد القومية العربية في سبيل اقامة الدولة العربية الاتحادية ظروف تجعل من الخطر على القوى الثورية سلوك طريق الحرب بغية تحقيق الوجود القومي للأمة العربية في الدولة العربية الاتحادية .

فمشروع ايزنهاور الاخير مثلاً انما وضع لحماية الدول في الاقاليم العربية من هجوم مسلح تقوم به دولة ثورية عربية بغية تحقيق الدولة الاتحادية العربية . كما واننا لانستطيع في الوقت ذاته ان نسلك طريق المفاوضات والحكومات العربية الاخرى من اجل تحقيق الوحدة العربية في الدولة الاتحادية الشاملة .

لقد دلت تجربتنا في الجامعة العربية على ان الجامعة العربية لم تحقق اي هدف من اهدافنا القومية ولم تستطع الجامعة العربية ان تخطو بالامة العربية خطوة واحدة نحو اقدس غاياتها المتمثلة باقامة الدولة العربية الاتحادية الشاملة ، بل لقد اتضح ان الجامعة العربية قد قامت لتمارس عكس الغايات الاساسية للشعوب العربية اذ انها اعتمدت في كل خطوة من خطاها مبدأ تدعيم الانقسام بين الشعوب العربية وتوطيد التجزئة بين الاقاليم العربية ، واتضح بالتالي ان الروح المسيطرة على الجامعة العربية روح ترغب رغبة اكيدة في عدم اتحاد كلمة العرب ومحاربة كل محاولة قومية اصيلة ترمي الى توحيد كلمة الامة العربية في الدولة العربية الاتحادية ذات النظام الفدرالي .

والمتمتع في المناهج الاقتصادية والاجتماعية التي تطبق في الاقاليم العربية الاخرى يلمس لمس اليد ان هناك روحاً شريرة قد وضعت هذه المناهج ، وان هذه الروح تتوخى من وراء وضع مثل تلك المناهج غاية واحدة ووحيدة تتمثل في ابقاء التجزئة بين الشعوب العربية والانقسام بين اقاليمها .

لذلك لم يبق امام الثوريين العرب الا الوسيلة الوحيدة التي ذكرتها في مطلع بحثي هذا ، هذه الوسيلة التي تقول بالاعتماد على الشعوب العربية ، والاعتماد على

وعبها وترجمة هذا الوعي اعمالا ثورية بغية تحقيق الدولة العربية الاتحادية ذات النظام الفدرالي .

ان باستطاعة القادة الثوريين العرب ان يصلوا الى غاياتهم السامية عن طريق الشعوب ، وهذه الطريق هي الطريق الوحيدة التي يتوجب علينا سلوكها وذلك لانها تحصر المعركة في رقعة ضيقة وتجنب القوى الثورية المخاطر والمغامرات الدولية . لهذا يتوجب على الثوريين العرب ان يعدوا المناهج والبرامج لاضرام نيران الثورة المقدسة في كل اقليم يرفض حكامه الانضمام باقليمهم الى الدولة العربية الاتحادية ذات النظام الفدرالي .

وعلى الثوريين العرب ان يتعجلوا في اعمالهم الثورية داخل الاقاليم وسبب هذه العجلة التي ادعو اليها وألح هو نشوء مصالح اقليمية ، وعن هذه المصالح الاقليمية تنشأ طبقات عمال ونقابات عمال ومهنيين وحرفيين الى غير ذلك من الطبقات الشعبية ، وهذه الطبقات الشعبية الناشئة عن المصالح الاقتصادية الجديدة ترى في اندماج اقليمها في الدولة الاتحادية تهديداً خطراً لمصالحها او بالاحرى ذوبان مصالحها وتلاشيها ، ولذلك فان هذه الطبقات الشعبية ان لم يتمكن الوعي الثوري في عقلها ، ويضرب الايمان بالقومية العربية بجذوره عميقا في وجدانها ، فعندئذ ستعتمد هذه الطبقات الشعبية الى مساندة الحكم وتدعيم مشتقات هذه الانظمة بغية الابقاء على التجزئة والانقسام السائدين اليوم في الاقاليم العربية وبين الشعوب العربية .

هذه الحقيقة وهذا الواقع يضع الثوريين العرب في حلبة سباق والزمن .

د - السياسة الخارجية :

قلت في أماكن كثيرة من كتابي هذا ان القومية العربية ليست بقومية عدوانية تؤمن بالعرق والعنصر ، وتستهدف توحيد الامة العربية في دولة اتحادية بغية تأسيس امبراطورية استعمارية عربية ، وقلت ايضاً في أماكن كثيرة ان القومية العربية قومية مسالمة تحب السلام غير أنها ترفض الخنوع وتأبى الاستسلام .

ونحن معشر القوميين العرب لانريد كما قلت ايضاً في كتابي هذا ان نجعل من القومية العربية قومية منعزلة عن بقية القوميات الاخرى ، وان نفصل الدولة العربية الاتحادية عن بقية الدول وأن نعيش بمعزل عن العالم . بل ان أهدافنا الاساسية تتمثل كلها في تحرير العالم العربي من الاستعمار ، وتوحيد الشعوب العربية في دولة اتحادية تنفعل وتتفاعل وبقية الدول الاخرى في العالم ، تتعاون وتتعاقد والامم الباقية لتدعيم الحضارة الانسانية قولاً وعملاً وتنظم العلاقات الدولية على أساس من العدالة والحق .

من اجل هذه الاهداف وفي سبيل هذه الاهداف تشتعل اليوم الثورة القومية في العالم العربي .

١ — رأس المال الاجنبي

اننا معشر القوميين العرب لانستطيع ان ننكر اننا في مرحلتنا الحالية ، وفي مراحل كثيرة مقبلة بمسيس الحاجة الى رأس المال والخبرة الاجنبيين ، ففي العالم العربي الغزير من الموارد التي لايمكن لنا استثمارها حالياً لصالح الانسانية مالم نستعن بالرسميل الاجنبيه وبالخبرة والتقنية الاجنبيتين . غير ان هذه الحقيقة لاتجعلنا نرحب برؤوس الاموال الاجنبية وبالخبرة الاجنبية دون مادراسة او حذر أو امعان . فلقد علمنا تاريخنا الطويل مع الاستعمار ان النفوذ الاجنبي والاستعباد الاجنبي كانا دائماً يتسربان الى بلادنا تحت ستار كشف من دخان الوعود والعهود والمعونات والنوايا الطيبة . وهذه الحقيقة التاريخية هي التي تجعلنا احياناً كثيرة نتردد في السماح لرؤوس الاموال الاجنبية بممارسة نشاطاتها في بلادنا ، وتجعلنا نتلكأ او نرفض المعونات الاجنبية المشبوهة .

غير انني اقول بلسان كل قومي عربي اننا نحن معشر القوميين العرب نرحب من صميم قوادنا بكل شخص او شركة اجنبية يريد او تريد ان تستثمر رؤوس اموالها في بلادنا ، وتوخي من وراء ذلك اولا وأخيراً تحقيق فوائد ومكاسب اقتصادية واقتصادية فقط .

ان سياستنا ورأس المال الوطني يوجهها المبدأ القائل بابعاد سيطرة رأس المال عن الحكم والحيولة دون توجيه أجهزة الحكم في صالح الرأسماليين ، ومثل هذه السياسة من الاولى أن نعتمدها حين تعاملنا ورأس المال الاجنبي ونراقب تنفيذها بدقة وحذر وذلك للحيولة دون تسرب النفوذ الاجنبي وعودة الاستعمار الى بلادنا . فنحن العرب نشكل أمة مرفهة الحس سريعة الانفعال متفجرة الاحاسيس تشور على كل عمل من شأنه أن يمس استقلالنا وحرماننا او يهدد كرامتنا . « نحن أمة كما قال الرئيس جمال عبد الناصر نفصل الكلمة الطيبة على مليون دولار »

لقد تسرب رأس المال الاجنبي الى بلادنا منذ مده تزيد على نصف القرن واخذ ينشط ويحيي المرباح الطائلة على اساس من الاستغلال البشع والاستثمار المجرم ، وكلنا يذكر واصحاب الشركات البترولية على وجه أخص يذكرون انهم كانوا حتى التبديل الاخير للاتفاقات البترولية لا يقدمون الى الشعوب العربية في الاقاليم المنتجة للبترول سوى النذر اليسير من عوائد البترول . وكان اصحاب هذه الشركات يحتفظون لانفسهم بالجزء الاكبر من الارباح .

اننا نعرف ان البترول صناعة معقدة وأنها بمسيس الحاجة الى رؤوس اموال ضخمة وخبرة فنية ، وهذه لا تتوفر في الوقت الحاضر في العالم العربي ، كما ونعلم ان السوق البترولية سوق محتكرة من قبل الشركات العالمية المنتجة للبترول ، وعلمنا بهذه الحقائق كلها يجعلنا ان لانقدم مستقبلا ونحن مختارين على تأميم شركات البترول العاملة في العالم العربي ، واذا اقدمنا في احد الايام على مثل هذا الاجراء فاننا سنقدم مرغمين ، ولن يرغمنا على اتخاذ مثل هذه الخطوات سوى محاولة الشركات البترولية اقامة تعاملها معنا على اساس من الاستغلال ، او محاولتها التدخل في شؤون بلادنا السياسية ، او انتهاج الحكومة التابعة لها هذه الشركات ، سياسة تهدد مصالح الامن والمصالح الاقتصادية للأمة العربية .

انه لمن المؤسف ان بريطانيا خاصة ، تأبى حتى يومنا هذا ان تعترف بالقومية

العربية وتأبى أن تقتنع بأن المشيخات المنتجة للبترول كالكويت وقطر والبحرين وغيرها من غير المنتجة للبترول ستنضم عاجلاً أم آجلاً الى الدولة الاتحادية العربية الشاملة ان على بريطانيا ان تدرك تماماً وأن تؤمن ايماناً عميقاً بأن القومية العربية لاولن تهدد رؤوس الأموال البريطانية العاملة في منطقة الخليج العربي وعلى شواطئ البحر الاحمر ، وان كل ماتريده القومية العربية هو تحرير هذه المشيخات من النفوذ الاجنبي بغية فتح الطريق امامها للانضمام الى الدولة العربية الاتحادية الشاملة ، وعلى بريطانيا ان تتأكد حتى اليقين ان القومية العربية ستحقق تحرير المحميات ، لهذا أرى أنه من صالح بريطانيا بالذات أن تعترف بالعملاق الذي استيقظ في الشرق الاوسط هذا العملاق المعروف بالقومية العربية فتقدم كما اقدمت في الهند على السماح بالتحرر للعرب من أبناء هذه المحميات ، وبذلك تضمن بريطانيا الأمن والطمأنينة لرؤوس الاموال البريطانية العاملة في صناعة البترول .

لقد أقامت بريطانيا وسيدتها الولايات المتحدة الاميركية الدنيا ولم تقعدھا حتى الآن حينما أقدمت سورية ومصر على عقد قروض طويلة الامد لدى الاتحاد السوفياتي . وأخذت الدولتان الغريبتان الكيروتان تنشران الدعايات الكاذبة والقائلة بأن هذه القروض ستجعل من اقليمي سورية ومصر اقليمين شيوعيين يدوران في فلك الاتحاد السوفياتي ، غير أن ابسط مبادئ العدالة الانسانية ، وابسط دلائل حسن النية كانت تلي على الولايات المتحدة وبريطانيا على وجه أخص أن تقدم الى سورية ومصر فتقول بانني مستعدة للافراج عن الارصدة الضخمة المجمدة في بنك لندن لحساب اخوانكم العرب في الكويت وقطر والبحرين كي يتمكنوا من رفع المستوى المعاشي للطبقات الفقيرة في كل من الاقليمين السوري والمصري ، وكي لا يحتاجوا الى الاقتراض من الاتحاد السوفياتي ، وكي تتجنبوا بالتالي الشيوعية .

غير أن القضية بالنسبة للغرب ليست قضية مبادئ شيوعية او غير شيوعية ، فالغرب يعرف حق المعرفة أن الشيوعية لن تلقى ارضاً خصبة في البلاد العربية . والغرب يرى بأم عينه أعمال رئيسنا المحبوب جمال عبد الناصر ضد الشيوعية ومكافحتها

مكافحة لاهوادة فيها أولين ، لذلك فالشعوب العربية لها العذر كل العذر أن تؤمن وأن تقتنع بأن العدو الحقيقي للدول الغربية كبريطانيا والولايات المتحدة ليست الشيوعية بل القومية العربية ، هذه القومية الثورية التي أخذت على عاتقها تحرير العالم العربي وتوحيده في دولة اتحادية عربية شاملة .

ان مئات الملايين من الجنهات الاسترلينية مجمدة في بنك لندن اليوم لحساب اخواننا من أهل اقليم قطر والكويت والبحرين ولاسك ان اخواننا اولئك يرحبون بان نستثمر هذه الاموال الفائضة في مشاريع انمائية تعود علينا وعليهم بالخير والرفاه ، فاذا كانت بريطانيا حقاً صادقة في محاولة كسب ودنا ود القومية العربية فلتدلل على صدقها بانسحابها من المحميات والافراج عن الارصدة المجمدة لحساب المحميات كي يتمكن العرب من انشاء بنك عربي يمول المشروعات الانمائية في البلاد العربية غير المنتجة للبترول .

وختاماً أقول اننا نرحب برأس المال الاجنبي الذي يعتمد مبدأ التبادل العادل للمنافع بين سكان الاقليم الذي ينشط فيه وبين أصحابه شريطة ان يتبعد كل البعد على التدخل في شؤوننا السياسية .

٢ — الاتحاد السوفياتي :

لقد بحثت موقف القومية العربية في السياسة الخارجية وبحثت الاسباب التي دفعت بالقومية العربية الى انتهاز سياسة الحياد الايجابي وذلك في صفحة ١١ و ١٢ من كتابي هذا ، غير ان واجب الصدق والوفاء يجعلني قبل انهاء كتابي ان ارفع عميق شكري وامتناني للاتحاد السوفياتي على موافقة العظيمة من قضايا العرب في الحقل الدولي .

لقد أمدنا بالسلاح حينما رفض الغرب ذلك ، وأمدنا بالعون الاقتصادي عندما حاول الغرب بريطانيا وأميركا ان يبقيا الشعوب العربية في حالة من الفقر والاذلال وفتح اسواقه أمام المنتجات السورية والمصرية حينما اغلقت الاسواق الغربية امام

منتجائنا لذلك فان للاتحاد السوفياتي اقول للاتحاد السوفياتي لالشيوعية في قلب كل عربي رصيذاً لا يمكن ان يبده أحد سوى الاتحاد السوفياتي بالذات . على هذا الاساس تقوم علاقاتنا كقوميين عرب والاتحاد السوفياتي ، فليست العقيدة الشيوعية هي التي تشدنا اليه بل انما افضاله وكرمه ومواقفه الكريمة ، والاتحاد السوفياتي يعلم حق العلم أننا كقوميين عرب لنا منهاج خاص بنا يختلف عن منهاج الشيوعي وعقيدة خاصة بنا تختلف كلياً عن العقيدة الشيوعية وأمية خاصة بنا تختلف في جوهرها عن الامية الشيوعية ، ومع هذا وقف الى جانبنا موقف الصديق الكريم ولذلك فعلى دول الغرب ، وعلى الولايات المتحدة الاميركية ان تقتنع بانه لن يدفعنا الى دخول الاحلاف العسكرية ضد الاتحاد السوفياتي سوى الحقارة والحسة والندالة ، والعربي قد يوصف بكل موبقة ماعداً ان يكون حقيراً او خسيساً او ندلاً هذه هي حقيقتنا وهذا هو واقعنا والاتحاد السوفياتي ، ومن له آذان للسمع من دول الغرب فليسمع !

٣ — العالم الاسلامي

نحن جميعاً معشر القوميين العرب نوّمن ايماناً صادقاً واكيداً بان العالم الاسلامي هو الرثة الطبيعية للقومية العربية ، ونوّمن بان القومية العربية لا يمكن ان تتجرد عن الاسلام ديناً ونظماً ، ونوّمن بان تاريخنا طويلاً يربطنا الى الشعوب الاسلامية والدول الاسلامية ، اما موقفنا اليوم من العالم الاسلامي او بالاحرى موقف العالم الاسلامي منا فانه موقف غير المتفهم لقضايا العروبة الممثلة بتحرير الشعوب العربية أولاً من الاستعمار الغربي ، وتوحيد هذه الشعوب في دولة عربية اتحادية .

لهذا نرى بعض الدول الاسلامية تريد منا ان ننضم الى الاحلاف الغربية وحكام هذه الشعوب يعرفون حق المعرفة بان جميع قضايانا معلقة مع الغرب ، في الجزائر مع فرنسا ، في المحميات مع بريطانيا ، في اسرائيل مع الولايات المتحدة

وبريطانيا وفرنسا معا .

كما ولا شك أن هؤلاء الحكام يعرفون تاريخ صراعنا المرير والاستعمار الغربي من بريطاني وفرنسي ، ولذلك فإن الضمير الاسلامي في هؤلاء الحكام يجب أن يستيقظ ليدر كوا اسباب رفضنا السير وفق المنهاج الذي يريدون لنا أن نسير عليه .
انني أقول للشعوب الاسلامية انني قومي عربي ، وكوفي قومياً عربياً يجعلني أرى في كل مسلم أخاً لي ورفيقاً لذلك أريد من كل مسلم في العالم الاسلامي ان ينظر الى هذه النظرة وأن يتحسس بما التحسس وان يعرف بان اسباب دائي واسباب شقائي كعربي تعود الى الغرب الممثل ببريطانيا واميركا وفرنسا ، هذه الدول التي يريد حكامكم ايها الاشقاء المسلمون ان يدفعونا الى الارتقاء في احضانها .
اننا نحن معشر القوميين العرب نعرف بان القومية تعطي العربي وطناً ولكننا نؤمن ايضاً بان الاسلام يعطيه عالماً كاملاً ، ونحن اليوم نريد ان نحرر وطننا لننتقل الى عالمنا وعالمكم ايها الاشقاء المسلمون فنلتقي معاً احراراً جسداً ، احراراً روحاً وضميراً .

وختاماً اسرائيل ! فليسمع قادة هذه الدولة المسخ ، وليسمع زعماء الصهيونية العالمية صرخة قومي عربي يقول « لن يبقى لاسرائيل مكان في عالمنا ولن يبقى للصهيونية موضع قدم في ارضنا ، سنسحق اسرائيل اطلال الزمن ام قصر . ان شعارنا بالنسبة لاسرائيل سيكون كشعار القائد الروماني « فابيوس » لاتنسوا اسرائيل ! دمروا اسرائيل !

back

*PB-37348
5-20T
C-C

D

B

2475-274
27-2

Date Due

[illegible]

Demco 38-297





يصدر قريباً عن

دار البقعة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

للطبيب الكبير الاستاذ

احمد الشيباني

دراسات

في العقائد

عن

الاشتراكية الشيوعية الرأسمالية الفوضوية
الفاشية الاسلام المسيحية اليهودية الصهيونية

كتاب لكل امة ولكل جيل جديد

تطلب مطبوعاتنا ومنشوراتنا من كافة المكتبات في ارجاء العالم العربي